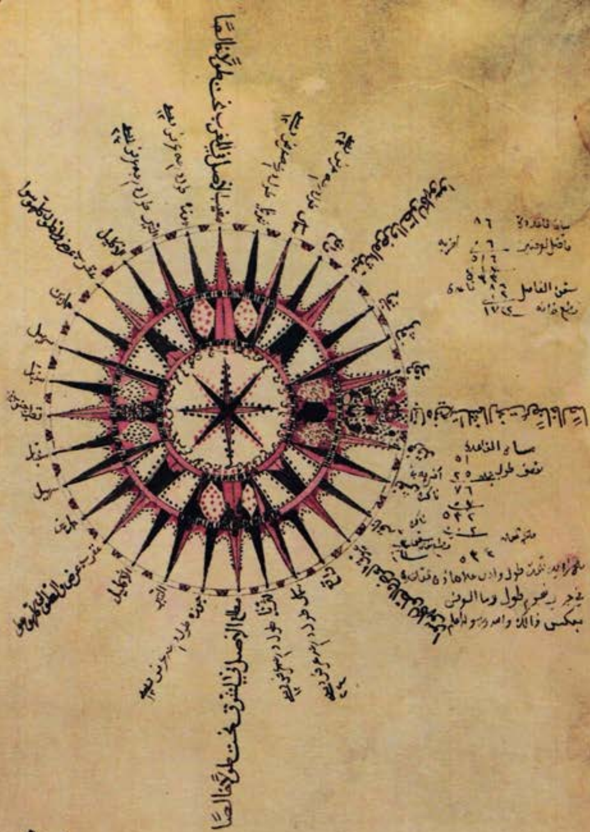
الطبعة الرابعة



بشرى خلفان

الباغ

رواية

مكتبة ياسمين

BUSHRA KHALFAN

AL BAGH

لا يستطيع أحد التنبؤ بما قد يصير إليه!

نغمض أعيننا في لحظة فإذا بنا في المكان الذي لم نختره، نغمضهما، فإذا بنا في الزمان الذي لا نعرف، أو في الدور الذي كنا نتجنب، وما نحن عليه اليوم قد يكون نقيضاً لما نحن عليه غداً، وتظلُ العجلة في دورانها، دون أن نجد الفرصة لنتساءل، عن خياراتنا وعن مصائرنا.

لا تجد **ريّا** جواباً لحيرتها التي تواجه بها أخاها **راشد** لحظة خروجهما من **السراير**: «الظلم في كل مكان، أول وتو»، فلماذا إذاً كان خروجهما؟

في دورة الزمن القاسية، السريعة، والمباغتة، ستعرف ريّا كيف ترتّب الحياة لنا أدوارنا، وكيف تصيّرنا خلاف ما نحن عليه، كيف نقبل اليوم ما خرجنا عليه بالأمس، كيف نُختبر في أغلى ما نملك، وفي أحبّ أحبابنا.

«الباغ» رواية من **عمان**، حياة كاملة من الحب والتحولات والحيرة، ممتلئة بأسئلة من أزمنة مختلفة، لكنها أيضاً حكاية كل مكان، تدير فيها **بشرى خلفان** بوصلة الاحتمالات وتغامر في الوصول لإجابة صعبة حول فعل الزمن، كيف يحولنا ويغيرنا دون أن ننتبه، إلى النقيض ربما، إلى ما كنا نرفضه بالأمس.

الناشر

الباغ

بشرى خلفان



ISBN: 978-1-988483-04-7



9 781988 483047

مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution

البَاغ

بشرى خلفان

الباغ

مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution

الطبعة الرابعة 2019

BUSHRA KHALFAN
AL BAGH
A NOVEL

الباغ / رواية

بشرى خلفان

Al Bagh/ A Novel

Bushra Khalfan

الطبعة الرابعة - 2019

(الطبعة الأولى - أكتوبر 2016)

ISBN 978-1-988483-04-7



مسعى للنشر والتوزيع

Masaa Publishing & Distribution

Ottawa, ON. Canada

info@masaapublishing.com

www.masaapublishing.com

صورة الغلاف: صفحة من مخطوط «معدن الأسرار في علم البحار» (رقم 1828) لناصر بن علي الخضوري (ق14هـ) وفيها رسم للديرة (البوصلة).

تصميم الغلاف: محمد النبهان

إلى أمي... وكل أمهات الأرض.

انتبهوا:

إن ما يحدث في الصفحات التالية لم يحدث أغلبه إلا في مخيلة الكاتبة، ولن يحدث من الآن فصاعدا إلا في مخيلتكم.

1

تخوض...

أردفها وراءه وربط حبلا من الليف حول خاصرتيهما فصارا واحدا.

السماء فوقهما غيمة فوق غيمة والعصر ظلام، ثيابهما ملتصقة بجسديهما من شدة البلل.

قال لها والوادي سيل جارف: «نخوض، ويا نوصل رباعة يا يشلنا الوادي رباعة».

لم تقل شيئا ولفت ذراعيها النحيلتين حول جسده بقوة.

الماء غضب.

أخذت الناقة تخور تحتهما والناس تصرخ بهما:

«عودا»

لكن راشدا لا يعود عن رأي عزم عليه.

الماء يرتفع، يكاد يغطي قوائم الناقة ويلامس قدمي ريّا فترفعهما قليلا، ناقة راشد تمضي غير مكترثة، ناقته في مثل عناده.

متشبثة به، وجهها مدفون في ظهره، تتجنب رؤية الماء المتدافع نحوهما، الماء الصاعد إليهما، تتجنب فكرة أن يأخذهما في طريقه إلى البحر، تتجنب فكرة الغرق.

من لريّا غيره؟

قال لها سنخرج من البلاد فخرجا.

علّق بندقية (البوعشر) التي كان يتكئ عليها على كتفه وخرج.

جمعت ما يملكان من تمر وقهوة ولفّت ثيابها على مصحفها، ربطت صرتها بثلاث عقد، وتمتمت بالدعاء، ونفثت فيها حتى لا تضيع، لبست شيلتها، وانتظرته عند الباب ليجهّز ناقته، ويدسّ متاعهما القليل في الخرج.

قالت له:

- المطر قوي، يمكن الوادي هابط.

- نميصة أمها خواضة، وبنت الخواضة تخوض.

وصلا عند الوادي، فجفلت الناقة، لكنه شدّ عليها، وأدخلها الماء، والناس تصيح: يا راشد رد جنونك.

أصبحا في وسط الماء، ولم يعد للخوف معنى، التيار يتقاذفهما والراحلة.

وصل الماء إلى السنام، فالتصقت به ريّا أكثر، وراشد يسوم ناقته، ويضغط على ضامرتها بفخذيه، يشد خطامها، ويوجه رأسها صوب الضفة الأخرى من الوادي، ضفة المبتغى والنجاة.

صرخ راشد بناقته: يا بنت الخواضة خوضي.

الناقة مترددة وعاجزة، هو يصرخ بها، وهي تحته تخور.

الناس على الضفتين تصرخ، ومغالبة الماء تكاد تنهكه، وقلب ريّا معلق بين الأمل والرجاء.

قالت: يا الله...

ثم همست تردّد آيات من السبع المنجيات كما علّمها أبوها بعد خروجه من أربعين خلوته الأخيرة، قال لها: الله قاضي الحاجات لا يرد طلبا لعبده إن أحسن النية والقول.

ظلت تردد آياتها المنجية، قلبها في كل كلمة والله لطيف بالعباد.

خف تدافع الوادي برهة، فعبرا إلى الضفة الأخرى ونجيا.

كبّر الناس فرحا بنجاتهما، لكن راشدا لم يلتفت إلى فرحهم، بل نخس ناقته فخبت.

عند أطراف البلدة، قالت له:

- الناقة تعبانة، خلنا نبات هنا.

- بلادٍ ما ترد الظلم عن أولادها ما نبات فيها ليلة.

مضيا حتى خرجا من حدود البلاد فأناخ الناقة عند سدرة على ضفة (وادي الصرم) وفكّ الحبل عن خاصرتيهما.

تقاسما بعض ما حملته من زاد، ثم سألها عمّا همست به في تمتماتها للوادي فأنكرت لكن نظراته الطويلة الفاحصة لم تترك لها بدّا من الإجابة:

- أبوي علمني...

قاطعها:

- أنت علمش القرآن، وقصص الأولين، والأدعية، وأنا ما علمني

شيء غير الكد في النخيل.

- كل واحد وقدرته.

حدجها بنظرة فيها غضب:

- وأنا ما أقدر على الظلم والمهانة.

- أعرف.

- زين، ما علمش أبونا أن النبي خرج عن القرية الظالم أهلها؟

- هيه علمني، وعلمني أن الظلم في كل مكان، أول وتوّ.

- وباكر. لكن بلادٍ أنت غريبٍ فيها ظلمها غير، لا أهلها أهلك ولا ناسها ناسك، ظلم الغريب ما يوجع كما ظلم الأخ والعم وابن العم.

- وهين بنسير؟

- مسقط، بنسير مسقط، يقولوا هناك رزق.

- مسقط بعيدة...

ثم أردفت بتردد:

- ويقولوا أهلها ظُلاَّم.

- أهلها ما أهلنا. لكن لا تقولي حال حد ظلمنا أهلنا وغدروا بنا، لا تقولي تركنا السراير من مهانة وظلم. قولي هَبَّطنا الجوع. البلاد كلها تجوع، بس لا تقولي هِنّا على أهلنا. تراها الناس في هذه البلاد ما تعرف إلا القوي الجبار.

2

أخته تحاذيه في المشي، وهو يصعد بناقته دروب الجبال الوعرة ثم يهبط بها إلى منحدرات الوديان.

يجتازان السيوح، يقيلان أحيانا تحت شجر السمر المنتشر فيها، يقفان إذا ما صادفهما ماء ولو قليل، يشربان ويغتسلان ويتوضآن للصلاة ثم يجلسان ليأكلا من القليل الذي أحضراه ثم يكملان طريقهما.

وصلا مشارف مسقط فجر اليوم العاشر.

تجاوزا الوطية، ودخلا من بوابة العشور عند السد، فتش العسكر راحلتهما فلم يجدوا ما يأخذوه ضريبة.

دخلا روي، فوجداها أرض زراعة وخصب، أحب راشد زرعها وخضرتها، لكنها ليست مقصده.

سأل رجلا يمشي بين المزارع عن درب مسقط فأشار الرجل إلى جهة الشمال الشرقي، وشرح له أن الدرب سيأخذهما إلى بيت الفلج ثم إلى مطرح أولا ثم يعبران منها إلى مسقط.

سارا باتجاه بيت الفلج وقلعته، متشوقا لرؤية مطرح التي سمع عنها في مجالس الرجال، حيث يقال أن منها تُحْمَل الخيول، والتمر، والليمون المجفف، والغليون إلى البصرة، والهند، مطرح التي تؤاخي مسقط في الفساد كما ورث عن أسلافه:

«ومن أراد دينَه أن يُطرحا   فليسكنن مسكدا أو مطرحا».

هش أسلافه بشيء من الغضب، وأكمل سيره، ولم يتوقف إلا لقضاء حاجة أو لاغتسال عند ماء أو لتناول الطعام تحت ظل غافة.

مرا بقلعة بيت الفلج، لفته بناؤها، وأعجب بأبراجها، وتحصيناتها، رأى الجند في زيهم العسكري الذي لا يشبه ما يلبسه عسكر الوالي وحراس البوابات؛ قبعاتهم الحمراء المصنوعة من اللبد، وبناطيلهم القصيرة التي لا تكاد تغطي الركبة، والبنادق على أكتافهم، بنادقهم التي لا تشبه بندقيته البوعشر التي في خرج راحلته.

رأى المدافع تحرس أبراج القلعة وبوابتها، وسيارات اللاندروفر والبدفورد تصطف على جانبيها.

أعجبته وقفة الجنود الثابتة، لا يحرك ساكنهم شيء، ولا يحني رؤوسهم عبور الظلال.

أكملا طريقهما إلى مطرح، أمامهما منبسط أجرد تحيط به الجبال، لم يصادفا فيه خضرة أو نخلا إلا بعض شجيرات السمر المتفرقة، وأكمات الأعشاب اليابسة.

واصلا مشيهما حتى رأيا البحر. بدا لهما من البعيد كخيط من الفضة ثم تحول تدريجيا إلى مرآة يتراقص زئبقها تحت الشمس.

في كل خطوة يمشيانها في اتجاهه كان البحر يصبح أكثر زرقة، وخط الأفق أكثر وضوحا، والسماء تنفصل عن صورتها في البحر.

لم يريا البحر قبل ذلك وها هو الآن أمامهما؛ وفرة في الماء، ووعود كثيرة.

أخذته صورة البحر فتوقف راشد في مكانه.

أناخ راحلته فهبطت ريّا عنها، وقفا طويلا على ذلك المرتفع، مشدوهين، يتأملان ما سمعا عنه من أفواه القادمين من مسقط أو أولئك العائدين من بحر الباطنة، أولئك الذين اقتربوا من البحر بما فيه الكفاية لكن لم يجرؤا على ركوبه، أو أولئك الذين تعودوا ثبات الصخر فلم يفهموا حال البحر، وتلوناته، وشروطه، وتقلباته.

سمع أباه يردد أكثر من مرة أن البحر هوى، من ركبه لا يرجع عنه، ومن يدخله لا يشفى منه، ومن يسافر فيه تندر عودته.

أبوه رأى البحر وإن لم يركبه، زار صحار رسولا من الإمام إلى واليها لكنه لم يهبط مطرح أبدا.

لمطرح ومسقط سمعة سيئة، أرض جور وفساد، كانوا يقولون ذلك في المجالس ويرددونه في الأشعار، حكامها ظُلاّم، هادنوا الإنجليز، ووقّعوا معهم المعاهدات، وأدخلوهم البلاد، نسوا ما فعله البرتغاليون بهم من قبل، وقبلوا أن يطأ أرضهم الكفار ثانية.

هذا هو البحر إذن، طريق الماء المجبول على الوعد والنكث.

قال راشد: «نبات هنا الليلة، وباكر ندخل مطرح، ونسأل عن الدرب».

حضر القهوة على نار أشعلها في حطب السمر، وأخرجت ريّا ما تبقى من التمر ليأكلاه، كان ذلك عشاءهما.

توسّد بندقيته ويده ككل ليلة على الخنجر في محزمه، ربّما ليست بعيدة عنه، يسمع صوت تنفسها الخفيف فيطمئن، يفكر في مسقط الذاهب إليها دون معرفة أو معارف، يقلقه ما لا يعرف، لكن ما فائدة ما عرف، ومن عرف إن كان لا شيء يبدو على حقيقته.

هبت نسمة خفيفة فسمع صوت مرورها بين الشجر، حفيف خفيف، ثم سمع صفق أجنحة بومة طارت، نباح كلب، وتدحرج حصى.

الأصوات واضحة وكأنها تحدث خلفه أو أمامه مباشرة، يخطر في باله أن الليل وسكون السيح يشحذ الحواس فتتضخم الأصوات فيه، ويحضر الخوف.

في السيح أنت وحدك، وكائنات الله الساعية لأرزاقها مثلك، لا تغفل عنها فتغفل عن روحك، لا تحمل همها كثيرا، ولكن كن دائما على استعداد لمواجهتها.

لكن ممَ يخاف؟ ما عاد هناك ما يخيفه بعد اليوم، لا الوحوش، ولا الناس، ولا الشيطان نفسه إن حضر بإمكانه إخافته. ثم رأى الشيطان في صورة عمه، فبصق في وجهه، واستعاذ بالله منه ثم انقلب على جنبه الآخر، وأغمض عينيه ونام.

قبيل الفجر أيقظه عواء ذئب يتردد في شقوق الجبال البعيدة فقام.

السماء مازالت مظلمة، وإن اختفت منها معظم النجوم التي كانت ثقوبا صغيرة لامعة في عتمة الليل قبل أن يضع رأسه على الحصى، ويغمض عينيه، وينام.

تأتيه الأصوات من كل مكان، وكأن الأرض تستيقظ كلها دفعة واحدة، الذئاب، والزواحف، والشجر، والطير، والحصى، كلها تنهض معا.

نهس كتف أخته برفق فاستيقظت.

توضآ دون ماء وصليا دون قِبلة، «الأرض كلها لله» تقول ريّا «فولِّ وجهك إلى الذي لا يغفل، ولا ينام».

سرى راشد بأخته، ووصلا بلاداً بها خلق كثير لا يكفون عن الحركة، والصراخ، والكلام. أصواتهم عالية وفي صراخهم المستمر ما لا يفهمه، سأل فقيل له: هذه مطرح، وهؤلاء التجار يأتونها من كل مكان، سأل عابرا عن البوابة، فقال له: هي أمامكم فامشيا. مشيا أكثر فوجدا بوابة مطرح، وعلى جانبيها خيام كثيرة، وبيوت من طين.

الرطوبة عالية، والهواء ثقيل، والوسخ ينتشر في المكان، والرائحة نتنة لا تطاق.

أراد راشد أن يدخلا من البوابة دون أن ينزلا من على الناقة فلم يسمح له العسكري بالدخول، اعترضهم ببندقيته، فتراجع راشد بالناقة إلى الوراء قليلا، وأناخها على جانب الطريق، ثم هبط عنها، وتقدم من العسكري، أخبره أنهم يقصدون مسقط، قاطعه العسكري الذي يتكلم بلهجة أهل حجور الباطنة، وأشار إلى مكان بمحاذاة الباب دقت فيه أوتاد على الأرض، وربطت فيه نوق كثيرة وخيول، وأمره أن يربطها هناك، أبلغه أن القانون لا يسمح بدخول النوق والخيول إلى مطرح ومسقط، وأن عليه أن يدخل من البوابة راجلا أو أن يكتري حمارا.

عاد إلى أخته التي هبطت هي أيضا عن الناقة، ووقفت إلى جانبها، وأبلغها بكلام العسكري.

كانت «نميصة» بينهما، وهما مطرقان يفكران في حل، فأشارت عليه ببيعها خوفا من غدر اللصوص أو الحراس.

لم يقبل راشد كلامها حتى نظرت في عينيه بعينين ذابلتين أوهاهما طول الطريق ومشقته، كان يعرف ذلك، يعرف أن ما تقوله ريّا صحيح، ويعرف أنه لن يعود إلى «نميصة» قريبا، يعرف أن لا حل أمامه إلا التخلي عنها، يعرف ذلك ويفهمه جيدا، لكن تخليه عن «نميصة» يكوي قلبه.

مسح على بدن ناقته، وعنقها، ونظر في عينيها طويلا، وكأنه يستسمحها، رأى حزنه في عينيها، وحزنها في عينيه، فأشاح بوجهه، وأخذ خطامها، وذهب بها.

باعها لتاجر من صحم، كان واقفا في أول السوق ينادي على بضاعته من الليمون المجفف.

سلمه الرجل مئتي قرش، بخسه ثمن نميصة، واستغل حاجته، يعرف راشد ذلك لكنه لا يغضب، ما لنميصة عنده من ثمن، تركها وراءه بغصة كما ترك السراير من قبل، ما نفع راحلة بلا بلاد يعود إليها.

عبرا البوابة صامتين، مشيا وسط السوق فبدا لهما وكأنه مجرى وادٍ، الدكاكين الكثيرة تصطف على جانبيه، مرتفعة بدرجتين أو ثلاث عن الأرض، تعرض بضائع متنوعة من أقمشة، وتوابل، وحبوب، يبدو المكان ملونا وإن غطته طبقة من غبار خفيف، يطوف في المكان رجال يصبون القهوة للعابرين مقابل آنات.

لم يتوقف راشد لشرب القهوة، ولم تلفت البضائع انتباه ريّا، استمرا في المشي صامتين دون أن يلتفتا، تشغله نميصة، ويشغلها حزنه.

الهواء ثقيل وريّا تشعر بالدوار، تزداد الرائحة النتنة التي شمتها عند البوابة حدة، فتغطي أنفها بطرف شيلتها لتحجبها، ولتشم منها رائحة الورد الذي كانت قد عطرتها به قبل خروجهما من البيت.

أدهشهما أهل مطرح في اختلافهم، وتباينهم في الألوان، خليط من السحنات، والملابس، ويتكلمون لغات كثيرة لا يفهمانها، ولم يسمعاها من قبل، همست ريّا لأخيها «من كل فج عميق»، هز رأسه موافقا، وأكملا طريقهما.

في كل خطوة يمشيانها تزداد حدة الرائحة، وريّا تكاد أن تفرغ ما في جوفها فتحكم تغطية أنفها بطرف شيلتها، لكن ما عاد مما تبقى من رائحة الورد فيها مجديا.

وصلا آخر السوق، ورأيا البحر أمامهما مباشرة، وعلى الساحل وجدا سمك السردين منشورا على الرمل ليجف، فعرفا من أين تأتي الرائحة.

على يمينهما كان الصيادون يخلصون سمك السردين من حبال الشباك الرفيعة، والأطفال يتحلقون حول المراكب يساعدون في تخليص الأسماك الصغيرة، ويضعونها في سلال من الخوص، والنساء يحملن السلال على رؤوسهن، ويذهبن بها إلى السوق، أما الرجال فكانوا يحملون سمكة الجيذر، أو الكنعدة الكبيرة، كل سمكة بيد.

أجساد الصيادين تلمع تحت الشمس، عضلاتهم بارزة، بشراتهم داكنة جدا، وكأنها طبخت على مهل في ملح البحر.

يمشيان على الرمل الناعم تحت مشربيات بيوت الخوجا الزرقاء بتخريماتها، ونقوشها، ترفع ريّا رأسها، وتبتسم لأول مرة منذ أن غادرا السراير، يلاحظ راشد ابتسامتها لكنه لا يبتسم.

يوقف بعض المارة، ويسألهم عن درب مسقط، فيشيرون بأصابعهم إلى الجهة التي قدما منها، يشيرون إلى درب ضيقة تحاذي البحر، وتلتصق بالجبل، فيعودان أدراجهما.

كلما ابتعدا عن السوق، والرمل، والزوارق خفَّت الرائحة، وحلت رائحة البحر محلها، رائحة منعشة، وغامضة.

استمرا في المشي بالاتجاه الذي أشار إليه المارّة، وصلا مطيرح، ومنها أخذا الدرب الضيقة الملتوية التي تحاذي البحر، وتلتصق بالصخر.

يقترب البحر أحيانا حتى يكاد أن يغسل أقدامهما، فيلتصقان بالصخر أكثر، يمشيان قربه، وأعينهما المتوجسة تراقب الماء.

وصلا ريام فارتقيا العقبة.

يصعدان وفي كل خطوة تتلفت ريّا إلى الوراء بحثا عن البحر، فتجد زرقته قد بدأت في الاختفاء خلف طيات الجبل، وانحناءات الدرب.

يتركان مطرح، والبحر وراءهما، ويصعدان الجبل ببطء، ومشقة، يمشيان متلمسين جانب الجبل، ومبتعدين قدر استطاعتهما عن الجانب المطل على الهاوية تحتهما.

وصلا أعلى العقبة، مطرح صارت وراءهما، وأمامهما مسقط.

على امتداد البصر يريان بيوتا، وخياما، وأحواشا، ودروبا، وفي الأفق البعيد ظهر لهم بحر صغير، محاصر بين امتداد صخور الجبال البركانية المنحدرة صوب البحر، وكأنه واقع بين مخلبين، وعلى كل مخلب تجثم قلعة.

عند رؤيته القلاع عرف راشد أنه وصل إلى بغيته، إلى مسقط، عاصمة السلاطين، حيث السلطان، وبيت الحكم، والعسكر، والقوة.

فجأة أحس بدبيب جيوش من النمل تسري على ظهره، باغتته رعشة أعلى كتفيه فانتفض، ثم أغمض عينيه للحظة، وما لبث أن هز رأسه، وبدآ بالهبوط ببطء في الدرب الترابي النازل صوب مسقط.

في نزولهما صادفا بعض الرجال الصاعدين إلى العقبة على حميرهم، وآخرين مثلهم يصعدون أو يهبطون مشيا على أقدامهم.

تحت السفح وجدا نفسيهما يمشيان بين خيام كثيرة، مصنوعة من حطب سعف النخيل، بعضها هرمي الشكل، وأخرى دائرية، وأخرى بجدران قائمة وسقوف مثلثة، عرف لاحقا أن هذه الأخيرة تسمى «كراجين»، أمام كل خيمة تقريبا نصب عريش.

أحيانا يكون لكل خيمة سياجٌ، وأحيانا لا حدود بين الخيام المنتشرة وكأن الأرض مشاع.

مشيا مسافة على الدرب المتربة، حتى وجدا غافة كبيرة تحاذي الدرب، فجلسا ليستريحا تحت ظلها، أخرجت ريّا من الخرج ما تبقى من التمر الذي جلباه، فتقاسماه ثم شربا ما تبقى من الماء في القربة.

يفكر راشد أن أهل هذه البلاد لا يشبهون أهله، في مشيهم عجلة، وفي كلامهم لكنة وكأنهم ليسوا عربا، ونساؤهم يلبسن ثيابا تختلف عمّا تلبسه النساء في السراير. هنا يرتدين قمصانا طويلة ذات كسرات عند الخصر، وفي وسطها جيب كبير ينتهي برأس مثلث، وعلى الأكمام والحواشي نقشت زهور، ووحدات هندسية، وتحت القمصان كانت النساء تلبس سراويل واسعة جدا.

ثياب النساء في السراير بسيطة، قمصان طويلة بلا خصر، ولا كسرات، ولا تكاد تظهر السروال تحتها إلا قرب الكاحل.

شعرت ريّا بالتعب، فأسندت ظهرها إلى جذع الغافة، وأغمضت عينيها، عينا راشد على الدرب الخالية في ذلك الوقت من النهار، حتى مرّ رجل بمحاذاتهما، فسأله عن اسم المكان الذي يقفان فيه، وعن الطريق إلى

السوق، فقال له بلكنة ثقيلة إنها حارة الدلاليل، ثم أشار إلى جهة الشمال الشرقي، وقال له: السوق هناك.

مشيا في الاتجاه الذي أشار إليه العابر، ومضيا في درب أفضت إلى أخرى، وكلما توقف ليسأل أشار أحدهم إلى جهة وقال: هناك، فيمضيان إلى هناك دون أن يصلا.

الهواء حولهم راكد، والجبال السوداء جاثمة على فضاء المكان حتى تكاد تخنقه.

يمشيان فتضيق الدرب حيناً ثم تتسع، والأكواخ من حولهما تكاد أن تتشابه في فقرها، وتداعيها.

بعد مشي ليس بقليل وجدا إلى يسارهما سورا عظيما مبنيا من الحجارة، والآجر، وله بوابة كبيرة يحتشد أمامها خلق كثير، وعسكر.

يحاذيان السور، ولا يلتفتان إليه، يمضيان في الطريق المغبرة، تفكر ريّا في أن هذه الدرب لا تشبه الدرب في السراير، درب السراير باردة، مظللة بالنخل، أو بظلال البيوت؛ أما هنا فتمر الدرب بين الخيام، والأكواخ الصغيرة المتباينة في الأحجام، والأشكال، قليلة بيوت الطين هنا، ومتباعدة فلا ظل لها ليسقط؛ فيغطي الدرب، ويقيها وهج الشمس.

بلادهم خضراء، وكلما مشوا فيها تكشفت الخضرة عن خضرة؛ أما هنا فلا ترى نخلا، والشجر قليل.

بين الحين والآخر يوقف راشد العابرين، يسألهم فيدلونه بإشارة من أيديهم، لكن لا يسأله أحد من أي بلاد جاء، ولا ينشد عن أخباره أحد.

ينهشه إحساس الغريب فيكتمه.

«بلادنا خضرا» يردد في خاطره كما تردد ريّا في خاطرها، وينظر خلسة في يديه العاملتين في النخل، في شقوقهما، وصلابة جلدهما، يتذكر ضواحي النخيل، والفلج، ومجرى الماء، يتذكر السفرجل، والأمبا، والتين، وشجرات الموز النامية تحت ظلال النخيل بوفرة.

تأتيه الصورة خضراء ملونة بصفرة ثمار الأمبا المختبئة بين الأوراق، وحمرة رطبات الخنيزي، وصفرة رطبات الخلاص، ثم يأتيه وجه عمه فتنسحب الألوان فجأة.

يعود لنفسه فيتذكر أنه الآن في مسقط، حيث السلطان والقوة.

سلطان جائر يقولون في البلاد، فماذا يسمّون ما فعلوه به إذن؟ أليس ذلك هو الجور بعينه؟

أليس جور الأهل على الأهل بمثل أو أشد وطأة من جور حاكم على رعيته، يسأل في داخله، ألا يقال إنه يولّى عليكم من كان مثلكم وأشد بأسا؟ ألا يولد الجور من الجور؟

يشعر بالحزن ثقيلا ومرّا؛ فيهش ذاكرته بعصا القوة وعز يطلبه عند السلطان.

يكمل سيره أمام أخته، فيشعر باقتراب السوق، يعرف ذلك من ازدياد الحركة، واتجاه الناس، يمشيان أكثر فيجدان مسجدا، يتجاوزان المسجد فيجدان سدرة كبيرة، وعلى بعد مائتي خطوة تقريبا وجدا السوق، فترك أخته تحت السدرة لتستريح، وذهب هو باتجاه الدكاكين.

السوق الخارجي صفان من الدكاكين المتقابلة، يرتفع كل دكان عن الدرب بمقدار درجتين أو ثلاث.

وجد دكاكين تبيع الأرز، والطحين، والبهارات، والتمور، وأخرى تبيع سرجانا، وخيوطا، وأواني، ومغاريف من النحاس أو المعدن، ومواقد نار، وفي آخر السوق وجد دكانا يصنع الحلوى، وتنورا يخرج من ناره خبزا دائريا ثخينا.

دوخته رائحة الحلوى، والخبز الساخن، لكن ماله قليل، وحاجته قليلة.

يحتاج تمرا ليقيمهما، بعد أن كاد ما أحضراه أن ينفد في السير من البلاد إلى هنا، ويريد أيضا أن يسأل عن مكان يأويان إليه.

يقترب من دكان تتكدس في داخله زكائب التمر، والحبوب، ويرى عند مدخله رجلا كبير السن يجلس بجوار ميزان، ومثاقيل صغيرة وأخرى كبيرة، منصرفا لفتل خيوطٍ ثخينة بين راحتي كفيه ثم يلفها حول بكرة كبيرة.

يخمن أنه صاحب الدكان فيبادره بالسلام. تتوقف يد الرجل عن حركتها، وترتفع عيناه الغائرتان تحت حاجبين كثيفي البياض نحو الرجل الواقف، ويرد عليه السلام، يسأله إن كان يبيع تمر «الفرض»، فيشير إلى زكيبة لا تبعد كثيرا عن يساره، تمتد أصابعه داخل الزكيبة ليقبض على كمية من التمر، ثم يتوقف ليسأله عن مقدار ما يحتاج، يتردد راشد ثم يمد يده، وبلمسة خفيفة يعد راشد عملات المعدن الصغيرة في جيب دشداشته، ويقول بصوت فيه انكسار الحاجة: «كياس».

يكيل صاحب الدكان التمر، ويضعه في كفة الميزان بينما يضع أثقالا صغيرة في الكفة الأخرى، ثم يتناول الكفة، ويدلق ما فيها داخل القرطاس الذي لفه على هيئة قمع، ويربطه بخيط يستله من البكرة الكبيرة.

يعرف من هيئة راشد أنه غريب فيسأله عن البلاد التي جاء منها، وإلى أي قبيلة ينتمي، وعن سبب هبوطهم مسقط، فيجاوبه راشد بإسهاب ليس في طبيعته، وكأنما يريد أن يبعد عن بال الرجل شبح السر الذي يخفيه.

يقول له: إنه كان يعمل في نخل أبيه، يشرح له ما فعل الجفاف بنخيلهم، وكيف جفت الأفلاج، وتقطعت أوصال النخيل، واضطر إلى الهبوط إلى مسقط بحثا عن الرزق.

يخبره أن أخته معه، وأنها تنتظره ثم يسأله عن مكان يقضون الليلة فيه، يشير الرجل إلى مبنى إلى يمين السوق «هذه المسافر خانة» لكنه لا ينصحه بأخذ أخته إلى هناك. يقول له: إنه ليس من المناسب أن يأخذ رجل قبيلي، ولد عرب، أخته إلى أماكن العابرين، ويعرض عليه الإقامة عندهم حتى يجد له عملا، ومكانا.

حاول راشد أن يعتذر عدم عن قبول ضيافة الرجل لكنه لم يستطع، يعرف أن ريّا لا طاقة لها بالمبيت ليلة أخرى في العراء فوافق.

مشى معه وريّا خلفهما باتجاه الجبال، ثم ما لبث أن تكشف له مجرى وادٍ بدت على إحدى ضفتيه بيوت، وعلى الأخرى مزارع، ونخل كثير، فرحت عيناه بالخضرة المفاجئة، وعلت شفتيه ابتسامة خفيفة.

يشير الرجل الذي صار يسميه «الوالد» وهو يحاذيه في المشي إلى الضفة الأخرى حيث بإمكانه رؤية بئر مسيجة يؤمنها برج حراسة، ويخبره عن ملكية المزارع، وعن الآبار التي يستخدم ماؤها في الزراعة، وتزويد بيوت السركال[1] وتجار مسقط.

«تخطف علينا سنين حتى الناس تموت من العطش، نرقط الماي من ورق الشجر، ونتضارب على القطرة، لكنها سنة خصب والحمد لله، والناس نص شبع كما ضاري».

أدخلهم بيته، كان بيت الطين الأكبر في الحارة، تحيط به بيوتٌ صغيرة،

---

1. السركال: الحكومة. وأصلها سركار وهي هندية بمعنى صاحب الملك.

وخيام، وعرشان، ويطل على مجرى الوادي من جهة الشرق.

نادى على إحدى نسائه فأخذت ريّا إلى غرفة في طرف الحوش، وأخذ هو راشدا إلى سبلة[2] تطل على الوادي.

في السبلة كان صالح وناصر يتحدثان بصوت عالٍ، ويتجادلان حول شيء ما لم يتبينه راشد، حتى إذا ما دخل أبوهما وضيفه سكتا وهبّا واقفين لاستقبالهما، استأذن صالح أباه في سؤال راشد عن علومه وأخباره فأذن له، فتناشد الرجلان، وبقي ناصر صامتا يتفرس في الضيف وكأنه فكرة يقلبها في ذهنه.

«صالح ولدي الكبير، متعلم القراية والكتابة في (السعيدية)[3] ويشتغل كاتب في الجمرك، أما ناصر فيشتغل في الكويت وما داير يطَول معنا، بيرد الكويت قريب».

يصمت العود قليلا، ثم يكمل كمن يخاطب نفسه «ما شي حيلة، هنا الحال تعبانة».

جلس الجميع ووضع شاب شديد السمرة يسمونه ربيّع أمامهم صحن تمر، فأخذت منه الأصابع ما أرادت، إلا راشد فقد أخذ باقتصاد خجلا مع أن الجوع كان ينهش أمعاءه.

صب لهم ربيّع القهوة في فناجين بيضاء تزينها رسومات خضراء لأشجار نخل، وما إن انتهوا من شرب قهوتهم حتى استأذنه الرجال الثلاثة، وتركوه ليستريح، تمدد راشد على الحصير، تأمل الأخشاب التي تدعم

---

2. السبلة: المجلس.

3. السعيدية: المدرسة النظامية الوحيدة في مسقط في ذلك الوقت، أنشأها السلطان سعيد بن تيمور وتم افتتاحها في عام 1940م.

السقف للحظة وفي اللحظة التالية كان كل التعب الذي تحمّله، وداراه عن العيون قد حط عليه.

لا يعرف كم من الوقت كان قد مر وهو نائم؛ لكنه استيقظ عند سماعه تنحنح العود وحركة دخوله وأولاده.

كانت الشمس قد قاربت المغيب، والضوء بدأ في الانسحاب مفسحا مكانا للظلمة التي بدأت تحل شيئا فشيئا. عرف أن صلاة العصر قد فاتته أو كادت، استأذن راشد الرجال، وقام للوضوء ثم صلى في زاوية مستقبلا المزارع على الضفة الأخرى للوادي.

انتهى راشد من صلاته فأحضر ربيّع صينية الغداء، ووضعها أمامهم.

مازحه العود بأنهم ما استطاعوا انتظاره حتى يستيقظ من نومه، فإن كان النوم سلطاناً فإن الجوع سلطان كافر.

ضحك العود من كلامه نفسه فضحك ولداه معه، وندت عن ربيّع ضحكة طويلة تتخللها شهقات تكشفت فيها لثته الحمراء، وأسنانه اللامعة البياض، لم يضحك راشد لما قاله العود لكن ضحكة ربيّع أضحكته.

أنهوا ضحكهم، ومسحوا على وجوههم، ولحاهم، واستغفروا ثم انتظروا حتى يمد العود يده فمدوا من بعده أيديهم إلى صينية الأرز المحلاة بمرق السمك، كان الجوع كافرا فعلا، وكان السمك شهيا.

في صباح اليوم التالي وهما يمضيان معا إلى السوق قال راشد للعود:

- الوالد أنا مخجل منك، أنا وأختي قايمين ونايمين وماكلين في ضيفتك وهذا الحال ما يناسبنا، وأنا والحمد لله بخير وقوي، فلو أحصل شغل... أي شغل، في النخل أو في غيره هشتغل.

- النخل له رعاته، لكن أنا أشوف أنك تسير الفرضة[4]، هناك يوجد شغل مع البانيان، هتنزلوا المراكب وتحملوها.

* * *

أخذت امرأة قصيرة، وسريعة الحركة، والكلام ريّا من يدها، وعبرت بها الليوان، وأدخلتها حجرة في طرف الحوش.

الوقت تعدى الظهر ومع ذلك فالحجرة شبه مظلمة، لا يدخلها الضوء إلا من نافذتين تطلان على الليوان.

بعد أن تعوّدت عينا ريّا على شح الضوء في الحجرة؛ رأتها مؤثثة ببساط من الرسل[5] المحبوك يغطي معظم الأرضية، وحوله من جهات ثلاث وضعت وسائد ملونة تستند إلى الجدران البيضاء التي حفرت فيها روازن[6] جميلة.

الروازن الطويلة مقسومة بالعرض عند المنتصف بألواح خشبية وضعت عليها أوانٍ من الصيني المزخرف بتعرجات صفراء دقيقة، أكواب وصحون وأقداح ملونة، وفي الجدار إلى يمينها دُقّ وتد عُلِّق عليه سراج، وعلى الجدار المقابل دُقّ وتد آخر عُلِّقت عليه بعض الثياب.

شغلتها تفاصيل الحجرة فلم تنتبه للمرأة الجالسة في الركن متكئة على وسادة بيضاء، وتنظر أمامها في الفراغ دون أن تطرف لها عين.

نهستها المرأة القصيرة وقالت لها بصوت هامس: «سلمي على العودة». اقتربت ريّا، وأخذت يد المرأة فانتبهت لها، ورفعت رأسها لتلاقيها بعينين

---

4. الفرضة: المرفأ.

5. الرسل: نبات يشبه القصب تصنع منه البسط.

6. روازن: جمع روزنة وهي تجويف مستطيل في الجدار، تقسم بالعرض بألواح خشبية لتوضع عليها الأشياء.

غُطّيت مقلتاهما بطبقة رقيقة من البياض، شمت رأسها ويديها كعادتها في السلام على الكبار في البلاد فبادلتها شما بشم. كانت لكفيها عروق نافرة ولرأسها رائحة الآس، رائحة درب السواقي والبلاد البعيدة.

أمرتها بالجلوس إلى جانبها بحركة خفيفة من كفها، ثم التفتت إلى الجانب الآخر، وأمرت المرأة التي رافقت الضيفة بإحضار القهوة.

جلست ريّا إلى جانب العودة، وسرت برودة الأرض إلى جسدها، اتكأت على الوسادة، وأحست بالتعب الذي تراكم في المسير من السراير إلى هنا، تمنت لو كان بإمكانها أن تستلقي وتنام قليلا.

بعد قليل أحضرت المرأة القهوة والتمر، وحضرت معها نساء أخريات وأطفال كثر، نبهتها الأصوات المختلطة التي دخلت الحجرة فجأة فعادت إلى حيث هي في المكان.

دعتها العودة إلى تناول التمر فمدت يدها بخجل وتردد، صوتها به خنة خفيفة، مع ذلك شعرت ريّا بحنان عميق تخفيه المرأة تحت طيات من الأوامر الكثيرة التي توزعها على نساء الدار اللاتي اجتمعن على التمر والقهوة، وفرقتهن بعد أن انتهين نظرة من عينيها المنطفأتين.

سألتها، بعد أن رفعت الفوالة، وتفرقت النساء، عن اسمها والبلاد التي جاءت منها، كان صوت العودة منخفضا جدا ويشبه الهمس، لكنه كان واضحا، وأسئلتها مباشرة ودقيقة، وكأنها تقتصد في الكلام، عرفت ريّا أنها لم تكن تسأل لتتسلى بل كانت تسأل لتعرف.

أجابتها ريّا عن أسئلتها بدقة ووضوح، ثم وعندما سألتها عن سبب خروجهما من البلاد ترددت قليلا ثم ما استطاعت إلا أن تخبرها بما أملاه راشد عليها، هي لا تحب الكذب لكنها اضطرت إلى تكرار ما قاله أخوها إذا

ما سئلت عن سبب هبوطهما مسقط.

قال لها: نبدي الحاجة وقلة الحيلة، بس ما نقول خرجنا الظلم من بلادنا، تراه بو يهون على أهله يهون على الناس.

أوت ريّا تلك الليلة إلى حجرة العودة، باتت في ضيافتها وتحت عينها.

نامت عميقا لكنها استيقظت عند السحر، وغادرت الحجرة إلى حيث وضعت أواني الماء للاغتسال والوضوء فتوضأت للصلاة دون أن يشعر بها أحد من أهل البيت. التجأت إلى ركن الحجرة الغربي وصلت ركعتين ثم أخرجت مصحفها من صرة ملابسها، وبدأت على الرغم من الظلمة بتلاوة القرآن بصوت خافت يشبه الهمس وما هو بهمس، ويشبه البكاء وما هو ببكاء.

كان القرآن في قلبها فلم تحتج الضوء لترى فيه حروفه المكتوبة، إلا أنها تعودت أن تتلوه والمصحف بين يديها، فتلمس الحروف بأطراف أصابعها، يؤنسها الحرف المكتوب فيتبع قلبها أصابعها الماضية على وجهه دون أن تنشغل بالنظر.

تتلو القرآن بلحن خفيف، وتتغنى به فيهتز وتر قلبها، تنتشي روحها بكلماته وتأخذها أخذ الحبيب للحبيب.

قرأت حتى شعرت بروحها ترتوي بعد جفوة المسير وانقطاع الوصل.

تنبهت العودة إلى تلاوة ريّا، كان صوتها جميلا، به نغم خفيف وخشوع. لم تسمع أحدا من قبل يقرأ القرآن بمثل هذا الوجد، ظلت ساكنة في فراشها، خافت لو أنها تحركت ولو قليلا أن تنتبه ضيفتها فتتوقف عن القراءة، خافت أن ينقطع الصوت ويضيع منها المعنى.

ساكنة في مكانها، متوسدة يمينها، مغمضة العينين تصغي للكلمات والصوت المنغم الرخيم الذي يرددها.

عرفت في تلك اللحظة أن ريّا قد دخلت قلبها من باب لم يدخله قبلها أحد ولن يعرفه أحد بعدها.

تعرف قلبها وتعرف أنه ما تعود فتح بابه للعابرين، لكنها كانت تعرف أيضا أن من يدخله لا يخرج منه، وهذا ما قالته لريّا وهي تودعها قبل أن تخرج من بيتهم بعد مدة من الزمن مزفوفة ومطيبة بالحناء والياس وعقود الياسمين.

3

صلى بهم العود صلاة الفجر جماعة عند ضفة الوادي، كانوا صفا واحدا وقصيرا خلفه، صالح وناصر وراشد وربيّع.

تناولوا التمر والقهوة على عجل، ثم أمر العود ابنه ناصرا بمرافقتهم إلى الفرضة وأمر ربيّع بالذهاب إلى السوق، وشراء السمك، وما تأمره به نساء الدار.

أخذوا طريق الوادي، فحاذوا المزارع التي على ضفته الغربية، ومشوا فيه حتى وصلوا إلى مفترق بين حارة الدلاليل إلى اليسار وحارة البحارنة إلى اليمين، ثم انحنوا مع الدرب قليلا صوب الشرق باتجاه الباب الكبير.

سلم العود على الرجال الجالسين على الصَبَاحْ[7] فقاموا له، وتبادلوا معه السلام، وتناشدوا عن الأخبار والعلوم، ثم سلم على الحراس الواقفين عند الباب فبادله الحراس التحية، وهشوا له فوقف قليلا معهم ثم دخل ومن معه عبر الباب الكبير فأصبح في مسقط الداخل حيث قصر الحكم، والجمرك، والفرضة.

---

7. الصباح: دكة تكون للجلوس على جانبي البوابات الكبيرة.

يمشون باتجاه البحر، يعرف راشد ذلك من الرائحة، والرطوبة التي تزداد في كل خطوة، حاذوا في مشيهم بيت فرنس حيث كان يقيم القنصل الفرنسي في زمن ما، وعلى يسارهم مروا ببيت الجريزة، ثم وبعد مائة خطوة أو أكثر بقليل ظهرت قلعة (الميراني) رابضة أمامهم أعلى الجبل، بعدها انكشفت الزرقة في خليج صغير.

وصلوا الفرضة فوجدها مرفأ شبه صخري يطل على خليج هلالي صغير، يصطخب بحركة الأوادم فيه، ويكتظ بحره بالزوارق الصغيرة. تتكدس على أرضيته البضائع التي ينزلها العتالون من الزوارق، التي تبحر لملاقاة البواخر الراسية على مسافة من الشاطئ حيث يتعذر عليها الاقتراب أكثر لضحالة المياه. ينزلون البضائع ثم يكومونها على الرصيف لينقلها رجال آخرون إلى مخازن، ودكاكين أصحابها.

وأحيانا تأتي البواخر بمسافرين أيضا فينزلون بالطريقة نفسها من الباخرة إلى الزوارق، ومن الزوارق إلى الفرضة، ويحدث بالطبع عكس ذلك أيضا، فتحمل البضائع، والمسافرين من الفرضة إلى البواخر.

الناس في الفرضة أخلاط من عرب وبلوش وهنود وعبيد، الناس في الفرضة خليط أصوات وعرق وظهور منحنية.

إلى يمين الفرضة بيت كبير جدا له نوافذ من زجاج أخضر، وشرفة واسعة تطل على البحر، أشار العود إليه بطرف عصاه ثم قال: «هذا قصر العلم، قصر السلطان، وإن كان له مدة ما يقيم هنا».

إلى جانب القصر يوجد بيت آخر: «وهذا بيت الباليوز، القنصل الإنجليزي»، ثم أشار إلى بناء آخر صغير: «و هذه الجمرك».

إلى اليمين جبل تعلوه قلعة، أشار العود إلى القلعة:

«هذه الميراني! فيها يقيم العسكر، وتضرب منها النوبة[8]».

«وذيك الجلالي حبس».

التفت راشد إلى قلعة الميراني التي تشرف على الفرضة من اليسار، ثم تبع نظره إصبع العود إلى الجانب الآخر، حيث الجلالي البعيدة، وأطال النظر.

يعرف كوت[9] الجلالي، ويعرف سمعته السيئة، وذاكرته المرة، سمع الرجال في مجالس السراير، يذكرونه فيقولون هو قطعة من الجحيم، يقولون: إن من يدخله لا يخرج منه إلا محمولا، ومن كتب له النجاة منه ظل أثر القيد في كاحليه إلى الأبد.

ثم تذكر حادثة سمعها في المجالس منذ زمن، عن بني علي الذين تسلقوا الجبل بحبالهم، وهرّبوا مساجينهم من القلعة في غفلة من حراسها. لا يذكر ما كان من أمرهم بعد ذلك؛ لكنه تأمل القلعة طويلا، وحاول أن يعرف كيف استطاع أولئك الرجال أن يفروا من هذه القلعة التي تبدو وكأنها مبنية في الهواء وما لها من أساس غير الماء؟

على طرف الجبل المنحدر إلى البحر منارة، وتحت المنارة كتابة يراها من بعيد، قال له العود إن المراكب تأتي إلى مسقط من كل مكان، وتحمل أعلام بلاد بعيدة، إنجليزية، وفرنسية، وأمريكية، وهولندية.

يشير إلى طرف الجبل المنحدر إلى البحر، ينبهه إلى الكتابة الطبشورية التي تظهر غائمة من البعيد، يخبره أن البحارة يكتبون أسماء السفن وتواريخ وصولها إلى فرضة مسقط، يقول: «كأن الجبل دفتر!».

---

8. النوبة: طلقات مدفع كان يعلن بها حظر التجول في مسقط بعد صلاة العشاء.

9. الكوت: القلعة.

بإمكان راشد أن يرى من البعيد الكتابة البيضاء على صفحة الجبل السوداء لكن ليس بإمكانه أن يقرأها.

- أشوفها من هنا واضحة.

يريد أن يقول للعود إن قوة النظر لا تغنيه إن كان لا يجيد القراءة، لكنه يقول:

- هذا الخط غريب!

- الكتابة بالإنجليزي، وحدهم الإنجليز والبانيان يعرفوا لها، ويمكن بعض السادة والتجار المتعلمين في الهند.

قلعتان وسور وأبراج منتشرة على رؤوس الجبال، يكاد يشم في الهواء رائحة خوف قديم، خوف معتق. «بلاد بنيت على خوف» يهمهم راشد لنفسه ثم يسألها: ترى هل يتوارث الخوف؟

خطر في باله أن أعداء السلاطين كثر، فلابد إذن أن هناك هجوما دائما على المدينة، لذا يحصنونها بكل هذه الأبراج والقلاع. ربما كانوا ظلاما كما يشاع عنهم، وربما كانوا أصحاب حق أريد لهم أن يتنازلوا عنه.

هو لا يعرف تاريخ البلاد، سمع في مجالس السراير أخبارا عن حروب ومعاهدات، وإمام وسلطان؛ لكنه لم يلتفت كثيرا لما يقال. لم يكن ذلك يهمه، كان يهتم بالنخل، وتحويل الماء في قنوات الفلج، كان يهتم بالفسائل، والرطب، والزرع، والثمر، والجني.

من تشغله الحياة لا ينشغل بالموت، الموت لا يشغل خدناء الأرض، الموت لا يشغل إلا الخائفين.

اتجه العود نحو رجل هندي يستريح بطنه البارز فوق ساقين نحيلتين يلبس عليهما قماشا أبيض خفيفا، يلفه على خاصرته ثم يدخله بين ساقيه

بطريقة ما، ويعود فيدس طرفه عند الخاصرة، يضع في قدميه خفين مقوسي الطرف وكأنهما مركبان صغيران، استغرب راشد ثياب الرجل التي لا هي إزار ولا هي سروال، لكنه عرف لاحقا من العود أنه لباس البانيان وأنه يسمى (الدوتي).

كان الهندي جالسا على كرسي من القش بلا مسند، تحت مظلة يحملها هندي آخر هزيل البنية، شديد السمرة ولا يتحرك أبدا، حتى ليبدو مقبض المظلة الأسود وكأنه امتداد لذراعه السمراء النحيلة.

على طاولة مربعة من الخشب، وضع الهندي دفترا ضخما يسجل في خاناته الطولية حروفا، وأرقاما كثيرة بكتابة لم يرها راشد في أي مكان من قبل.

ينهمك الهندي فيما يفعل حتى لا يكاد يرفع عينيه عن الدفتر إلا لإلقاء الأوامر على رجل يسميه نواز أو للحديث مع تاجر يسأل عن بضاعته.

اقترب العود من الهندي وسلم عليه، فوقف له ورد السلام، بلغة هي مزيج من العربية والأردو طلب العود من البانيان أن يجد لراشد عملا عنده، فحص شوترام راشدا من رأسه حتى قدميه الحافيتين بنظرة طويلة متمهلة؛ فشعر راشد وكأنه بضاعة تعرض.

هش شوترام راشدا وناصرا بعيدا بإشارة من يده، وعندما ابتعدا، سأل العود إن كان الشاب الذي أحضره معه مضمون، وغير مطلوب لثأر أو غيره عند الحكومة، فوضع العود يده اليمنى على رقبته من الخلف وربت عليها وقال: «نعم مضمون وبرقبتي».

تفاصلا على الأجرة حتى وصلا إلى اتفاق بأن تكون الأجرة بقدر ما يستطيع راشد حمله، ونقله من بضائع.

زعق شوترام مناديا راشدا فلما اقترب قال له:

- يحمل واجد؛ فلوس واجد، يحمل شوية؛ فلوس شوية، زين؟

لم يفهم راشد ما قاله الرجل، ففسر العود له ما قاله البانيان بعربيته المكسرة.

أشار إليه البانيان بأن يذهب إلى هندي آخر كان يقف قريبا من الماء، وزعق من مكانه آمرا الرجل بأن يعطي راشدا عملا.

انتحى العود براشد جانبا قبل أن يغادره، وحذره من العتالين الذين لا يحبون الغرباء الذين يزاحمونهم الرزق، ينبهه إلى المشاكل التي قد يختلقونها له، ينصحه بأن يظل بعيدا عنهم وألا يصغي إلا إلى أوامر البانيان ونواز.

هز راشد رأسه موافقا، ثم مضى إلى حيث يقف نواز مساعد البانيان، الذي أشار إلى زورق محمل بالبضائع يقترب من الفرضة.

خلع دشداشته على صخرة بعيدة، وبقي بصدر عار وبإزار رفعه حتى قارب ركبتيه، ثم سمى باسم الله المعين، وبدأ بحمل الزكائب التي لا يعرف ما بداخلها لكنها ثقيلة، يصرخ بهم نواز بأن ينتبهوا وأن لا يسقطوا البضائع في الماء.

حمل الصناديق والزكائب على ظهره طوال النهار، ولم يتوقف إلا عند أذان الظهر للصلاة، كان صامتا طوال الوقت، يعمل ولا يرفع رأسه ولا عينيه في عين أحد.

لم يتعبه العمل لكن صراخ نواز، وأوامره التي لا تنتهي أنهكته.

* * *

في نخل أبيه كان حرا، يحول الفلج، ويدير الماء، ويسقي النخل وحده، يعرف ما عليه فعله في كل خطوة. لم يكن بحاجة إلى من يدله على مواضع

الأشياء أو يحثه على خطوة ما آن أوانها بعد.

في النخل لكل شيء موعد وميقات، للماء في الفلج أثره[10] ودورته، وللثمر مواسمه، وللحشرات أطوارها، يستدل على الوقت بسقوط الشمس على خشبة القياس، وبالنجوم في مواقيت بزوغها وأفولها، وحركتها في ظلمة السماء.

الشمس رحيمة في النخل، يحجبها السعف، وورق شجر الموز العريض، فيكون مشيه بين الظلال غالب الوقت، أما هنا فالشمس والرطوبة، وصراخ نواز، والأوامر التي تطلق بلا معنى، ورائحة الحمالين تكاد أن تفقده صوابه.

في نخل أبيه كان حرا.

وهو ينحني على الأرض كان حرا، وهو يتعفر بالتراب كان حرا، وهو يغوص في طينها كان حرا، وهو يخرج الشوك من قدمه الخشنة الدامية كان حرا.

هنا بدأ يشعر بعبوديته تحت أثقال الزكائب، ونظرة البانيان وتهامس العتالين الآخرين عليه بلغة لا يفهمها.

هنا تتسرب حريته كقبضة ماء من بين يديه.

أحس بنفسه تضيق بنظراتهم المتعالية، ما الذي يجعلهم يتعالون عليه؟

كلهم تحت الشمس سواء، وفي التعب سواء، وفي الشقاء والشقاوة سواء، ألأنهم ولدوا في مسقط أو وصلوها قبله ووصلها هو متأخرا بمقدار زمن؟ أيجعلهم ذلك أصحاب المكان ويصيّره الغريب؟

يوجعه ذلك لكنه يكتمه.

---

10. الأثر: الحصة من ماء الفلج.

يردد بينه وبين نفسه: حتى حين.

كان يعرف أنه لن يبقى في الفرضة طويلا، لكنه لا يعرف موضع خطوته التالية، لا يعرف إلى أين سيأخذه الدرب الذي كر بين قدميه وأوصله مسقط.

واقع لحظتها تحت الشمس بين الجلالي والميراني، واقع في مكر الزمان والتاريخ، هل للتاريخ من صديق فيؤتمن؟

بعد العصر بقليل عاد إلى البيت، حيث وجد الرجال قد تجمعوا في السبلة كالعادة، حتى إذا ما دخل وسلّم؛ وضعت أمامهم صينية الأرز ومرق السمك، لكنه وقبل أن يمدوا أيديهم ناول العود الستين بيسة التي أنقده إياها البانيان، حاول العود ردها لكنه أبى ودسها في كفه.

أنهى الغداء، وتناول القهوة في صمت، ثم استأذن، وخرج ليجلس على ضفة الوادي الحصوية، أطال النظر في الضفة الأخرى وجال ببصره فيها متفحصا قمم النخيل وظلالها، يأنس قلبه إلى وفرة الخضرة بين الجبال الكالحة.

من مكانه يستطيع أن يرى حركة العاملين في النخل، ويستطيع أن يرى النساء في ثيابهن الزاهية يعملن المناجل في ضواحي البرسيم، يستطيع أن يرى انسكاب الماء، ولمعته تحت الشمس، وحركته في السواقي، يشعر ببرودة الطين اللزج، وتدفق المياه بين يديه وكأنه في تلك اللحظة يخوض في السواقي ويحول الماء ويبتل به.

يعرف أن للنخل أهله وأصحابه كما قال له العود ويحزنه أنه ما عاد منهم.

جلس طويلا على ضفة الوادي، حتى شعر بتعب النهار يتسلل بثقله إلى عينيه، فحط ظهره على حصى المسيلة الصغير الناعم، وأغمضهما.

* * *

بعد الفجر بقليل دخلت مثلى حجرة العودة بصينية عليها إناء من اللبن، والخبز الرقيق المفتت، وبعدها دخلت فضيلة بدلّة القهوة، وصحن التمر ثم تجمعت بقية نساء الدار وأطفاله وجلسوا في دائرة واحدة كبيرة حول الصينية، سكبت مثلى اللبن الرائب على الخبز المفتت، فأشارت العودة لريّا أن تمد يدها إلا أنها أحجمت تأدبا، وانتظرت حتى مدت العودة يدها فتبعتها، وكذلك فعلت بقية الأيدي.

تناولت النساء إفطارهن ودسسن لقيمات الخبز الصغيرة المغموسة في اللبن الرائب في أفواه الصغار، انتهى الخبز ولم يشبع أحد، لكن أحدا لم يشر إلى ذلك، حمدت النساء الله، وشكرنه، وقمن إلى أعمالهن.

سمعت النساء يذكرن الآبار، ومسيرهن إليها فطلبت من العودة أن تأذن لها بمرافقة النساء إلى الماء، فأذنت لها.

أخبرتها فضيلة وهي تناولها آنية الماء لتضعها أعلى رأسها، أن البئر ليست ببعيدة، لكنها كانت بعيدة، فمشين طويلا.

خرجت مع مثلى، وحميدة، وفضيلة إلى (طوي الحلوة)، ومشين في مجرى الوادي الصغير، حاذين المزارع التي على ضفة الوادي الغربية ثم تجاوزن حارة البلوش، مررن قرب مرتفع به شواهد قبور، فسلمت حميدة على القبور من بعيد ثم التفتت إلى ريّا وقالت: هنا ندفن أهلنا، «سلام عليكم أنتم السابقون ونحن اللاحقون» قالت ريّا، فرددت النساء وراءها السلام على الراحلين. وأكملن سيرهن.

انحنت خطوة النساء يسارا مع مجرى الوادي، ومضين في بطنه صوب الجبال السوداء.

قالت لها مثلى: طوي الحلوة أول الوادي، تحت الجبل، نستقي منها ماي الشرب، مايها حلو كأنه مذوب فيه سكر.

رشفت ريّا من ماء طوي الحلوة، وكان الماء حلوا، لكن ماء فلج العالي أحلى.

كان عاليا في منابعه يتحدر ماؤه من قمم الجبال، وتسير قنواته ملتصقة بالحواف ليصل القرية باردا ونقيا.

غافلتها نفسُها، وفرَّت إلى النخل، والضواحي في السراير. تذكرت بيتهم، كان لهم بيت من الطين يطل على نخيلهم في القرية المعلقة على السفوح الشمالية لجبل شمس، وكان الفلج يشقه فيبرد طينه في الصيف ويدفئه في الشتاء.

لم تكن تخرج لجلب الماء، كانت تمد يدها فتغرف منه وتشرب، وتغرف منه وتطبخ في الحوش، وتغرف منه فتستحم في طرف صفتها حيث أمر أبوها بحفر مسربٍ للماء؛ لتستحم من الفلج دون الحاجة للذهاب كبقية النساء إلى حمام القرية. كان الماء إذا ما استحمت يتساقط عن جسدها فيتجمع في المسرب الصغير الذي يأخذه ليروي السدرة وسط الحوش.

كانت تحب سدرتها، وكانت عندما تجلس تحتها وتتكئ على جذعها للقراءة أو الخياطة، تهمس لها: أنا منك وأنت مني، ماؤنا واحد.

شربت من ماء طوي الحلوة، وكان ماؤها حلوا، لكن السكر كان مذوبا في ماء فلج العالي وقلبها كذلك.

حملت الإناء المعدني الممتلئ بالماء فوق رأسها، ومضت مع النساء اللاتي لا يكففن عن المشي والكلام، فعرفت في رحلة واحدة الكثير من الحكايات، عن قصة هبوط العود من بلاده واستقراره في مسقط، أخبرنها أن العود سُمِّي كذلك لأنه أكبر أخوته السبعة الذين تبعوه، وأبناؤهم لاحقا واستقروا في هذه الحارة المطلة على الوادي، حيث بنى بيته على الضفة الشرقية منه فعرف بيته في مسقط ببيت الوادي.

عرفت تاريخ زيجاتهن، من جاء قبلهن من النساء ومن رحل، من ماتت في الوضع ومن لم تترك من وراءها طفلا كأثر. عرفت أن العودة هي زوجته الأولى وبنت عمه التي هبط معها من قريات إلى مسقط، وهي أم ناصر وصالح، وأنها الآمر الناهي في البيت، وأن لا سلطان إلا لها وما تقوله يجري أمرا على الجميع حتى رجال البيت ما عداه.

أخبرتها النساء أنه تزوج كثيرا بعدها، زيجات فرضتها الظروف والحاجة والرغبة في الأولاد فالعودة لم تنجب بعد صالح وناصر لا ولدا ولا بنتا، أما الآن فالبيت عامر بأطفاله وبأولاد ناصر وصالح.

كان طريق الرجوع من طوي الحلوة طويلا والأواني الممتلئة بالماء أعلى رؤوسهن ثقيلة، فيقصرن المسافة بالحديث والضحك، متوازنات تحت أثقالهن دون أن تسقط قطرة ماء واحدة فتبلل ثيابهن.

مررن بالقرب من حارة البلوش، التقين مجموعة من النساء فتوقفن، وأنزلن آنيتهن، وسلمن على النساء، وعرفن ريّا إليهن، إلى جول بيبي التي ترقق الحواجب وتنزع وبر الوجه بالخيط، وإلى ميهناز التي تجيد نقش السراويل بالورود والزهور والأغصان المتشابكة، وإلى عائشة فردوس التي تصنع وبمهارة ولذة فائقة حلوى الحليب المعقود بالسكر التي تبيعها في الأعياد.

سألن النساء عن أحوالهن وأولادهن وجاراتهن، وماشينهن في عجمة الكلام ثم رفعن الأواني مرة أخرى على رؤوسهن ومضين.

الوقت يقترب من الضحى، وحصى الوادي يزداد حرارة وهن لا ينتعلن إلا صبرهن وخفة حركتهن والكلام الذي لا يتوقف.

وصلن البيت عند الضحى فسكبن الماء في الزير الكبير الموضوع تحت

البيذامة وسط الحوش، وملأن به جرة في حجرة العودة وأخرى في سبلة الرجال، وثالثة في المطبخ ثم تفرقن في أعمالهن.

سمعت العودة أصوات النساء العائدات فنادت ريّا التي دخلت عليها، ووجدتها كما تركتها في الصباح عين معلقة على الجدار وابتسامة ساكنة.

بحركة من يدها طلبت منها الجلوس إلى جانبها، ثم قالت لها أنها سمعت قراءتها عند الفجر، وإنها لم تسمع أحدا يقرأ القرآن مثلها.

أطرقت ريّا خجلا من مديح العودة، وتذكرت كلام أبيها لها وهو يمدح صوتها وحسن قراءتها، ثم رفعت رأسها، وفي عينيها تلألؤ فرح، وأخبرتها أن أبيها علمها حسن التلاوة والتجويد.

أدنت العودة رأسها من رأس ريّا ثم طلبت منها بصوتها الهامس أن تتناول المصحف وتقرأ لها بضع آيات.

ابتسمت ريّا وضحكت عيناها للعودة، فقامت، وتناولت مصحفها، وجلست أمامها، فتحت المصحف عند الصفحة التي توقفت عندها فجرا، وقرأت:

«طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى...».

أخذتها القراءة فلم تنتبه إلى الدمعة التي سالت من عيني العودة المغمضتين، ولا إلى ترديدها أواخر الآيات وراءها، كانت تسبح في عالم الحرف والمعنى المكتنز في الصور، يتسلل المعنى إلى قلبها فيريحها من تعب المسير وضنى الشوق.

بعد أن انتهت ريّا من قراءتها لسورة طه؛ أخذت العودة كفيها، وأدنت رأسها منها، وأخبرتها بصوت أقرب إلى همس بقصة زواجها من العود،

ونزولها من قريات معه قبل أن تختم القرآن على يدي المعلمة، ثم كيف أنها انشغلت عمّا تعلمته ببيتها وأولادها فنسيت أكثره.

عرفت ريّا الشوق في صوت العودة فصارت كلما عادت من طوي الحلوة، تجالس العودة وتقرأ لها بعض آيات، فإذا ما اكتفت العودة وطابت نفسها تركتها، وكأنها تعلقها دون أن تتعمد بخيط رفيع من الوجد، وذهبت لتعاون نساء الدار في أعمالهن.

ثم إذا ما انتهت من أعمالها عادت إليها، فتقص عليها العودة حكايات طفولتها في وادي السرين قبل أن تنتقل وأمها إلى قريات ثم حكاية زواجها بالعود، وهبوطها مسقط راكبة البحر في زورق تقاذفه الموج مدة ليلة كاملة.

حكت لها العودة قصصا كثيرة عن قريتها المعلقة على سفح الجبل الأسود المطل على وادي السرين، عن شياهها التي قضت طفولتها في ملاحقتها في الشعاب، وعن أمها التي ورثت عنها أسماء الأعشاب، واستخداماتها في التداوي.

4

طالت إقامتهما في بيت الوادي، وصار راشد يشعر بالحرج من دخوله عليهم، فطلب من العود أن يعيّن له أرضا ليقيم فيها بيتا، لم يمانع العود وعيّن له أرضا صغيرة في طرف الحارة، لم يعارض أهل الحارة الأمر بل ساعدوه في بناء حجرة من الطين والحجارة وأمام الحجرة أقاموا عريشا وسوروا البيت بحاجز من سعف النخيل.

كان راشد يذهب إلى الفرضة من بعد صلاة الفجر، يذهب ولا يعود إلا بعد العصر بقليل، فيجد ريّا قد أعدت له الغداء وجلست تنتظره فيأكلان معا ويخبرها بما جدّ في الفرضة، ويناولها ما قبضه من أجرة لتصرف أمور البيت.

يرتاح قليلا وبعد صلاة المغرب يذهب إلى السبلة؛ فيسمع أخبار البلاد وعلومها من العود وخطاره عندما يأتون ثم يصلي مع الرجال صلاة العشاء ثم يعود ليضع ظهره على العريش وينام.

ريّا تفعل مثله تقريبا، تقوم بأمور دارها في أول الصباح، ثم تذهب مع نساء بيت الوادي إلى طوي العلوية أو طوي الحلوة لتستقي، ثم تعود فتجالس العودة وتقرأ لها القرآن وتستمع منها إلى الحكايات والقصص

وتحفظ عنها تراكيب الأدوية والوصفات التي تستخدمها في علاج الجروح والحروق وأمراض البطن والخطف الذي يصيب الإنسان فييبسه ويجعله عاجزا عن الحركة.

كانت العودة تجد راحتها في تلاوة ريّا للقرآن وتجد ريّا تسليتها في قصص العودة عن بلادها وأهلها، تخبرها العودة عن أمها التي كانت تجيد حكاية القصص والأخبار، التي توارثتها من أهلها سكان الجبل الأسود، الذين كانوا يركضون وراء قطعان الماعز على المنحدرات السحيقة، ويربونها حتى تكون الأخف شحما والألذ لحما. تخبرها عن جنيهم للعسل الذي يسكن شقوق الجبال أو أشجار السمر البعيدة. تخبرها عن أخوالها الذين يصعدون الجبل مسافات طويلة، ويجمعون الزعتر البري من أعالي الجبال، ويبيعونه لأهل الوديان والمنبسطات.

تخبرها عن أعمامها الذين ساحوا في الأرض سعيا وراء المغامرة والرزق حتى وصلوا إلى السعودية وعادوا بعد سنين محملين بالأخبار والحكايات، تحكي لها عن عمها حمد الذي عادوا به محمولا على أكتاف الرجال وكيف أن أمها عالجته بأعشابها وخلطات العسل حتى عاد إلى طبيعته، «ما حد عرف علته ومرضه، حد يقول عشق، وحد يقول عشقته جنية».

لا تمل ريّا حكايات العودة، ولا تمل العودة قراءة ريّا.

وعندما يُحضر ربيّع السمكَ من السوق تذهب إلى بيتها فتشعل النار، وتطبخ الأرز ومرقة السمك التي تعلمت كيف تصنعها على طريقة أهل مسقط بزعتر وبصل كثير، ثم تجلس فتقرأ في مصحفها ساعات أو تشغل نفسها بتطريز كمة[11] لراشد يلبسها في العيد.

---

11. كمة: طاقية.

في كل نجم تنقشه على الرقعة البيضاء التي بين يديها كانت وكأنها تضع أمنية. لكن كل أمانيها تتشابه، تريد العودة إلى البلاد، إلى بيت الطين والساقية، إلى صوت أبيها في القراءة، تريد لغضب راشد أن ينطفئ فيعودان إلى حيث يعرفان.

تركا البيت على عجل، لم يمهلها لتأخذ ما يقيم أود الذكرى، لكن السرايا في قلبها، تحملها وتحط بأحلامها فيها في كل خلوة.

حياة بسيطة وحذرة، يقول راشد:

- نحن غُرْب في هذي البلاد ولو مر علينا الدهر فيها.

ترد عليه ريّا وفي بالها خيالات بيت الطين والفلج وحلاوة مائه:

- الغريب مرجوع لبلاده ولو طال به الدهر.

- يا ريّا البلاد ما جبل وحصى ونخل وفلج.

يتكسر صوته لكنه يكمل:

- البلاد ناس، ناس تحبك، وتفقدك، وتترجاك، وتحامي عنك، وما تهون عليها.

يسكت قليلا، يبلع ريقه وكأنه يبلع غصته، تحاول أن تقول شيئا لكنه يكمل بغضب:

- يوم نحن هِنَا على أهلنا ما عادوا أهل، نحن التو غُرب.

- الغربة في القلوب ما في المكان.

تسكت ريّا إذ يغلبها غضب راشد والمرارة في صوته، تدعو ربها متمتمة «يا شافي القلوب اشفه، واجبر كسر فؤاده، يا الله...».

- صح، ونحن هناك وهنا غُرب، وكله علينا واحد.

* * *

ربما لأنه كان عاملا صموتا بخلاف بقية الحمالين الصاخبين أعجب شوترام براشد، وربما أعجب به أيضا لأنه لا يظهر التعب، ولا يتبرم ولا يشتكي. لكن شوترام لم يعجب راشد وربما في الحقيقة لم يكن يفكر فيه، هو فقط يتلقى منه الأوامر بصمت، يحمل أثقال الزكائب والصناديق بصمت، ويتردد بين القوارب والفرضة بصمت.

لم يكن شوترام يعنيه ولا نواز الذي لا يكف عن الصراخ يعنيه ولا يعنيه العتالون الآخرون، كان كل ما يهمه هو إتمام عمله والحصول على أكبر قدر من البيسات في اليوم.

سريعا كان وخفيفا وقويا، يحمل أضعاف ما يحمله الآخرون على ظهورهم وأكتافهم دون أن يبدي تذمرا أو تسمع منه أنَّة تعب.

لا يتبادل الكلام مع أحد إلا لحاجة، صامت في الفرضة، صامت في سبلة العود إلا إذا سئل، وعندها تكون إجابته مقتضبة وسريعة.

تعود العود وأولاده على صمته، وشوترام أعجبه ذلك الصمت، لكن عمال الفرضة كانوا لا يحبونه وما كانوا يخفون ذلك، وهو يعرف ما يهجسون به ولا ينكره عليهم، يعرف أنه غريب، ويعرف أنه يزاحمهم اللقمة.

كانوا يتحدثون بينهم بلغة لا يفهمها، عرف من العود أنها البلوشية، وكانوا يطلقون عليه لقب «بووك» وعندما سأل العود عن معناها، ضحك العود والحاضرون في السبلة، ثم قال له: «تعني بغام يعني بو ما يفهم، الغبي».

لم يضحك راشد لكنه عرف الكلمة وصار يتجاوزها، يسمعها فلا يبدي رد فعل وكأنه لا يفهمها.

فريش الهدل كان أكثرهم مجاهرة ببغضه، وكان لا يتوقف عن السخرية منه، وكثيرا ما كان يحمّل على ظهره أحمالا زائدة وكأنه يتعمد أن يكسره، لكن راشدا ما كان يئن تحت وطأتها ولم يسقط زكيبة أو صندوقا يوما في الماء.

وإذا ما ضاق بتحرشهم ردد لنفسه: الصبر زين، مدة وتنقضي.

لكنهم لم يمهلوا صبره حتى ينضج.

في إحدى المرات بالغ فريش الهدل في تحميل ظهر راشد فكدّس عليه الزكائب، حتى بدا أنه لن يستطيع حملها، لكنه بعد جهد فعل.

وضع كل قوته في ربلتي ساقيه وعضلات الفخذ فقام، ظهره محني تحتها بشدة، يمشي ببطء وهو يكاد يشعر بفقراته تنفصل، يستعر أسفل ظهره وأعلى كتفيه نارا، لكنه أكمل سيره حافي القدمين والشمس على رأسه كعمود من اللهب.

العرق يتصبب من جبينه فيعمي عينيه، كان يرى الدرب أمامه ولا يراها، خطواته بطيئة ومكان إنزال الحمولة بدا أبعد من المعتاد، بعد خطوات امتدت قدم فعقرته، اختل توازنه فسقط وما كان يحمله على الأرض.

تجمع حوله بقية العتالين وصاروا يسخرون منه، وينعتونه وكأنه امرأة:

- ما رمتيلها هاه، مسوية عمرش قوية، قومي... قومي يالله.

لم يتعود راشد كلام العتالين وأبناء البحر وغمزهم ونعوتهم ومزاحهم، فارتفع الدم إلى رأسه وقام في قفزة واحدة منتصبا، يحجب الغضب بصره فلا ترى عيناه إلا وجوها عدوة.

قام فقامت عفاريته معه، تلك العفاريت التي طالما أوصاه أبوه أن يلجمها.

لم ينتبه فريش الهدل للحمرة في عيني راشد فدفعه في كتفه وكأنه يتحداه، فأمسك راشد بذراعه ولواها ثم دفعه فسقط على الأرض بقوة، عندها هاجمه بقية العتالين وتكاثروا عليه.

كان الرجال يهجمون عليه وكان هو يواجه الضرب بالضرب، فيصفع هذا ويرفس ذاك. يطوح بهم فيصبحون بلا وزن ويسقطون متكومين على أنفسهم ومتفرقين على الأرض.

تساقطوا من حوله وبقي هو وحده قائما يلهث، خدوش في وجهه ورضوض في جسده.

شوترام الذي كان يراقب المشهد، وهو جالس على كرسيه البعيد لم يتدخل، وظل في مكانه كمن اعتاد الفرجة، أما نواز فكان يقفز متوترا قفزات صغيرة في الهواء ويصرخ، والرجال المُلْقَوْن على أرض الفرضة يتلوون، ويئنون في أماكنهم، لا هم بقادرين على الوقوف ولا هم يجرؤن عليه.

مشى راشد صوب البحر ونزل فيه حتى غطى الماء نصف إزاره فاغتسل بمائه المالح، كان البحر مثل مسقط تماما يغسل بالماء جراحه، ويهيجها في آن.

استمر في فرك جسده، وغسل جراحه حتى شعر بغضبه ينفد، وطاقته تغادره، خرج من البحر خفيفا، لم يهتم بالرجال الذين ما زالوا متكومين على الأرض، ولا بشوترام الذي يراقب كل شيء في صمت، ولا بنواز الذي لم يتوقف عن الصراخ لحظة.

عندما عاد إلى البيت حكى لريّا ما حدث في الفرضة، ثم أخرج القروش التي باع بها نميصة من مخبئها، أخبرها أنه لن يعود إلى الفرضة، وأنه ينوي فتح دكانٍ في السوق، ويعمل فيه تاجرا يبيع ويشتري، لكنها كانت تعرف أن أخاها ليس بتاجر فقالت له بصوت هامس لكن حازم: «ضم قروشك، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرا».

يدهشه هدوءها، تعامله وكأنه ولدها الصغير، وكان يستجيب لها وكأنها الأم التي لم ينعم طويلا بها، تقرأ صحيفة نفسه وتعرف كيف تنزع فتيل غضبه بكلمة.

نظر طويلا في عينيها ثم أعاد قروشه إلى مخبئها وتوسد مصره[12] ونام، ذهب سريعا في النوم دون أحلام أو خيالات.

* * *

جاء رسول السيد بعد صلاة الفجر إلى سبلة العود ليستدعي راشدا للحضور إلى البرزة[13] عند الضحى وأن لا يتأخر، سأله العود عن سبب الاستدعاء لكنه لم يجب، فأرسل ربيّع لإبلاغ راشد، وعندما حضر سأله عن سبب استدعائه عند السيد لكنه لم يكن يعرف، ولم يخطر في باله سبب يُستدعى عند السيد لأجله.

رافق العود راشدا إلى برزة السيد لكن الحرس لم يسمحوا له بالدخول، ظن أن التهمة كبيرة فجلس ينتظره عند الباب، وهو يفكر فيما يمكن لرجل غريب وصموت مثل راشد أن يفعله حتى يستدعيه السيد للحضور بين يديه.

برزة السيد غرفة طويلة، لها نوافذ مستطيلة وكثيرة تطل على البحر، تسمح بدخول أشعة الشمس بوفرة، فتكون الغرفة وكأنها الصباح.

الأرضية مفروشة بسجاد جميل، وعلى طول الجدار أسندت وسائد بيضاء علقت أعلاها بنادق مختلفة الطرز وسيوف وكتارات[14] مختلفة الأحجام والأشكال.

12. المصر: العمامة.

13. البرزة: مجلس السيد أو الوالي.

14. الكتارات: جمع كتارة وهي الترس.

وصل راشد البرزة ووقف عند الباب ثم سلم بصوت عال على الحضور فانتبه له السيد وأذن له بالجلوس فجلس على الأرض أمامه كعادته في الجلوس في سبلة أبيه إذ ما طلبه لأمر.

كان هناك رجلٌ على يسار السيد يوثق الكلام في قراطيس، وشيخان بلحى بيضاء طويلة على يمينه يتحدثان بصوت منخفض وكأنهما يتشاوران، وآخرون يسندون ظهورهم إلى الوسائد البيضاء بطول الجدار، أشار السيد إلى العسكري فأدخل العتالين يتقدمهم فريش الهدل، لكن السيد لم يأذن لهم بالجلوس فظلوا واقفين.

أمرهم السيد أن يتكلموا في شكايتهم، فأشار فريش الهدل إلى راشد واتهمه بضربهم، سأله السيد مندهشا إن كان راشد الرجل الماثل أمامهم قد ضربهم كلهم فأكدوا له ذلك بهزات متوالية من رؤوسهم، لكنهم تبادلوا النظرات القلقة عندما سألهم عن سبب (الضرابة)، ونكسوا رؤوسهم حائرين فيما سيقولون.

طال صمتهم فرفع السيد سبابته في وجوههم مهددا بالحبس إن هم لم يقدموا له إجابة على سؤاله.

في تلك اللحظة استأذن شوترام في الدخول، أذن له السيد وأمره بالاقتراب منه وأن يقول ما يعرف.

أخبر شوترام السيد بما شاهده وشهد عليه من مكانه، وكما رواه له نواز بتفاصيله لقربه من مكان الضرابة، كان السيد يستمع للرجل فتلمع عيناه حينا، وتشتعل بالغضب حينا، أما العتّالون فنكسوا رؤوسهم حتى جاءهم صوت السيد غاضبا:

- تسعة رجال قمتم على رجل واحد تعتدوا عليه وتضربوه، وبعدكم

جايين تشكيوا به؟ سَوّدْ الله وجوهكم، مأمور لكم كلكم أنتو التسعة بالحبس مدة شهر.

حاولوا الاعتراض لكن السيد لم يمهلهم، ونادى على العسكري الذي ساقهم أمامه إلى الحبس.

وبعد أن خرجوا وجّه السيد حديثه إلى راشد، وسأله عن البلاد التي جاء منها.

- أنا من السراير، من الرستاق، اسمي راشد وأبوي سيف بن راشد العايفي.

أحس بالغصة تتجمع في حلقه والمرارة تفيض من فمه وهو ينطق اسم أبيه، تذكر تهمته وهوانه على أهله فكاد يغص، بلع ريقه لعل شيئا من ذلك القهر الذي في صدره يخف.

- عاجبنك الشغل مع البانيان؟

- السيد، الشغل شغل، مع البانيان أو مع غيرهم.

نظر السيد في وجه راشد لحظات، وهو يهز رأسه هزات خفيفة وكأنه يزن كل كلمة سمعها، ثم أدار رأسه وتوجه بالكلام إلى الكاتب على يساره آمرا بتسجيل راشد كعسكري في حراسة الباب الكبير، وأمر له ببندقية ومعاش.

ثم التفت إلى راشد وقال له آمرا: من باكر تصبح هنا، معنا.

فهز رأسه موافقا: «نعم السيد».

ثم ما لبث أن صرفه وأمر بإدخال غيره إلى حضرته، فخرج مذهولا من تغير سير الأمور.

في أثناء قيامه من مكانه التقت عيناه بعيني الكاتب في دهشة صغيرة، فابتسم له ابتسامة خفيفة مطمئنة، ثم انصرف إلى دفتره يدون فيه ما أمره به السيد.

سأله العود عندما رآه خارجا من برزة السيد عن الذي حدث، وعن سبب استدعائه وخروجه، فشرح له ما حدث في البرزة، وأخبره أنه صار من عساكر الباب الكبير.

رافق العود إلى السوق وأخبره ما كان من أمر العتالين معه في اليوم السابق، جالسه في دكانه طوال النهار صامتا غالب الوقت؛ إلا أنه لم يتوقف عن مناجاة أبيه في داخله، لكن هذه المرة لم يكن يشتكي له ظلم عمه وأهل السراير، بل ليخبره بأنهم قد بدأوا في عيش حياة جديدة، وفي مكان بعيد جدا. قال لأبيه في سره واثقا: «سأحمل بندقية السركال منذ الغد يا أبي ولن نهون بعدها، أنا وريّا لن نهون، سأحرص على ذلك».

وعندما عاد إلى البيت حدث ريّا بالأمر كله، لم يقل لها إنه سعيد بما جد من الأمر، لكنه لم يستطع إخفاء زهوه بسلاح السركال الذي لم يعلقه على كتفه بعد، كانت تعرف أخاها جيدا، تقرأ عينيه وقلبه دون أن يكثر من الكلام.

5

مرضت غزلان فعرفت ريّا طريق بيت الباغ[15].

عندما استبطأت العودة زيارة غزلان، طلبت من ريّا أخذ وعاء الحليب إلى «البيبي»، كان الوعاء من المعدن المطروق وله غطاء منقوش بزخارف دقيقة من الورود والأغصان المتشابكة، وكان له قفل صغير ومفتاحان، واحد تحتفظ به العودة والآخر عند البيبي نفسها.

رغم ضعف بصرها كانت العودة هي من تقوم بحلب الشاة بعد أن تغسل يديها، والضرع جيدا بالماء والصابون الذي ترسله لها البيبي مطلع كل شهر، ثم تصب الحليب عبر قمع من المعدن وتملأ به الإناء، ثم تحكم وضع الغطاء وتغلقه جيدا بالقفل الذي تخبئ مفتاحه في جيب «دشداشتها».

لم تكن ريّا تعرف الباغ أو تدل طريقه وإن سمعت ذكره يتردد كثيرا على ألسنة نساء بيت الوادي. هي لا تعرف من هذه البلاد إلا الدرب التي جاءت منها ودرب الوادي إلى الطويان العلوية.

---

15. الباغ: بالهندية بغيشة، وبالفارسية باغ، وتعني الحديقة.

سألت نساء الدار فخرجت معها حميدة حتى الطرف الشرقي للحارة وأشارت لها من هناك إلى آخر الدرب، حيث تقع حارة الزدجال، ويكون البستان ذو البوابة الكبيرة، والمسور بجدار من طين وحصى في الجهة المقابلة لها.

قالت لها بأن عليها أن تطرق البوابة بحلقة الحديد المعلقة عليه، وأن فاضل البيدار سيفتح لها الباب، ونبهتها لئلا تناول الإناء إلا للبيبي وأن تنتظر حتى تعيده إليها وتسلمها ثمن الحليب.

كانت ريّا التي صارت نساء بيت الوادي يسمينها (ريوه) تحببا، ترتدي ملابسها على طريقة أهل مسقط، ثوب من قماش قطني خفيف، أصفر اللون ومطبوع بدوائر صغيرة حمراء.

وتلبس تحته سروالا أبيض واسعا عند الفخذين، وضيقا بامتداد ربلتي الساق، ومشغولا عندهما بوحدات من الورود الملونة.

على رأسها تلبس وقاية[16] خضراء وفوق الوقاية تضع شيلتها الباذنجانية اللون، بحضيتها[17] الذهبية، وأطرافها المشغولة بالبريسم المقلود في خيوط سميكة وكأنها حبال رفيعة.

ابتاع لها راشد الأقمشة من السوق، وساعدتها النساء على تفصيل وخياطة دشداشتين وسروالين أخذتها النساء إلى (ميهناز) البلوشية التي تسكن بمحاذاة درب الوادي لتنقشها بوحدات الزهور الملونة، تفعل البلوشيات ذلك بمهارة، يشغلن القماش الأبيض بخيوط زرقاء ووردية وصفراء وخضراء وبنفسجية وحمراء، يفعلن ذلك وكأنهن يضمرن إضافة

16. وقاية: غطاء الرأس.

17. الحضية: الحاشية.

اللون على الطبيعة الجرداء حولهن، ويحولن ملابس النساء إلى غابات من زهر ومشموم.

كان وصف حميدة بسيطا لكنه كان دقيقا، فوجدت ريّا نفسها بعد مشي قليل تحاذي سورا عاليا من الحجارة والطين، ثم رأت بوابة كبيرة من الخشب وفي وسط إحدى ضلفتيها باب صغير للدخول، وأعلى البوابة حفرت كتابة تقول «بيت الباغ». دفعت الباب الصغير ودخلت، لم تلق أحدا عند الباب فمشت في الدرب الصغيرة التي بدت وكأنها تقسم المقصورة عند المنتصف إلى قسمين، على جانبي الدرب المفروشة بالحصى أشجار تين وسفرجل ومانجو وليمون ووراءها تمتد ضواحي النخيل المزروعة في خطوط، خطا وراء خط حتى تصل إلى سور الباغ وكأنها صفوف منتظمة من الجنود.

مشت ريّا في الدرب الباردة المظللة بأغصان الشجر الكثيف الذي يحجب الشمس، فشعرت في الظل ببرودة خفيفة، وهبت عليها من البعيد رائحة الياسمين.

مشت أكثر فوجدت البيت في آخر الدرب.

وقفت ريّا لحظات أمام البيت تتأمله، كان البيت من طابقين ومصبوغا بالنورة البيضاء، له نوافذ مربعة على كل جدران البيت، النوافذ مؤطرة بخشب أزرق مزين بنقش وحدات ورد مصبوغة بالأصفر وتحرسها أعمدة من الحديد، أما أعلى النوافذ فقد حفرت فتحات مربعة صغيرة بعضها مفتوح وبعضها مغلق بالجبس المنقوش، فكرت ريّا: ربما كانت الفتحات للتهوية، أو ربما كانت مثل فتحات القلاع للبنادق.

ارتقت ريّا درجات السلم الثلاث الواسعة والمزروع على جانبيها شجيرات ياسمين وريحان وورد، وصلت عند الباب فوقفت تتأمل الزخارف الدقيقة التي تزينه، لم ترَ شيئا يشبهه في دقة الحفر والنقش من قبل.

طرقت الباب بالحلقة النحاسية المعلقة على ضلفته اليمنى وانتظرت. بعد قليل فتحت شابة بيضاء تميل للامتلاء الباب. بياضها مختلط بحمرة، ولعينيها لون فاتح، أنفها دقيق تحليه قطعة ذهب دائرية في وسطها فص أحمر كبير محاط بفصوص بيضاء صغيرة، ولها شفتان رفيعتان وكأنهما خطتا بقلم، تضع ثوبا أحمرَ طويلا من الحرير، وتلبس عليه نسيجا أخضر خفيفا، ومطرزة حواشيه بخيوط ذهبية سميكة.

هذه امرأة جميلة، وترتدي ثيابا جميلة وغريبة، قالت ريّا ذلك لنفسها، ثم مدت يدها لتسلم عليها لكن المرأة لم تمد إليها يدها للسلام بل لتتناول منها الإناء.

أحرجت ريّا فأحجمت ولم تمد يدها، واعتذرت بأن العودة أوصتها ألّا تناوله إلا البيبي، فقالت لها المرأة بصوت فيه نفاد صبر وتعجل إنها هي البيبي، مع ذلك ترددت ريّا قليلا، ما تخيلت أن تكون البيبي التي تذكرها النساء في بيت الوادي بتقدير كبير شابة إلى هذا الحد، في الحقيقة تخيلتها امرأة كبيرة بل ربما كانت في مثل سن العودة.

طال تردد ريّا لكنها ما وجدت بدا من أن تمد يدها بالإناء، وتناوله المرأة التي أمرتها بطريقة فظة أن تبقى في مكانها وألّا تغادره حتى تعود، ثم دخلت البيت وتركت ريّا وحدها أمام الباب الصامت فأدارت له ظهرها، ووقفت تتأمل البستان بنخيله وأشجاره.

وقفت ريّا في مكانها وهي تفكر في المرأة التي قابلتها للتو، ولا تعرف كيف عليها أن تتصرف تجاهها وهي لا تبدي لا ودا ولا لطفا، طالت وقفتها حتى تحولت الظلال فتبعتها حتى تتقي الشمس، طال انتظارها وبدا وكأن المرأة قد نسيتها.

فكرت في مغادرة البستان والرجوع إلى الحارة، لكنها لم تستطع إلا أن تنتظر ثمن الحليب حتى تسلمه العودة كما أوصتها حميدة، تعبت رجلاها من الوقوف الطويل فجلست على جانب الدرج عند شجيرات الياسمين، ثم فجأة فتح الباب وظهرت البيبي. لم تعتذر لها البيبي عن غيابها الذي طال بل سلمتها الإناء خاليا ومغلقا بقفله وناولتها قطعة صغيرة من النقود، وأمرتها بأن تبلغ العودة بأن غزلان مريضة، وأن عليها هي أن تحضر الحليب كل يوم بدلا عنها، ثم دخلت البيت. وقفت ريّا لحظات أمام الباب الموارب مذهولة من سوء تصرف المرأة ولهجتها الغريبة الآمرة. شعرت بالإهانة فاستدارت لتعود من حيث أتت، لكنها سمعت صوت المرأة يأتيها مرة أخرى ليأمرها بأن تعود في الغد في نفس الموعد لتحضر لها الحليب. التفتت ريّا نصف التفاتة إلى البيبي لكنها صرفتها بإشارة من يدها، ثم أغلقت الباب وراءها.

استدارت ريّا مرة أخرى، وهبطت الدرج مسرعة، ومضت في درب البستان وفي قلبها مزيج من غضب وحزن، سمعت الباب يفتح وصوت البيبي يعود فيناديها لكنها لم تلتفت، تناديها البيبي بصوت أعلى فتغذ في السير نحو البوابة غير عابئة بندائها، تمشي مسرعة حتى تكاد أن تتعثر بخطواتها، تمشي وكأنها تركض هاربة من شيء ما.

تشعر بالإهانة ويغلي الغيظ داخلها وهي تحدث نفسها، كيف للبيبي أو لأي شخص آخر أن يعاملها هكذا!؟

هي ليست خادمة لها أو لأي كان لتأمرها بالانصراف أو الحضور متى ما بدا لها ذلك، بينهما ما يجب أن يكون بين امرأتين حرتين ولا شيء آخر.

تعاتب نفسها لقبولها طلب العودة، فليتها لم تذهب، وليتها لم تطع العودة.

تبتعد عن البيت وعن صوت البيبي الذي يناديها: «يا بنت ردي علي»، في كل خطوة كان جمال البيت وجمال صاحبته يخبو في عينيها أكثر، وفي لحظة تلاشت رائحة الياسمين من الهواء، وامتلأت عيناها بالدموع.

عندما عادت ريّا إلى بيت الوادي دخلت إلى حجرة العودة مباشرة وناولتها الإناء وقطعة النقود، طلبت منها العودة الجلوس، فجلست ووجهها أحمر متقد من شدة الغيظ.

حكت ما حدث بينها وبين البيبي والدموع تسح على خديها، فمدت العودة يدها، وتلمست وجه ريّا، ومسحت بأصابعها المبصرة قطرات الدمع.

عندما هدأت ريّا وتوقف دمعها؛ قصت عليها قصة بيت الباغ، ومن أين جاءت البيبي، وقصة غرق زوجها إسماعيل بن صالح، تاجر الأخشاب، في طريق عودته من البحرين إلى عمان، وهجوم أولاد زوجها الذين لم تعرف عنهم شيئا من قبل على الباغ، ومحاولتهم تجريدها وبناتها من كل ما تملك، وكيف تحولت البيبي في خوفها إلى قنفذ، يتحول كلما لمح غريبا إلى كتلة من شوك.

«لا تلوميها يا بنتي، الغريب دومه لفزعان ومتوجس».

سمعت ريّا كلام العودة لكن قلبها لم يسمعه، تتوارد الصور في مخيلتها، البستان ورائحة الياسمين وامرأة غريبة تأمرها بالإشارة والكلام.

يذهب خيالها إلى سواقي الماء في السراير، تمشي عليها وصينية الأكل على رأسها توصلها لأخيها عندما يكون النخل في موسم التبسيل[18] فيتعذر عليه الرجوع إلى البيت لتناول غدائه لكثرة ما في يديه من أعمال.

---

18. التبسيل: غلي حبات الرطب قبل أن ينضج.

تمشي على الساقية فيزدحم مشيها بسلام النساء الذاهبات مثلها نحو أزواجهن أو أولادهن أو إخوتهن، يقفن ويسلمن عليها ويترحمن على أبيها ويسألنها عن حالها وحال أخيها.

تمشي فتنهض النساء من بين أعواد المسيبلو[19] ويلقين عليها التحية فرحات باشات، أو يرفعن أيديهن بالسلام البعيد، يلوحن لها وفي أياديهن المناجل.

تحب رنات ضحكاتهن العالية وكمونهن في أخضر الأرض، مشيهن بين الضواحي وهن يحملن سلال الحشيش، تمشي الواحدة منهن مستقيمة، وكأن ما يحملنه من أثقال ما هو إلا ميزان حركتهن السريعة في النهار.

نساء السواقي يعملن منذ طلوع الشمس لكنهن لا ينسين زينتهن، يخرجن من بيوتهن وجباههن مدهونة بالطيب والصندل، يسدلن وقاياتهن الطويلة على العشب ويعملن فيه مناجلهن، يملأن به قفرانهن، ثم يستقمن، وينفضن ما علق من تراب الأرض بحركة خفيفة من باطن اليد. أطفالهن معهن، ينتشرون في الزرع من حولهن، يركضون ويلعبون ويتعثرون، يبكون، ويتعلمون من عثراتهم ويكبرون، يتعارك أطفالهن فيغضبن ويتشاتمن.

تعرف أن نساء السواقي ما يلبثن أن ينسين فتساعد كل واحدة أختها في حمل القفير أعلى رأسها، ويسند بعضهن بعضا في الموت والميلاد.

نساء السواقي يعملن في الشمس فينسكب عرقهن ليروي خطواتهن الخضراء.

نساء السواقي يسلن كالماء المتدفق فيها، خصبات ومتجددات، لا يوقف وجودهن المانح شيء، ولا يمنع حضورهن في الأخضر أي شيء.

---

19. المسيبلو: نوع من أنواع العلف.

تمشي فتشعر بالألفة تزدحم في رائحة مواقد التبسيل في أطراف الضواحي، في دهان الصندل، في غبار الطلع، في رائحة الكيذا، في ضحكات الأطفال إذ تعمر فضاء النخيل.

سمعت كلام العودة لكن أيا مما قدمته من أعذار لا يبرر التعامل الفظ الذي وجدته من البيبي ولا شيء عند ريّا يغفر الفظاظة وسوء الأدب.

* * *

بعد أسبوع دخلت غزلان بيت الوادي بضحكتها التي تهش لها النساء، ويجفل منها الرجال، فلا يعترض حضورها أحد ولا يرد لها طلب، ليس لأنها خادمة البيبي وبيت الباغ فحسب، لكن لأن لها لسانا شديد الحلاوة عندما تريد، وبالغ الحدة عندما يعترض طريقها أحد، أو عندما تهجس من أحد استصغارا أو تستشعر منه إهانة، تسخر من كل شيء ولا يسلم من لسانها أحد، سريعة البديهة حاضرة النكتة.

سألت عن العودة ولم يكن في يدها إناء الحليب ذو القفل، لكنها كانت تحمل صرّة صغيرة.

دخلت غزلان الحجرة وأقبلت على رأس العودة ويديها تقبلهما، وتعتذر عن غيابها، تحكي للعودة في كلامها السريع الضاحك عن الحمى التي زارتها، ولم تُبقِ منها عظما إلا هركته، تصف لها برك العرق التي كانت تغرق فيها ولا ينقذها منها إلا صوت المرحومة أمها وهي تناديها، تخبرها عن إرسال البيبي فاضل إلى مستشفى السعادة مستنجدة بالطبيبة، تخبرها عن زيارة (مس ميري) بحقيبة أدويتها القماشية وأقراص «دوا الكينين» البيضاء المرة التي وصفتها لها، عن شوربة الدجاج التي لا تجيد البيبي إعدادها لكنها تحتسيها امتثالا للحزم في عينيها. تتكلم بسرعة ثم تتوقف بغتة، تشهق وكأنها على وشك الغرق في كلامها.

ثم تشير إلى الصرّة وتقول للعودة في نبرة جادة تخلت للتو عن لهوها «البيبي تسلم عليش، وتقول هذه للبنت بو جابت الحليب».

ابتسمت العودة ابتسامتها الخفيفة، فوضعت غزلان الصرّة في حضنها، وقبلت قمة رأسها ثم قامت، واستأذنت في الذهاب.

خرجت غزلان من الحجرة بضحكتها كما دخلت بها، مخلفة شبح ابتسامة طافية على وجه العودة، ما لبثت أن تلاشت عندما تذكّرت الصرّة التي في حضنها.

بأطراف أصابعها جسّت العودة الصرّة، ثم أخرجت مفتاحها، وعملته في قفل سحّارتها الحديدية، وخبأتها في داخلها إلى جوار قناني العسل وأواني الأدوية.

نادت العودة فضيلة التي كانت تعرف أنها تراقب كل شيء من عند فتحة الباب، وأمرتها بالذهاب إلى بيت ريّا، واستدعائها على وجه السرعة.

أثناء خروجها أخبرت فضيلة مثلى وحميدة عن الصرّة التي أحضرتها غزلان وخبأتها العودة في سحّارتها، فبقين يحمن حول الحجرة متظاهرات بكنس الحوش.

كانت العودة تشعر بحركتهن وتبتسم، هي على دراية بأحوال زوجات زوجها، يقتلهن الفضول، ويقتلهن أكثر خوفهن على مكانتهن في البيت عند دخول امرأة غريبة.

عندما وصلت ريّا وجلست أمامها طلبت منها العودة أن تقترب أكثر، ثم مالت عليها، وناولتها المفتاح، وأمرتها بفتح السحارة، وجلب الصرّة.

كانت رؤوس النساء متراصة عند النافذة فشهقن لرؤيتهن العودة تناول مفتاح السحّارة لريّا، المفتاح الذي لم يلمسه من قبل، وتفتح الصندوق

الحديدي الذي حُرّم عليهن رؤية ما بداخله.

كادت فضيلة أن تفلت صرخة غيظ، لكنها خافت من عيني العودة البيضاء، وتأديب زوجها لو أنها أخبرته بأنها تتلصص عليها، وتتدخل فيما لا يعنيها.

أخرجت ريّا الصرّة، ووضعتها في حضن العودة، لكنها ردّت الصرّة إلى يد ريّا، وأخبرتها عن زيارة غزلان، فأعادت ريّا الصرّة إلى حضن العودة وقالت لها:

- ما أريد منها شي.

تُطرق العودة قليلا، ثم ترفع رأسها:

- أنت تعرفي الله ورسوله، ويقولوا الرسول قبل الهدية من يهودي، فمدي يدش وفتحي قلبش.

لكن ريّا لا تمد يدها، ولا تفتح قلبها.

- أعرف أنش كريمة وعزيزة نفس، بس الكرامة ما بس تبان في الغضب، الكرامة تبان كذلك في قبول العذر. وصحيح إن التجار تعودوا الناس بس تخدمهم، والخلق من حولهم عبيد، وما تعودوا حد يرادّهم في الكلام ولا حد يجسر يرفع عينه في عينهم، وصح هم يحسبوا كل من دق بابهم محتاج وكل غريب مولى أو عبد. لكن البيبي وإن بدا منها الجفاوة إلا أنها طيبة ومسكينة.

مدّت العودة يدها بالصرّة فلم تجد ريّا بدا من مدّ يدها وتناولها، لكنها تردّدت في فتحها.

- لا تفتحيها التو، شليها معش وكان طابت منش النفس فتحيها.

أصيبت النساء الواقفات عند النافذة بالغيظ، وهن يشاهدن ريّا تخرج من الحجرة متأبطة الصرّة دون أن تفتحها، ودون أن يرين ما في داخلها، ابتسمت العودة للوجوه التي لا تراها إلا غبشا لكنها تعرفها، وتعرف طبائعها جيدا.

خرجت ريّا من بيت الوادي، وقطعت الدرب إلى بيتها في خطوات كأنها الدهر.

«ماذا يعني ذلك؟ لماذا أرسلت البيبي هذه الصرّة؟ هل هذه طريقتهم في مسقط؟ يسيئون فيجرحون أو يستصغرون الخلق ثم يداوون بالعطايا؟ أي عطية تشفي جرح النفس؟».

دخلت ريّا إلى حجرتها، تركت الصرّة المصنوعة من قماش الأطلس الأخضر على الأرض بعض الوقت ثم غلبها فضولها فتناولتها، وتلمستها بأصابع مترددة، وقربتها من أنفها فشمت منها رائحة الياسمين.

فكّت عقدة الصرّة وفتحتها، فوجدت في داخلها مصحفا.

ابتسمت وهي تلمس غطاءه بفرح، وعيناها تكادان أن تفيضا بالدموع، كان مصحفا جميلا، غلافه أزرق، تزينه نقوش أغصان خضراء متشابكة وورود حمراء دقيقة الرسم، ومكتوب في وسطه وبخط لم تألف تشكيله من قبل «**قرآن مجيد**».

* * *

مزهوّا ببندقيته ومحزم الرصاص الذي يتصالب فوق صدره، لم ينتبه راشد لمرور علي، وعلي لم ينتبه لراشد حتى ارتطما كتفا بكتف.

ابتسم الرجلان لبعضهما بعضاً وتبادلا التحية، وتناشدا عن العلوم والأخبار وفي منتصف الكلام تذكر أحدهما الآخر، و«ضرابة» الفرضة والعتالين التسعة.

ابتسما ومشيا قليلا في الكلام ثم تفرقا، كل ذهب إلى وجهته.

منذ أن عُيّن راشد ضمن حراس الباب الكبير، وهو لا يتخلى عن بندقيته وصمته، يقف من بعد صلاة الفجر عند البوابة وقد ارتدى محزم الرصاص على دشداشته، وعلّق بندقيته على كتفه.

يقوم بعمله في تفقد العابرين نحو أرزاقهم خلف السور، أو أعمالهم في الفرضة، وما جاورها أو صوب الجمرك أو لأجل شكاياتهم عند السيد.

يقف مستقيم الظهر، بوجه جامد ولا يتبادل الكلام حتى مع رفاقه من العسكر إلا نادرا، ومع أن تعامله لم يكن خشنا، ومع أنه لم يوجّه بندقيته إلى صدر أحد، إلا أن مجرد النظر إليه في وقفته تلك وصمته والحكايات التي انتشرت عنه إثر «ضرابة» الفرضة، كان كافيا لبث الهيبة في قلوب العابرين فلا يلاطفه أحد، وهو أيضا لم يكن يحب ملاطفة أحد.

كان علي أول شخص يطيل معه الكلام ويسأله عن الأخبار والعلوم خارج بيت العود.

صارا يلتقيان كل يوم تقريبا، وفي يوم الجمعة كان يمر عليه في سبلة العود فيتناول التمر والقهوة مع أهل الحارة، ثم يذهبان للصلاة في مسجد الخور أحيانا، وأحيانا في مسجد علي موسى أو في مسجد الزواوي، وبعدها يذهبان في رحلات طويلة على الأقدام.

استكشف راشد حارات مسقط معه، كان يسمي له الأماكن فصار يعرفها: كلبوه، الجفينة، الدلاليل، ميابين، مغب، التكية، خلالوه، الصبارة، جبل السعالي، الوادي الصغير.

مشيا في بطون الوديان، وتسلقا الجبال حتى وصلا أبراج المراقبة التي تكشف مسقط من علٍ، وتحميها من غزوات القبائل. مشيا من ريام غربا إلى

حرامل والبستان شرقا، وصلا سد الوادي الكبير وجرّبا الوصول إلى قلعة بيت الفلج عبر طريق وعر تسلقاه بمشقة كبيرة، وعندما أشرفا على القلعة عادا فرحين بأنهما اكتشفا دربا جديدة تختصر المسافة بين مسقط وبيت الفلج.

أحيانا كانا يخرجان إلى ما وراء مسقط ويتجاوزان في المشي حتى مطرح ودارسيت، عرف مع علي سواحل كلبوه والبستان وحرامل.

في مشيهما كان يمشي الكلام، فسرد عليه تاريخ مسقط منذ أن وقعت بيد البرتغاليين إلى أن أصبحت عاصمة للسلاطين.

قص عليه تاريخ عائلة آلبوسعيد كما سمعه من أبيه، من أيام الإمام أحمد بن سعيد إلى اللحظة التي كان فيها السلطان سعيد غائبا في ظفار، من ورث من، ومن تآمر على من، ومن كان من سلاطينها قويا ومن كان ضعيفا، من تخلى عن الملك ومن تشبث به حتى الموت.

أخبره عن الاتفاقيات والمعاهدات مع الإنجليز وعن الإمام عزان بن قيس، حتى أنه مشى به نحو المكان الذي يقال أنه دفن فيه. أخبره عن السيد تيمور بن فيصل ومعاهدة السيب التي وُقِّعَتْ بينه وبين الإمام ووقع عليها المشايخ بدلا عنه، وعن تقسيم عمان لإمامة في الداخل وسلطنة على السواحل، وعن تنازل السلطان تيمور عن الحكم لابنه السيد سعيد ثم استقراره في بومبي، تاركا له خزينة خاوية، وبلادا يكسوها غبار الفقر من أقصاها إلى أقصاها.

تحدثا في مشيهما كثيرا، كل يحكي عن بلاده البعيدة. أخبره علي بأن والده تعلم في نزوى على يد الإمام والمشايخ الكبار، ثم أنه بعد أن ضاقت به الحال في (سيمات) هبط مسقط وعمل في برزة السيد في التدوين وكتابة الرسائل حتى توفي.

مشيا بمحاذاة السعيدية حيث درس علي حتى الصف السادس، وقص عليه تاريخ المدرسة، وطرائفها، والرفاق الذين زاملوه حتى تخرجوا من الابتدائية ثم تفرقوا في جهات الأرض بحثا عن علم أو عمل، أخبره عن مديرها الفلسطيني ومدرسيها شديدي الصرامة.

حكى له عن عمله في برزة السيد، وعن الكثير من الأحداث، والحوادث التي شهدها فيها، قص عليه قصصا عجيبة عن فقر الناس، والخلافات الصغيرة التي يتشاكون فيها، عن حكايات البانيان وتجار الأسلحة الذين كانوا يتخذون في الماضي من مسقط سوقا ومخزنا، عن شيوخ القبائل الكبيرة الذين يعارضون السلطان في العلن ثم يفدون إليه خفية طالبين منه العطايا.

كان علي يحب الكلام وكان راشد يجيد الإصغاء.

كانا يمشيان معا بظلين متباينين كتباين حجميهما، راشد بطوله وهيكله الضخم وعلي بقصر قامته ونحوله.

صارا صديقين، لكن راشدا لم يتخلّ عن حذره أبدا معه، ولم يحك له عمّا حدث لهم في السراير، لم يخبره عن جور عمه وظلم الأهل وغدرهم.

- في السراير كنت أشتغل في النخيل وما تعلمت، وأبوي كان مشغول بمجالسة المشايخ.

- لكن في العادة أهل العلم يحبوا يورثوه أولادهم، وما يضنوا به عليهم.

- ما ضن به، لكنه ورثه أختي. وريّا نبيهة، تلقط الحرف والكلمة وتتعلم بسرعة وما يفوتها منه شي.

- يمكن دعاك في النخل لأن ما حد غيرك يقدر عليه.

- نعم، لكن تمنيت لو تعلمت ولو القليل. الناس تشوفني فما يلقيوا غير

جثة، ما تعرف الكلام لكنها زينة للكد والتعب. أنا الشغل ما يتعبني، أشتغل عن عشرة رجال وما أتعب، لكن كان زين لو تعلمت القراية، ولو شوية أكثر عن سور الصلاة، ولو القليل من سور القرآن وشي من الحديث.

خطر له:

«لو كنت أعرف القراءة ما اطمأن عمي لجهلي وما كنت صرت أضحوكة المجالس في البلاد».

- لكن بعدك تقدر تتعلم.

ضحك راشد من الفكرة، ثم قال لعلي ساخراً:

- بتدخلني السعيدية؟

- ما لازم السعيدية، أنا أعلمك، سنة أوسنتين وبتعرف القراية والكتابة.

- أنت بتعلمني؟ وتو عاد؟ أنا كبرت يا علي والفواد شاب.

- يقولوا الفواد أبد ما يشيب لا عن العلم ولا عن الحريم، وفوادك بعده طري وما أظنه شاف شي.

ضحك علي لكن راشدا لم يضحك، هو لا يعرف ما رآه ولا ما مر به، لا يعرف كم السنين التي سقطت عليه في أيام حبسه في زنزانة الوالي، الأيام التي أنضجته كما لم تفعل سنون الزراعة والكدّ في مال أبيه.

كان علي عند وعده وعلّم راشدا الكثير، ليس فقط القراءة والكتابة، بل علمه الحساب وشيئا من الشعر.

حفظ راشد القرآن وتعلم النحو بيسر شديد، يحفظ الشعر وكأنه يستعيده من الذاكرة. يقول له علي: «أبوك عطاك العلم من غير ما يعلمك، وكأنك مولود به».

أحب التاريخ كثيرا، أعجبته القصص والحكايات، لكنه لم يفهمه، قال لعلي:

- تعجبني الأخبار لكني ما أفهم كيف تعرفوا كل ذا وتصدقوه وتخبروا به وكأنكم شفتوه بعيونكم وحضرتوه؟

- ما حد شاف ولا حد شهد، هي روايات نقلوها الناس عن بعضهم بعض ونقلناها عنهم، الواحد لا بد يعرف التاريخ. خبرني كيف هتعرف على هين أنت ساير إذا ما عرفت من هين أنت جاي؟ التاريخ دروس، وبو استوى أمس لابد يعود ويستوي باكر.

- ما أظن، هذا الكلام ما يدخل راسي، ما يستوي الوقت يرد على ورا، لا أنا ولا أنت ولا الدنيا هترد على ورا، الدنيا تمشي على قدام، بس على قدام.

كان راشد يعرف من أين أتى، ويعرف أنه لن يعود إلى هناك، لن يعود مهما كلفه الأمر.

* * *

هو لم يعرف ريّا؛ لكن كلام راشد عن العلم الذي تلقته عن أبيها وعن إجادتها القراءة والتجويد هو الذي أشعل صورتها في خياله، ثم رآها.

كانت تمشي باتجاه بيتها، تحمل إناء ماء على رأسها وآخر على خاصرتها، برأس مرفوع وخطوات متوازنة، تمضي بما تحمل غير عابئة بوطأته، عيناها تسبقان خطوتها ووجهها أحمر من شدة الشمس والتعب.

وكان هو متجها إلى بيتهم ليمر على راشد فيخرجا للصلاة معا، كانا يقتربان من البيت من اتجاهين متعاكسين، هو من جهة ميابين وهي من جهة الطويان العلوية، لمحها فغضّ بصره وتوارى تحت ظل أحد الأكواخ حتى غابت داخل البيت.

في تلك اللحظة عرف علي أن ريّا ستكون زوجته.

شغلته صورتها حتى ظن أن وجهها قد رسم في عينيه، كلما أغمضهما تبادت له في مشيتها تحت وطأة ما تحمله من ماء، وكلما فتح كتابا تراءت له في الحروف كنقطة تُغيّر مكانها في كل حين وتخاتله، وكلما سن قلمه للكتابة سال حبره باسمها.

ما عاد يرى سواها، سأل نفسه إن كان هذا هو الحب كما تغنى به الأولون؟ هل هذا هو ما شغل الشعراء عن أنفسهم حتى جنّوا بالهوى؟ هو لا يعرف ما هو الحب، لم يجربه ولم يخبره من قبل.

لذا عندما تقدم لخطبة ريّا لم يسأل نفسه إن كان يحبها، لم يفكر في الأمر كثيرا وهو يمسك راشدا من ذراعه فجأة وهما يرتقيان عقبة ريام متجهين إلى مطرح ويسأله بلهفة: «تزوجني أختك؟».

بوغت راشد بتصرف صاحبه وبطلبه، فلم ينطق بل استدار وأدار بصره في حارات مسقط تحته. حار في الإجابة، ريّا لم تعد صغيرة، في سنها للنساء بيت وزوج وأطفال.

كان يعرف ذلك، ويعرف أن رفيق خطواته رجل طيب ويخاف الله، لكن هل تقبل ريّا؟

طمأنه ولكنه طلب مهلة في الرد حتى يسألها، ثم أكملا طريقهما في صمت على غير عادتهما.

كان لعلي أحلامه ولراشد ما يشغله، لم يفكر قبل اليوم في ريّا خارج بيته، أن تعيش أخته مع رجل آخر وتخدمه وتنجب منه، رجل قد يؤذيها بكلمة أو تجرحها منه إشارة.

عندما عاد راشد ذلك المساء إلى الدار، وقبل أن تضع أمامه العشاء، طلب

منها أن تجلس وتسمعه: «أنت حرة بنت حرة، وأبوي قال أنش محرمة بس على الظُّلام، وعلي رجل متعلم وطيب ويخاف الله، ويشتغل كاتب في برزة السيد، ووحيد ما يله حد في مسقط، ووارث بيت في ميابين. وأنا عسكري ويمكن يجيني أمر، وأتحول وأسكن مع العسكر في الميراني وبتبقي هنا وحدش».

لم تعرف ريّا عليًا؛ لكن أعجبتها سيرته على لسان أخيها، لذا كان كل ما فعلته عندما شاورها أخوها في أمرها أن أطرقت ثم طلبت منه مهلة للتفكير.

شاورت ريّا العودة فيما عرضه عليها أخوها فشجعتها وقالت لها: «الحرمة ما يلها غير بيتها، وأخوش باكر بيتزوج وبتستوي كما الغريبة فبيته».

بعد واحد وعشرين يوما حددت منزلة نجم السعد في السماء، فعقد العود قران علي على ريّا في مجلسه، وبحضور أبنائه ورجال الحارة شهودا، ثم أدار ربيّع إناء الحلوى وفناجين القهوة بينهم، فتناولوا الحلوى، وشربوا القهوة، وباركوا لعلي، وتمازحوا كعادة الرجال، ثم تفرقوا.

راشد لم يحضر العقد، أمر العود بعقد نكاح أخته ثم غادر الحارة، أخذ طريق الوادي حتى وصل عند السد فجلس يتأمل البلاد تحته، ويفكر في ريّا التي صارت الآن لرجل غريب، وغدا ستصبح أما لأطفال كثر فيتكاثر ظلها على الأرض.

كان مهرها مائة قرش، وسوارين من الفضة، وحرزا بسلاسل تنتهي بأجراس صغيرة صامتة من الفضة المذهبة.

قالت نساء بيت الوادي أن ذلك كثير، لكن ريّا لا تعرف قلة الأشياء وكثرتها، ولم تكن لتهتم، كان كل همها أنها ستترك أخاها وحده. في سرها تمنت لو تزوج راشد أيضا، النساء كثيرات كما تقول العودة، لكنه كلما طرقت باب الحديث حوله صدها بصمته دون أن يبدي لها سببا فترتاح.

اجتهدت نساء بيت الوادي في تجهيزها، أوصين لها على أقمشة العرس من سوق مطرح، وقمن بخياطة ثياب لها بأيديهن السريعة الماهرة، ثم زرن جاراتهن البلوشيات، وساومن على ثمن نقش السروايل بورودهن الملونة، وصناعة خليط الصندل والزعفران الذي ستدهن به قبل عرسها فتصفو بشرتها وتلمع، ثم تجمعن حول المدقات والمراجل، وأذبن السكر فيها، وأسقطن الطيب والورد وخشب الصندل والعود والظفر، وصنعن لها العطور والبخور الذي ستزف في غمامته.

انشغلت ريّا قليلا بالاستعداد للزفاف؛ لكنها كانت تقضي غالب وقتها في حجرة العودة، تقرأ لها وتسمع منها، وكانت العودة كريمة في الحكايات والوصايا، تعلمها كيف تعالج الجرح، وتضمد ما سيأتي من أيامها مع علي بالصبر، حكت لها في ذلك حكايات كثيرة وضربت لها الأمثال التي ورثتها واخترعت لريّا ما يليق بها من الحكم.

كانت ريّا تصغي وكان قلبها يرتجف، فهي لم تعرف حيل النساء من قبل، ولم يكن لها أمٌّ لتتعلم على يديها كيف تعمل على ما تريد بصبر، ومدارة وواسع حيلة، وتمنت في أعماقها أن لا تحتاج لأي من هذه الدروس، تمنت أن يكون علي طيبا وكريم خلق، ويخاف الله فيها تماما كما وصفه لها أخوها.

في الزفاف خرجت النساء من الطويان والحارات المجاورة، تقودهن مثلى في الغناء نحو ميابين حيث كان لعلي بيت صغير من طين تتوسط حوشه بيذامة وارفة.

كانت نساء بيت الوادي ومن رافقنهن يجدن الاحتفال، كن كمن ينتظر فسحة فرح فيشغلها حتى أقصاها، يغنين في الدرب من الطويان إلى ميابين دون أن يتعبن من ترديد الكلام في اللحن الطويل الممتد في آخره.

«زفيناش من القبلة وجينا

شعاع الشمس يو نور المدينة

زفيناش والمصحف معانا

نردد حمد رب العالمينَ».

يمشين بها في الغناء، وهي تمشي في شالها الأخضر، وفي حركة النساء وتدافعهن، تثبّت مثلى المصحف بكفها اليمنى أعلى رأس ريّا ليحميها من كل عين شاردة ونية سيئة.

موكب عروس يحفه الغناء وتماشيه نساء الحارات المجاورة وأطفالها، موكب يكبر بازدياد الخطوات فيه وتكاثر الغناء.

لا أحد يسأل من العروس ولا أحد يهتم للعريس، يلتقط الفقراء الفرح أينما وجدوه ويسيرون فيه حتى أقصاه.

يمشون في الدروب المعفرة، لا أحذية للفقراء، لكن من يهتم بالدرب إن كان الفرح حاضرا، من يهتم بالمسافة عندما يحفها الغناء؟

تصل ريّا إلى بيت زوجها، مغلفة بالأخضر، والريحان، وغناء النساء.

يصلن إلى عتبة الدار فيرتفع الضحك، وأصوات النساء:

«قوم تبشبش يو غلام

قوم تبشبش يو غلام».

عند العتبة قامت النساء بطقس الدخول، وكان على علي أن يضع إبهام قدمه اليمين جوار إبهام قدم عروسه.

تفكر ريّا أن هذا ليس طقس عرسهم في البلاد، في البلاد طقس العرس بسيط، عروس تدخل بيت زوجها في هدوء، وللرجال الغلبة في الأهازيج،

رزفة ورزحة ولمعة سيف تحت الشمس وقفزة الحماسة في الهواء.

لكنهم ما عادوا في البلاد وعليهم في مسقط أن يكونوا كما يحب أهل مسقط أن يكونوا في طقوسهم.

إبهامه جوار إبهامها، يتلامسان لأول مرة فتسري في جسديهما رعشة خفيفة.

للمكوبرة الكلمة الأخيرة، هي سيدة المكان، تأمر علياً بما يفعل حتى تحل البركة عليهما ويكون لهما نجم عال، وعلي يصغي مطرقا خجلا لكنه ينفّذ دون سؤال.

شوانة بنت خليفة مكوبرتهم التي اختارتها العودة بعناية شديدة، «امرأة كاهنة» هكذا تصفها نساء بيت الوادي، خبيرة طقوس العرس، وأسرار النساء، وليلة الدخلة، حافظة السر، تعتني بزينة العروس، وتخدم المعاريس طيلة أيام العرس الثلاثة.

اختارت شوانة من الحاضرات امرأة معروفة بحسن الطالع، وحب زوجها وتقديره لها لتدوس على الإبهامين، فيصيب العروسَ بعضٌ من حظها.

كسرت بيضة العرس على الإبهامين فاختلط بياضها بصفرتها وسال، وعندما غسلتا كان إبهام ريّا يعلو إبهام علي.

أعلنت شوانة بضحكة عالية: «ريّا تغلب». ففرحت النساء، وتعالت الزغاريد.

لعروسه السيادة إذن، ابتسمت ريّا تحت شالها وما مانع هو. تجاوزا العتبة ودخلا. كان عليه أن يصلي ركعتي الشكر، وأن يقرأ آيات من سورة النور على رأسها المغطى بالأخضر قبل أن تخرج النساء من الغرفة، ويتركنه ليكشف عن وجه عروسه.

أنهى صلاته فغادرت النساء، أخذن أغانيهن وضحكهن، وذهبن، وأخذ الأطفال ركضهم وصياحهم، وذهبوا مع أمهاتهم.

لكن شوانة لا تغادر العتبة حتى ينقدها علي قرش الخمار، وعندما فعل همست له: «هاالله هاالله في البنية».

6

أعطاه الرسالة وقال: «سير عند الوالي، قول له حملني عمي سلام كثير، وناوله الخط وانتظر منه الجواب».

ركب راشد ناقته وانطلق دون إبطاء.

هو عمه، شقيق أبيه، وهما ورثة مشيخة العوايف، تربيا معا في حلقات الدرس بنزوى على يدي الإمام والرجال الصالحين من حوله، تعلما القرآن والفقه والحديث، ثم تعلما على غيره من المشايخ أسرار الخط، وتفسير وقوع القمر في منزله.

عادا إلى البلاد مشفوعين بعلمهما، وحسن أدبهما، وتزكية المشايخ ليقيما حلقات العلم، ويوزعا بصيرتهما، وعلمهما على الدارسين، كان لهما العلم والكلام والرأي والقدرة، لكن كان لكل واحد منهما نهجه وطريقته.

«نصحته، لكنه ما سمع مني، قلت له: نحن طلاب علم ودين ما طلاب دنيا ومال، قال لي: أنت اجلس في المسجد واعطيني المشيخة، قال لي: أنت ضعيف ما تقدر عليها، قلت له: خذها، ما لي رغبة في الأمر والنهي ورقاب الخلق. لكنه تجبر وظلم وأفسد، أخذ مال الناس غصب، وقبل شهادة الزور،

أدنى الفُساد، وأبعد أهل النصيحة، نسى العلم ونسي ربه، والآن يطلب أزوجه ريّا؟ يقول أنا أخوك وهذا ولدي ولدك، وولده مثله لا خوفة من الله ولا خشية. وأنا حلفت بالله رب العرش العظيم، ريّا ما تكون تحت ظالم ولد ظالم، ولا تولد الظلم من الظلم، قلت له: أنت تو استويت شيخ فسير زوج ابنك بنات الشيوخ، وخلي ريّا على مصحفها وسجادتها وصلاتها».

توفي أبوه ولم يزوج ريّا لحميد أكبر أبناء عمه، بقيت حلفته تتردد بين جنبات الوادي، يذكرها الرجال في مجالسهم وتؤمن عليها النساء.

يقولوا: «أبوها ضن بعلمها ومالها وجمالها. وورثت الكثير، والعم طماع، يقول قدام الناس باغنها حرمة حال ولده، وهو يريد ورثها، وكسر كلمة أخوه».

راجعه عمه مرات في زواج حميد من ريّا، وعده بتزوجيه ابنته صفية في المقابل، ثم هدده بانتزاع نخيل أبيه من يديه غصبا، فلم يأبه.

رد عليه «النخل موروث والجميع يعرف، وما يقاسمني في ورثي غير ريّا، وحلفة أبوي حية ولو مات».

لكنه لم يكن يعرف أن لعمه ألف حيلة وحيلة، وأنه منذ أن اختار الدنيا والمشيخة اختار مركبا صعبا.

داهنه عندما رأى عناده وأدناه منه في المجلس، ثم أعطاه الرسالة إلى الوالي وقال له: ما أستأمن عليها حد غيرك، خذها، وسلمها الوالي يد بيد.

سلم راشد الوالي الرسالة فوجد نفسه محبوسا في زنزانة الحصن.

قال له الوالي: عمك أمر لك بحبس لأنك قحمت بيته، أنت ولد سيف بن راشد العايفي، ولد الشيخ سيف بن راشد! كيف تقحم بيت عمك على خادمة؟! صدق إنه يطلع من ظهر العالم فاسد.

أمر الحارس الواقف عند الباب باقتياد راشد مذهولا إلى السجن.

في السجن تبدل ذهوله غضبا فصار يغلي، لم يضع الحراس الحديد في قدميه، لكن عمه وضع في قلبه جمرة لا تخمد.

تمنى لو أنه اتهمه بالسرقة أو بالقتل، تمنى لو أنه أقام عليه الحد ولو زورا، لكن أن يتهمه بالدناءة، وكشف عورات البيوت، ففي ذلك ما لا يصدق من الخسة.

خادمته؟

يقتحم بيت عمه ويتسلل بغية الخادمة!

كان يقصدها، كان يعرف أن الناس ستذكر ذلك دائما، أراد أن يجرده من شرفه، ويسقط وجهه بين الناس.

يقتحم بيت عمه لأجل جارية، عرف عمه كيف يرتبها في طبقاتٍ من الإهانة وكيف يجرده من أهليته تماما.

أحس بدمه سائلا لزجا يفور كالحمم.

في السراير كان عمه يجهز لوليمة زفاف ابنه على ريّا، الكل كان يعرف ظلم العم، والكل سكت عن حبسه، والكل كان مستعدا للشهادة على عقد الزور.

كلهم كانوا يعرفون أن ولد سيف بن راشد لا يتعدى على حرمات البيوت، ما سمعوا عنه إلا الخير، وما شهدوه إلا في الضواحي بين نخيله أو في سبلة أبيه مصغيا لما يقوله الكبار ولا يقاطع أحدا.

لكن يمكن... يجوز...

«ريّا ما تكون أبدا تحت ظالم ولد ظالم».

قال أبوه.

الكل كان يعرف ذلك أيضا، ويعرفون مقصد المقال، لكنهم خافوا بطش العم وظلمه الذي لم ينجُ منه أحد.

اطمأنوا لغياب راشد، كانوا يعرفون أن من يدخل سجن الوالي ينسى فيه، وعمه سيحرص على ذلك، وكانوا يعرفون راشدا أيضا وكانوا يخافونه، يخافون قوته وغضبه.

عندما لم يدخله أبوه حلقات العلم، قيل إنه كان يخاف من اجتماع قوة الجسد وقوة العلم فيه، تندر الرجال بحسد: راشد من غير علم يشل الحصاة بو ما يقدر عليها عشرة رجال بيد، ولو معه شوية علم كان نقل فلج العالي من مكانه وطيَّر به لزنجبار.

وكانوا يعرفون ريّا، يصفون بياضها فيقولون: كأنها شحمة في دم. وإذا ما خرجت مع صويحباتها وقف الجميع لحسنها، كانت النساء يحسدنها على بياضها المشوب بحمرة عند الخدين، وكانت دقة أنفها ورهافة عودها واستقامة مشيتها؛ تجعل الرجال يغضون أبصارهم تعففا وخشية أن يتطاولوا على ما لا يستطيعون مقاربته.

قالوا في القرية إن أباها قد نذرها للعلم ونذر راشد للنخل، وأشيع في القرية أنها قرأت كتب الأولين، وأحاطت بأسرار الحروف والأرقام، ومواضع النجوم.

خافوا منها، كان لها علم أبيها وحسن أمها؛ سليمة بنت علي الساعدية، بنت «القلعة» التي تزوجها الأب في صلح بين القبائل، ففتنته بجمالها، وقوة شكيمتها، وصلابة عزيمتها، قالوا: «بنت السواعد تحمل التفق كما تحمل الحريم الرضيع، ويوم غار عليهم أولاد حمد ورجالهم في الجبال، وحدها

سكبت عليهم مراجل الدبس وهو يغدق[20]، ووكبت[21] بوابة الحصن بظهرها، وخرجت البوعشر[22] من سبلة أبوها، ونفذته في صدور رجالهم».

لكنها ذبلت في السراير.

رغم أنها لم تكره زوجها إلا أنها لم تحبه، شعرت بأنها غرس في غير محله، أوهنها الحنين إلى بلادها، شعرت بأنه قد تمت التضحية بها لأجل صلح هش بين قبائل لا تعرف إلا القتل والغارات، تحملت ميلاد راشد وتعلقت به، لكنها ما لبثت بعد ولادة ريّا إلا شهرا في الفراش ثم رحلت في حمى النفاس.

راشد ابن ثلاث سنوات وريّا تصرخ في أقمطتها، لكن سيف بن راشد لم يرد الزواج بعد الساعدية، كان قلبه بين كفي ريّا الصغيرين، فلم يشأ أن يكدر خاطرها ظل زوجة أب.

صار أمها وأباها ومعلمها.

وكانت وردة السراير، كان يعرف ذلك، فحصنها بالقرآن، وشغل قلبها به.

كانوا يقولون لو مشت ريّا على ساقية الفلج؛ يسيل وإن كان ماؤه غائرا في شدة القحط، ويقولون كانت تعقد عزمها، وتغمض عينيها وتستدرج السحاب فتفيض البلاد ماء وخضرة.

الجميع كان يعرف ما لريّا والجميع ما كان يعرف، حجبت بغلالات من الكلام الكثير والأمنيات.

---

20. يغدق: يفور من شدة الحرارة.

21. وكبت: أسندت.

22. البوعشر: نوع من البنادق.

عرفوها في الكلام لكن لم يعرفها أحد.

خطبوها وهي لم تتجاوز الحادية عشر، شيوخ القبائل تسامعوا بعلمها وجمالها فجاؤوها من كل مكان خاطبين.

قال أبوها أمرها بيدها وهي لم تقل «نعم».

تواتر رفضها حتى شاع، فقيل منذورة لابن عمها، وعندما جاء عمها رفضه أبوها دون الرجوع إليها كما كان يفعل عادة.

قالوا: البنت عنيدة وعاجبنها غواها[23].

قال: بنت الحرة حرة، وما يدخل عليها إلا بو ترضى به، وتطيب نفسها له.

* * *

لم يظن أهل السراير أنه سيخرج من سجن الوالي، لكنه خرج.

نسوا أن لنسبه فرعين، واحد لهم وآخر عليهم.

بعد أيام وصل خبر حبسه لأخواله العائدين فجرا من غارة على (أولاد حمد)، فما لمست أقدامهم الأرض، أطلقوا شرارة الغضب فطارت بهم الخيول.

متحزمين بخناجرهم ومحازم الرصاص والبوعشر معلقة على أكتافهم، وصلوا الرستاق قبل صلاة الظهر، عشرون رجلا أحاطوا بالمكان. ترجل ثلاثة من أخواله، ودخلوا على الوالي دون استئذان إلا ما سبقهم من لعلعة الرصاص في الهواء.

---

23. غواها: جمالها.

دخلوا فوجدوا الوالي في مجلسه، والرجال من حوله، وفناجين القهوة عالقة في الفراغ بين أطراف أصابعهم.

سليمان وخليفة وسعود، أولاد علي بن غصن الساعدي، مشايخ السواعد، لم يشهروا خناجرهم ولم يصوبوا بنادقهم، بل سلموا على الحضور كما يسلم الضيف، فقام لهم الوالي والرجال، ناشدهم عن الأخبار والعلوم، وهو يعرف أخبارهم وعلومهم، فجاوبه سعود أكبر أخوته:

- ما معنا لا علوم ولا أخبار، ولدنا عندكم ونبغاه معنا.

الوالي يعرف رجال القلعة ويعرف غضبهم، يعرف معنى الخنجر والبندقية ومحزم الرصاص وحمرة العين.

- الولد ولدكم وولدنا، لكن عمه آمر له بحبس.

- تفاقتنا على ظهورنا وخناجرنا في محازمنا ورجالنا محاوطين المكان، فخلوا ولدنا بالحسنى ولاّ نزعناه من تحت يدينكم غصب.

كان تهديدهم واضحا وتحديهم صريحا، وهو يعرف أنه لا طاقة له بهم، لكنه الوالي وعليه حفظ هيبته أمام الرجال:

- تتعهدوا به؟

برقت عينا سعود بالغضب، فكسر الوالي نظره، وأمر عسكره بإخراج راشد من الحبس.

ليس بحاجة لعداء بني ساعد، فليكن بينهم وبين عمه ما يكون. الولد ولدهم، وبينهم وبين العوايف ثارات قديمة، وحرب ما هدأت إلا بزواج الشيخ سيف من أختهم قبل سنين طويلة.

أطلق العسكر راشدا فانطلقوا به، وعاد الوالي إلى الرجال في سبلته

مطرقا وألف فكرة وفكرة تدور في باله، كيف لم يخطر له ذلك؟ كيف لم يفكر في وصول الخبر إلى أخواله في القلعة، أخواله الذين يأنسون لخيلهم أكثر من نسائهم ويستلذون الرصاص أكثر من التمر؟

كيف نسي من يكون حامل الرسالة الذي ألقاه في الحبس دون سؤال، كيف نسي ابن من يكون، ومن هم أخواله؟

لكنه لم ينس، الرسالة من عمه.

هل صدقها؟ ليس بحاجة إلى تصديق ما جاء فيها، شيخ تميمة العوايف عمه، شقيق أبيه، وهو الذي أمر له بالحبس وذلك يكفي.

بعد مسير قليل على ناقته وأخواله يحاذونه بالخيول، مال راشد إلى خاله سعود:

«كان ما خاب ظني، ما أمر عمي بحبسي إلا وهو ناوي يزوج ريّا غصب، وإذا بعده ما ملك ولده عليها فما داير يتأخر».

بدّل بناقته فرس أحد أبناء أخواله وانطلق، مضى أمامهم إلى السراير وهم في أثره، وصلوا القرية فصاروا يطلقون الرصاص في الهواء معلنين وصولهم.

بينهم شعر بالعزة، هو الآن بين أهله وعزوته، هؤلاء هم الرجال ردّد في قلبه، الرجال ذوو البأس، الذين يسكنون إلى بنادقهم، ولا يثنيهم شيء عن مطلبهم.

القوة هي كل ما يفهمه أهل هذه الجبال، إن كنت وحيدا هنت وظلمت، وكسرت حتى من أقرب الناس إليك.

أحاط أخواله وأولادهم ببيت عمه.

دخل سبلة عمه مع أخواله فوجد الرجال شهودا على عقد زواج ابن عمه على أخته وابن العم يكاد يقول: «نعم، قد قبلت».

وضع فوهة البوعشر في صدر عمه، ووضع خاله سعود خنجره على رقبة ابن العم، بينما وجه سليمان وخليفة بنادقهم إلى صدور الحاضرين، والناس سكوت.

وجه الكلام إلى عمه «ريّا أختي وأنا وليها ما دامني حي، وأنا حي وما يمنعني عنك شي، اتهمتني بحرمة بيتك وأنا بري من تهمتك والله شاهد، وأنت وجميع الحاضرين تعرفوني، وتعرفوا من أبوي. ظلمتني وأردت تاخذ اختي غصب كما أخذت البلاد والناس وكل بو فيها غصب، وكلكم تعرفوا أن أبوي محرم ريّا على الظُلام، وأنت ظالم وولدك ظالم ولد ظالم».

ثم استدار ووجه كلامه إلى الحضور «ريّا أختي وأنا وليها، وهي محرمة عليكم كلكم رجال السراير، والنخيل مالي ومال اختي، وبدعيه يموت وهو واقف في مكانه، ولو سمعت أن واحد منكم قرب صوبه ما أيلقى غير خنجري في نحره، ولا تحسبوني بعيد ولو بعدت، أنا تراني من اليوم كما الموت في رقابكم».

خرج من بيت عمه دون انتظار جواب لما قال فتبعه أخواله ظانين أنه سيصحبهم إلى القلعة، لكنه ما إن ركب ناقته حتى التفت إلى أخواله وقال لهم «أبوي أخذ أختكم، وطفَّى الحرب بي وبأختي، وما أريد اليوم نكون نحن فيها النار، أتشيّمكم[24] تردوا القلعة، وأنا واختي بنودّر[25] السراير، والرستاق كلها حتى ما تستوي بينكم فتنة».

---

24. أتشيمكم: أرجوكم.

25. نودر: نترك.

أرادوا منعه، قالوا له: «نحن أخوالك وأولى بك»، لكنه كان قد عقد عزمه، ولن يقدر على ثنيه أحد.

* * *

ركب وريّا الناقة وعبرا.

ربط حبل الليف حولهما، خاصرتها بخاصرته، ولم يلتفت.

خاض بها وادي العواقب في فيضان سيله، صرخ الناس به أن يعود، فمسد عنق راحلته وقال: بنت الخواضة تخوض.

تحتهما السيل جارف، والناقة تخور.

التفت إلى ريّا ليهدئ من روعها:

«ما شي بد، نخوض، ويا نوصل رباعة يا يشلنا الوادي رباعة».

فقالت: توكل على الحي الذي لا يموت... وتمتمت بكلام لا يعرفه.

عبروا... بنت الخواضة تخوض، وريّا بنت سيف بن راشد العايفي وسليمة بنت علي الساعدي، بنت العلم والقرآن ولمعة الخنجر لا يطؤها ظالم ابن ظالم، كان عليه أن يبرّ بقسم أبيه ولو كلفه ذلك حياته.

7

وقف راشد عند الباب الكبير يحرسه، يراقب الناس، ويتعلم طبائعهم. بسرعة تعلم من علي القراءة والكتابة، وحفظ القرآن، وشيئا من الشعر، أحب الكيذاوي وابن شيخان، تعلم الحساب، وعرف تاريخ مسقط وطرائف حكايات أهلها، وصار يوما بعد يوم يشعر بأنه ابنها، وأنه ينتمي إليها وإلى تاريخها وقلاعها وسورها ومساجدها وسكانها المختلطين.

تمنى لو ينسيه ذلك السراير لكنه ما نسي، كانت تأتيه في الحلم وتغويه بظلال نخلها وبرودة مائها.

بعد مدة أخبره علي بأن حديثا دار بين السيد ورئيس الحامية، وأنه اختير ليصبح عسكريا في حامية مسقط، وأنه سيلبس بدل الدشداشة القميص الخاكي والبنطلون القصير وسيعتمر (البيريه) العسكرية الحمراء، تماما كتلك التي رأى الجنود الواقفين في حراسة قلعة بيت الفلج يعتمرونها.

ما طال به الأمر حتى ترك راشد بيته في الحارة، وانتقل ليقيم مع الحامية في قلعة الميراني، تشارك والجنود البلوش الطعام والفراش، تخلى عن حذره، وصمته تدريجيا فاقترب منهم، وعرف طبائعهم، التقط منهم الكلمات

البلوشية فصار يفهمها جيدا، وعندما تجرأ ونطق بعضها ضحكوا عليه لكنه هذه المرة لم يبالِ، شجّعه كبيرهم (مال الله شيران) ليتجاوز سخريتهم، ومع الوقت صار يتكلمها مثلهم أو يقاربهم.

لانت له اللغة فلانوا له، عرف حكايات بلادهم، عرف مكران وقراها المعلقة على سفوح الجبال، عرف أغاني جواذر وجيواني وبسنة الناعسة على البحر، وعرف طبائع أهلها وقبائل مقاتليها المنتشرة عبر سلاسل الجبال، عرف فقرها وجمال نسائها عندما يتغنون به في قصائدهم.

يقف مساء على سطح الميراني فيرى الجلالي بوضوح، بينهما خليج صغير يتوسط شاطئه قصر السلطان بشرفته العريضة، ونوافذه الخضراء، وإلى جانبه مقر القنصل العام البريطاني بعلمه الذي لا تخطئه العين، ولا تستطيع تجاوزه.

يصل بنظره إلى باب الجلالي ومدافعه الرابضة، ويتخيل فريقين متنازعين كلٌّ يحتل واحدة من القلاع، وكلٌّ يقذف القلعة المقابلة بنار مدافعه، يتخيلهما أخوين تخاصما على الملك، كل واحد يريده له، وبينهما هذا البحر برزخ من دماء.

يهش خاطره ويتأمل سماء مسقط فيرى من مكانه أعلى القلعة علمين، قطعتين من القماش المصبوغ ترفرفان، وتعلنان عن حضورهما بشيء من القلق، علم السلطان والعلم البريطاني.

بينه وبين الجلالي مسافة آمنة تبعده عن رعب ذاكرتها وحكاياتها، حكايات الذين دخلوا ولم يخرجوا منه أبدا أو الذين خرجوا مشوهي الروح والجسد، أو أولئك المحظوظين الذين خرجوا ووشم الأغلال علامات ذل في كواحلهم مدى الحياة.

القصر على يمينه، والجلالي أمامه ومسقط مؤمَّنة، بسورها وبواباتها وأبراجها، مع ذلك تساءل راشد: هل هي آمنة فعلا؟ هل استطاعت كل هذه التحصينات أن تحميها؟ كيف سقطت إذن في يد الإمام عزان بن قيس ورجال القبائل؟

لم يكن العربي الوحيد في الحامية لكن الغالبية كانت من البلوش، أخبره علي أن السلاطين كانوا يشترون العبيد ويجندونهم أو يحضرون عسكرهم من جوادر ومكران في بلوشستان، قال له إن جوادر ملكا لهم، وإن رجالها أقوياء ومخلصين في ولائهم للسيد، أخبره أن اليعاربة هم أول من استعانوا بهم لتعزيز جيوشهم الضعيفة المكونة من رجال القبائل الذين ما كانوا لينتظموا إلا تحت ألوية قبائلهم وشفها.

الضابط السيخي (سر ادارات سنج) المعار من الجيش البريطاني في الهند، كان مدربهم على الانضباط، وحمل السلاح، وكيفية تفكيكه والعناية به، كان قاسيا في التدريب وصارما، وراشد الذي لم يعرف صيغة الأمر إلا من أبيه كان ينفر منه في البداية، ثم تعود مع الوقت تنفيذ الأوامر دون سؤال.

في ميدان الرماية بالقرب من بيت الفلج، كان يشرف عليهم اللافتنت (جون هاكسلي)، ضابط إسكتلندي ضخم البنية، سريع الحركة، كث الشارب، له لحية لم يطلها التشذيب منذ زمن، أنفه دائم الحمرة، وبشرته مسفوعة بشمس مسقط.

كان الجنود البلوش يجتهدون في التصويب أكثر في حضرته، (وسرادارات سنج) ذو الشارب المفتول والعمامة البيضاء يصبح أكثر صرامة أثناء وجوده. يعرف أن مفتاح العسكرية بيد الضابط الإنجليزي، وأن رضاه عتبة الوصول إلى الترقية.

البلاد في أيديهم، هكذا قال له علي: «موقعين معهم اتفاقية حماية، والعسكر كذلك تحت أيديهم ولو ظن الواحد أنهم في يدين السلطان».

* * *

في 1952 احتلّ بن عطيشان الحماسة فتحركت حامية مسقط باتجاه فلج القبائل.

خرجوا من بيت الفلج باتجاه الباطنة، حُمِلَ راشد ورفاقه في شاحنات البدفورد المفتوحة على الريح والغبار، مضوا في دروب لم تعبدها إلا حركة سيارات الجيش، وبعض سيارات البيك أب الناقلة للمسافرين.

في المقدمة يجلس الضباط الهنود بجانب السائقين، وفي مؤخرة الشاحنات يجلس الجند وعتادهم من حولهم، غارقين في صخبهم بالعربية أو البلوشية التي يتكلم بها غالبهم أو الأوردية التي يتلقون بها الأوامر، قضوا ساعات طويلة تحت الشمس دون حجاب يمنعها عنهم.

صامت كعادته، يراقب حركة الجبال والسيوح التي تمر بها الشاحنات، تذكر أول خروجهم من السراير، نميصة تمشي على مهل بهما، وهو غاضب يريد الخروج مستعجلا إلى مسقط، في قلبه جمرة وهي بطيئة خالية القلب والبال.

يتذكر شجاعتها وجرأتها في الماء، واستكانتها بين يديه عندما يمسح على عنقها، ويتذكر نظرتها المعاتبة عند الفراق.

تمرّ الجبال سريعا في البعيد، الغبار يتصاعد من حولهم فيلفون وجوههم بأطراف مصراتهم، يحكمون لف الغطاء على أنوفهم وأفواههم، محتمين من الغبار الكثيف الذي تثيره حركة العجلات في التراب.

يراقب مرور البلاد، بلدة وراء بلدة، وقرية وراء قرية.

يضع قلبه على الخريطة، ويتذكر السراير، لم يعد يشعر بالغضب، لكن مروره بالمكان يشعره بالانقباض، وكأنما الغضب إذا ما تقادم تحول حزنا، والحزن إذا ما فقد حضور السبب؛ يصير عقدة تقبض النفس.

وجه أبيه يتشكل في الغبار، يراه عائدا من المقبرة أعلى السراير حيث دفن أمه، أمه التي أوهتها الحمى، فما عادت تغني له حتى ينام عند بطنها مطمئنا لرائحة الورس في شعرها.

كم كان عمره؟ ثلاث سنوات وريّا لم تبلغ الشهر بعد.

عاد أبوه من المقبرة ولم يعد.

رجع إلى البيت فوجد ريّا في حضنه تبكي، وهو لا يعرف كيف يسكتها، تناولها من بين يديه، وأسلمها لامرأة من جاراتهم لترضعها.

ذهبت الأم في الحمى فغاب أبوه في الحزن، لم يعد يخرج للسبلة لملاقاة الرجال، تهامس أهل السراير «جن الرجل»، «شلت[26] فواده حية وشلت عقله في قبرها».

أخذت الجارات ريّا وترك هو للحزن مع أبيه، وأبوه غاب في خلوته ونسيه.

طالت غيبته عن المجالس، فجاء الرجال لعيادته، قالوا له: «أنت رجل مؤمن، تعرف الله وتخافه، وهذا قضا وما شي من القضا منجى ولا مفر».

سلّم بكلامهم لكن قلبه لم يسلّم، قالوا له: «تزوج حرمة تنسّيك وترعى بيتك وأولادك»، قالوا له: «كل الحريم واحد». «لا، ما كلهن واحد» قال لهم، وما تخيل امرأة في بيته غيرها.

---

26. شلت: أخذت.

أما راشد فشعر باليتم ثقيلا وقاسيا، الأم التي كانت تلاطفه بالأسماء، والنعوت والضحكات واللعب، والأب الذي كان يأخذه إلى مجالس الرجال ويقدمه.

ذهب الاثنان معا، أحدهما في الموت، والآخر في الحزن.

اعتزل أبوه الناس وعكف على القرآن يقرأه ويتدبره، وعلى كتب الأولين يدرسها.

لكن قبل أن تتم ريّا الحول، خرج أبوه من تلك الحجرة في ثياب بيضاء نظيفة، متحزما بخنجره وفي يده عصا العتم[27] التي كان يتكئ عليها كلما خرج لملاقاة الناس.

ذهب إلى سبلة أخيه فدخلها ضحى، والناس متحلقة حول صحن الرطب ودلة القهوة بيد سبيت يدير الفناجين بينهم.

وقف برهة عند باب السبلة ولم يسلم، وقف يتأمل انشغالهم بما في أيديهم، لكن سبيت انتبه له، فصرخ: حبابي[28]. وهرع إليه وانكب على يديه يقبلهما، ويبللهما بالدموع، انتبه الرجال على صرخة سبيت فقاموا كلهم ليسلموا عليه، وكان أخوه آخرهم في السلام.

عاد إلى مجالس الرجال، لكنّ أخاه كان قد احتل مكانه دون أن يُسمى بدلا عنه في المشيخة.

لكن عندما اختليا قال له: «انت ما تصلح للمشيخة، قلبك ضعيف، والبلاد تحتاج من ترد له في الشور، انت رجل علم والبلاد ما يسدها علمك، البلاد يبالها علم وسياسة وقوة»، «كيف تخافنا القبايل وأنت هزتك حرمة

---

27. العتم: خشب شجر الزيتون.

28. حبابي: سيدي.

وغيبتك شهور؟».

«والله لو ما كانت الحرمة منهم والأولاد أولادهم، كان رعاة القلعة هجموا علينا، وحرقوا خيامنا، وقطعوا نخيلنا، وذبحونا ونحن على رقادنا».

وجده على حق، البلاد بحاجة لقوة وبأس ليحميها، فترك له المشيخة وتفرغ لريّا، والصلاة، والقراءة.

أما راشد فتركه مع البيادير في المال، تعلّم على أيديهم كيف يتعامل مع الأرض والنخل، كيف يفسل الفسائل، وكيف يحدر الزور[29]، كيف ينبت الثمرة الجديدة، وكيف يرتقي النخلة ويجني ثمرها واحدة واحدة.

تعلم كل ما يحتاجه البيدار ليحيي الأرض، فصارت الأرض أمه، والنخلة ظل أبيه.

ثم كبرت ريّا فصارت تلحق به في المال، في البداية كانت تأتي لتلتقط حبات الرطب الخضراء المتناثرة تحت النخل في وقت الرقاط[30].

ثم كبرت فصارت تضع صرة الغداء على رأسها، وتمشي على ساقية الفلج حتى تصل إليه، تجلس معه حتى يأكل، تنزع أوراق المطبقة[31] عن أطراف إزاره عندما يكون غافلا، وتنفض الغبار عن كتفه.

تسأله عن كل شيء، عن النخل والسفرجل والتين؟ عن الفلج وتوزيعه؟ أثره[32] ووقته وقياسه وتحويله؟ ومن أين يأتي ماؤه؟ وكيف يحفرون سُبُلَه في باطن الأرض؟

---

29. الزور: السعف.

30. الرقاط: جمع البسر المتساقط تحت النخلة.

31. المطبقة: نبتة لها أوراق تلتصق بالملابس.

32. أثره: حصة الماء.

كانت لا تكف عن الأسئلة، وكان يجيبها، ويكثر في الكلام، يسمي لها أطوار الثمرة فتكون عنكزيزا ثم خلالا ثم بسرا ثم رطبا ثم كيف يصير الرطب تمرا. يفسر لها لماذا يبسط الرطب على العرشان تحت الشمس لتجف ثم تكنز في الجربان المصنوعة من السعف، وكيف تتعرق فيصبح ماؤها دبسا، تحلى بها قروص العجين التي تحبها.

مع ريّا يتكلم ويفيض بالكلام، يشرح لها كل ما يعرفه عن الأرض، يحب ذلك الفرح في عينيها كلما تعلمت منه شيئا جديدا.

كانت تحب دروس أبيها في أول النهار، وتحب دروسه عن النخل والطين عندما تذهب إليه.

وكانت تقص عليه القصص التي سمعتها من أبيها، القصص التي يسترجع فيها حلقات العلم في الرستاق أو ما تعلمه في أيام مجالسته للإمام في نزوى.

من البيت إلى النخل كانت تنقل إليه كل القصص التي كان يسليها بها أبوها، فيفغر فمه من دهشة الخوارق أو يضحكان معا من الطرائف.

كانت طفلته ثم صارت أخته ثم كبرت فصارت وكأنها أمه.

كانت بنت عشر سنوات وكان ابن ثلاثة عشر، كان جسدها صغيرا ونحيلا وكان جسده قد بدأ في الذهاب إلى الرجولة.

هي تشبه أمها، بياضها مشوبٌ بحمرة، هشة البنية، وجه دائري وأنف دقيق وعينان كورقتي شجر، شفتان رقيقتان، وصوت به بحة خفيفة.

وهو يشبه أخواله، له بنية ضخمة، وبشرة لوحتها الشمس في ضواحي النخل، أنفه كبير وفي شفته السفلى شيء من الغلظة.

إذا ما مشيا عائدين إلى البيت، حملت القفير على رأسها وحمل هو حبل الطلوع على كتفه والمنجل في يده. ينسى الناس أنهما أولاد شيخ العوايف وأمهما بنت شيخ السواعد، سيدة القلعة التي وصلت السراير عروسا في الصلح، يظنونهما بيدارين من أهل النخل لا أكثر.

لكن حالما يُذكران في المجالس، يتجلى حسنها وتصير قوته من الخوارق، يقولون هي اكتمال الحسن ويقولون لم يلجمه إلا شيء من ورع أبيه يسري في دمه.

يلفه الغبار المتطاير تحت عجلات الشاحنة، ينكس رأسه بين قدميه متجنبا دخوله في عينيه.

يعود إلى سجن الوالي في الرستاق، إلى الجمرة التي غطاها الرماد في قلبه.

يرفع عينيه في وجوه الرجال الأغراب الذين صاروا رفاقه، يحدق إلى بندقيته المارتيني الجديدة التي حلت محل البوعشر بعد أن التحق بالحامية.

الطريق إلى صحار طويل، والقبائل انسلت من جبال عمان وسيوحها وصحاريها، قال له علي وهو يودعه: «حتى الإمام أمر القبايل بو في شفهم، فخرجت بسلاحها ونوقها وخيولها إلى صحار حتى تكون مع السلطان سعيد، وتحت أمره هو وناظر الداخلية السيد أحمد بن إبراهيم».

* * *

حشد جيش السلطان والتفت القبائل حول السلطان في فلج القبائل، ونيتها طرد ابن عطيشان من الحماسة، لكن القنصل العام البريطاني جاء بعد مدة ليثني السلطان سعيد عن قراره، ويبلغه بقرار عدم الدخول في مواجهة عسكرية مع السعوديين، وأن الأمر برمته قد رفع إلى مجلس الأمن للتحكيم، قال له: نحن سنتكفل بالأمر من هنا.

أبلغه بذلك أمام مقاتليه، ورجال القبائل الذين التفوا من حوله، دمائهم مبذولة وقلوبهم معلقة على حد الخناجر أو على فوهات بنادقهم البوعشر التي ارتفعت كرايات شاهقة في المدى.

أبلغه بذلك وكأنه يقول له ليس لك من الأمر شيء، ليس لكم أيها الحاضرون هنا بلحاكم، وخناجركم، وبنادقكم من الأمر شيء، نحن نقيس الأمور، ونحن نقدرها، ولنا الكلمة العليا.

عاد رجال القبائل إلى جبالهم وقراهم، وبعد مدة عادت حامية مسقط إلى الميراني.

لكن راشدا لم يعد.

أراد السلطان تشكيل فرقة جديدة لتعزيز جيشه في الباطنة، فكر في لزوم فعل ذلك لتكون الفرقة بمثابة قوة ردع للقبائل المتمردة في المنطقة، وأرادها أن تكون كالعادة مقصورة على رجال بعض القبائل بالتحديد، القبائل التي يثق بولائها، القبائل التي طالما كانت من عسكره وتحت أمره، قبائل مقاتلة من جبال الباطنة، قبائل الحجور التي عرفت بشدة البأس والإخلاص له.

لم تكن الحامية قد غادرت مخيمها في صحار بعد عندما استدعاه اللافتنت هيكسلي في خيمة قائد الحامية، فذهب إليه منقادا للأمر الذي بلّغه إياه العسكري.

دخل الخيمة فلم يجد قائد الحامية بل وجد مكانه اللافتنت هيكسلي، والميجور كولريدج يجلسان حول طاولة صغيرة مربعة، لم يقفا له ولم يدعواه للجلوس.

وجه الميجور كولريدج له الكلام في عربية بسيطة، سأله عن البلاد التي تحدر منها ثم قال له:

- لقد أخبرني اللافتنت هيكسلي أنك عسكري عماني ممتاز، ذكي وتتكلم الأوردو والبلوشية.

- نعم سيدي.

- هل ترغب في تعلم الإنجليزية؟

- نعم سيدي.

كان قلب راشد يخفق بقوة.

- ستنضم إذن إلى قوة الباطنة، لن تعود مع الحامية إلى مسقط. انصرف.

- نعم سيدي.

أدى راشد التحية العسكرية، واستدار مغادرا الخيمة.

أكمل سيره إلى خيمته، وقلبه يمشي بين قدميه والأسئلة ترتج في رأسه «أي حظ لعين هذا؟ أهرب إلى مسقط فتعيدني العسكرية إلى بلاد الباطنة، أتجنب ذكر قريتي فتأتيني على لسان الغريب، وكأنها ميزة لا أفهمها، آنسُ إلى غربتي بين رفاقي من البلوش؛ فأُعاد إلى اسم قبيلتي وشفها، أي قدر هذا؟ ».

وصل إلى خيمته، ووقف لحظات يسوم غضبه وإحساسه بالعجز، أنزل سلاحه من على كتفه، ثم خلع البيريه الأحمر وقميصه وحذاءه، واستلقى على فراشه متخففا إلا من غضبه.

شمس الظهيرة في يناير تضيء جوف الخيمة، وتشعل رأسه بالذكريات والأسئلة والأفكار.

يفكر في مصيره المتقلب، وفي غيابه الذي سيطول عن ريّا.

يتحول تفكيره إلى ريّا، كان يعرف أنها حامل، وصلته رسالة من علي تشير إلى ذلك قبل مدة، ماذا لو أنجبت صبيا؟ ماذا ستسميه يا ترى؟ هل على

أبيها أم على جده لأبيه؟ أم سيختار له علي اسما جديدا يوافق نجم ميلاده؟

يفكر في الطفل الذي لم تنجبه ريّا بعد، فيتخيل قبضته الصغيرة، وقد تكورت في وسط كفه، تخيل نعومة بشرته، ورائحة أول الوصول للدنيا، الرائحة التي كانت لريّا عندما وضعتها أمه بين يديه قبل أن تغيبها الحمى.

أحس بحزن خفيف وهو يفكر في أنه وهو في فلج القبائل لن يجد الفرصة ليراقبه يكبر في حضن أمه وعلى كتف أبيه، لن يسمع ضحكته ولن يرقب ركضه في الحوش والسكك المتربة، لن يحمله على كتفه إلى السوق، لن يعلمه الكلمات البلوشية والأوردية التي صار يتقنها، ولن يكون هناك عندما ينشغل أبوه عنه أو عندما يحتاجه فيما لا يحتاج أباه فيه.

تذكر أنه لم يتربَّ مع أخواله. كانوا بعيدين في القلعة، وبعد أن ماتت أمه لم يعده أحد منهم، ولم يفكر أحد منهم في أخذه إلى القلعة ليكبر بينهم، لكنهم رغم ذلك عادوا لنصرته عندما احتاجهم.

انتبه راشد إلى أن تفكيره قد أخذه بعيدا، وأنه كلما تذكر ما يخص ريّا يذهب في التخيل والحلم.

لكنها ريّا وكل ما يخصها يخصه، هي كل ما له من أهل في الدنيا وولدها بالضرورة ولده، وجعها وجعه وفرحها فرحه، هي أخته وابنته وأمه.

كالحلم تأتيه ذكرى مرض أمه بعد ولادة ريّا، يتذكر هذيانها باسميهما، وذبولها في الفراش، كان أبوه عند رأسها عندما أغمضت عينيها، ولم تفتحهما بعد ذلك أبدا، وكان هو يتوسد ذراعها عندما انتبه إلى شهقة أبيه.

في غفلة منه طار الدعاء من فمه ليحمي ريّا في ولادتها وفي نفاسها.

لوح بكفه وكأنه يهش الأفكار، ويطردها بعيدا، وعاد للتفكير فيما بين يديه من أمر.

ماذا لو أنه عاد مع الحامية؟ هل سيجد فرصة لترقية أو رتبة؟ ماذا لو أنه عاد إلى مسقط؛ هل سيكون وجوده مفيدا لريّا التي صارت الآن في بيت زوجها، تنتظر طفلا يتبعه آخرون؟

ربما كان الوضع هكذا أفضل، ربما كان بقاؤه هنا أفضل، ربما وجوده في قوة الباطنة فرصة جديدة له، الميجور سأله إن كان يرغب في تعلم الإنجليزية، وهو لم يفهم معنى السؤال، هل يقول الميجور بأنه سيتعلم الإنجليزية؟ هل سيعلمونه الإنجليزية التي لا يعرف منها غير «يس سير» و«نو سير»؟ هل للغة علاقة برتبة قادمة؟

أعجبته فكرة تعلم لغة جديدة، ابتسم بشيء من الرضا، لريّا زوج وبيت وطفل، وهو الآن هنا، عسكري في قوة الباطنة وسيتعلم الإنجليزية ليصبح ضابطا في جيش عمان.

قال له علي في إحدى جولاتهم إن «العسكر كله بيدين الانجليز»، وقال له مال الله شيران كبير بلوش حامية مسقط إن «اللغة مأمن من الغدر، ومفتاح كل شيء».

حل الحلم محل الغضب فذهب في غفوة قصيرة.

* * *

عندما دفعه عسكري الوالي إلى داخل الحبس لم يشعر بالإهانة، الإهانة كانت قد تمت على يد عمه، الذي استغل جهله بالقراءة، وحَمَّله رسالة تدينه إلى الوالي.

الوالي يعرف أن المقصود ليس التهمة، فمثله لا يتهم في شرفه، ابن الشيخ سيف لا يتهم بمثل هذا، لكن المقصود التأديب. أراد عمه أن يؤدبه، وكأنه يريد أن يقول له ولأهل السراير إنه بإمكانه أن يفعل ذلك وزيادة، ابن

أخيه مجرد عينة، أمثولة سيتناقلها الناس، فلا يقف من بعدها أحد في وجه الشيخ خليفة بن راشد العايفي.

الوالي يعرف ذلك ويقره، ويدرك أهمية أن تعرف الناس مراتبها وحدودها، ما لها وما عليها. وأن تطيع شيوخها وسادتها دون نقاش أو مراجعة في الأمر، وإلا انشقت البلاد وفسدت.

تمنى لو أن عمه في ظلمه قد اختار له تهمة أخرى، تهمة تليق برجل حر.

كان الجميع يعرف أن التهمة للتأديب، للتأديب والتركيع، لكنهم مع ذلك سيتناقلون الخبر، وستتحول الحكاية إلى مثل، وسيوصم طوال عمره بها. سيقولون ابن الشيخ سيف قحم بيت عمه لأجل عبدة. سيحب الناس ذلك جدا، سيسقطون جور مشيخة عمه فيه، سينتقمون من عجزهم فيه.

هو مظلوم مثلهم وهم يعرفون، لكن ذلك لا يهم، ربما احتاج المتشفي لتجاهل الحقيقة، بل ربما احتاج أن يتجاهلها عمدا ليفرح قليلا ولو للأسباب الخطأ.

في قلبه جمرة، كان يشعر باحتراقها البطيء، بالوسم الذي تتركه على اللحم، يشم رائحة اللحم المحترق تنفذ إلى روحه.

غدا ستكون تهمته حديث مجالس الرجال وقهوة النساء.

يقحم بيت عمه لأجل جارية؟!

ياللعار الذي حمله إياه، ياللوشم الذي لا يزول!

وعمه يعرف كيف يدبر التهم، يعرف كيف يقضي عليه، وعلى طموحه في المشيخة إن وجد، فلا يطالب بها أبدا من بعد.

عرف عمه كيف يقضي على سيرة أبيه ومكانته بين الناس، الشيخ الذي

زهد في المشيخة فصارت سيرته على لسان الناس مَثَلاً، لكن أباه مع ذلك نموذج لا يناسب المشيخة، نموذج ضعيف، بلا جبروت أو قوة، نموذج يجب أن يسقط، يحرق ويذرى في الريح، وإن كان لم يقدر على مكانة أخيه وسمعته وهو حي بينهم فهو قادر على ابنه.

قلبه جمرة غافية، الجمرة تحولت في الحبس إلى قطعة من الفحم، والفحم صار رمادا، رمادا أسود، أشد حلكة من سواد الزنزانة التي دفعه إليها عسكري الوالي ثم أحكم غلق الباب عليه.

لا نافذة للزنزانة، الهواء الشحيح يتسرب مخنوقا إليه، والضوء خيط رفيع يتسلل من تحت عقب الباب.

لا يسمح له بالخروج إلا مرة واحدة في اليوم لقضاء الحاجة، في الركن وضعوا له طاسة ماء للوضوء، لكن راشدا بعد أن صلى فرضه الأول في الزنزانة تنكر للوضوء، تنكر للقليل الذي تعلمه من أبيه، نسي في قنوطه السور القصار التي تقيم الصلاة.

في غضبه مادت به الدنيا فما عاد يعرف اتجاه القبلة، وقلبه ما عاد يدله، والرب يزداد غيابا في كل صباح يطلع عليه، وهو متكوم على غضبه في الزنزانة.

لم يطمع يوما في المشيخة وما فكر فيها، كان عمله في النخل كافيا. مشغولا بالزرع عن الدنيا وما فيها، أما الآن فقد صار يعرف أنه ما كان لأبيه الحق في التخلي عن المشيخة، كان عليه أن ينتظره ليكبر فيسلمه إياها بدلا من أن يهبها أخاه.

صرخ في حبسه «هذه بلاد لا تقبل الضعيف، ولا تحترم المحتاج، هذه بلاد ظُلام يا أبي، الجبابرة لا يأتونكم من الخارج، أنتم تلدون الجبابرة، من أرحام هذه الأرض يخرجون وينسلون ويفسدون».

الجمرة صارت رمادا يتطاير من حوله فيستنشقه، ويعبّئ رئتيه بالغضب.

«هو الغضب يا أبي، الغضب الذي حذرتني منه، قلت: لا تغضب، لا تغضب، لا تغضب فلم أغضب، سنون مرت وأنا أكد في الضواحي حتى نبتت الأعشاب من بين شقوق أصابعي. أنا أحب الأرض يا أبي، أحب النخل وماء الفلج والطين، لكن ذلك لم يشفني من الغضب، كتمته لسنين، وهدأته بالانشغال في الضواحي حتى صارت جنة. أنت تعرفني جيدا، أنا بيدار قوي، لا أتعب من النخل، أرتقيها في طرفة عين، أقطف رطبها دون جهد، أفسل، وأزرع، وأقوم على الماء في الفلج ليل نهار، أفعل ذلك دون عناء. ورثت قامة المحاربين من أخوالي يا أبي، وأنت حولتني إلى بيدار ضعيف في المال، مجرد بيدار لا يقيمون له وزنا في مجالس الرجال، رجل جاهل لا يحفظ آية ولا حديثا من أحاديث النبي ولا حتى بيتا من الشعر.

أجلس في المجالس مطرقا أحاول أن ألتقط الكلام، آية من هنا وأخرى من هناك، حديث من هنا، ومقولة من هناك.

لماذا تعمدت إذلالي بالجهل يا أبي؟ هل كنت خائفا مني كما يقولون؟ هل كان صدقا ما يقولون أنني لو حزت العلم مع القوة لأشقيتك في البلاد؟».

* * *

استقرت الكتيبة الجديدة في معسكرها بفلج القبائل.

كان عدد الجنود فيها لا يتجاوز الثمانين عسكريا، ويشرف عليهم ضابطان إنجليزيان، الميجور كوليريدج والكابتن هامفنست، الذي انضم إليهم معارا من الجيش البريطاني خصيصا لغرض تدريب كتيبة قوة الباطنة الميدانية.

كان التدريب الميداني قاسيا، يبدأ من الساعة الرابعة فجرا وحتى الحادية عشر صباحا، وعندما لا يحتمل الضباط الإنجليز حرارة الشمس

عند منتصف النهار يتوقف التدريب، ويذهب الجنود للغداء والراحة، ثم يستأنفون عند الرابعة، ويستمرون بين ركض وزحف وقفز حواجز ورماية وقتال بالسلاح الأبيض حتى السابعة.

في الكتيبة الجديدة استبدلت بنادق المارتيني القديمة ببنادق الملتفورد الحديثة، التي لها مخزن رصاص يذخر من الأعلى، ويتسع لعشر رصاصات في كل خرطوشة من خراطيشه الخمس. كان عليهم التدرب على تفكيكها، وتنظيفها وصيانتها ثم التدرب على استخدامها، وإجادة التصويب بها.

منذ أن خرج راشد مع حامية مسقط إلى صحار لم يهبط إلى مسقط ولم يرَ ريّا، ولم يكن يعرف متى سيعود، لكنه يؤمل نفسه بعيد الفطر ليقضيه معهم.

لكن الكابتن هامفنست استدعاه بعد انتهائهم من التدريب في إحدى الظهيرات، وسلمه رسالة كانت قد وصلت في الصباح من بيت الفلج.

عرف من فوره أنها من علي، تردد في مد يده واستلامها من الكابتن الذي بقيت ذراعه ممدودة أكثر مما يجب في عرف العسكرية، فقال له آمرا: استلم.

جاهد راشد كي لا يلحظ الكابتن ذلك الارتعاش الخفيف في كفه وهو يستلم الرسالة.

استلمها وأدى التحية العسكرية ثم غادر خيمة الضابط بخطوات سريعة، بحث عن أقرب ظل ليجلس تحته، فتوجه إلى سدرة في طرف المعسكر يجلس تحتها الجنود أحيانا في استراحاتهم.

ترددت أصابعه وهي تتلمس مغلف الرسالة، متوجسا من شر قد تحمله أو خبرٍ عن ريّا لا تطيقه نفسه، بقيت الرسالة بين أصابعه حتى حسم أمره ففضها بشيء من العنف.

كان خط علي الجميل يزين القرطاس، لكنه لم يهتم لأناقة الحرف ودقة الكلمات المرسومة.

«بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الأعز الأكرم راشد بن سيف بن راشد العايفي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد التحية والسلام

فأرجو من الله العلي القدير أن تصلكم رسالتنا هذه وأنتم في أطيب حال.

لقد أردنا أن نعلمكم أن الله قد رزقنا بمولود ذكر، وأننا قد أسميناه زاهرا على اسم الوالد متأملين أن يحذو حذوه في طلب العلم، وأن يكون مثله في حسن الخط وأن يكون ورعا تقيا كجده لأمه.

راجين من الله أن تكونوا له قدوة وعزة وعون.

أختكم بخير وتبلغكم أحر السلام وتتمنى شوفتكم في القريب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخوكم

علي بن زاهر الجويري».

وصل راشد إلى مسقط بعد يومين من وصول الرسالة، طلب إجازة فمنحه الضابط أسبوعا، لكن كان عليه أن ينتظر يوما حتى تخرج سيارة القوة إلى بيت الفلج فتأخذه معها.

وصل إلى ميابين قبل أذان المغرب بقليل، مشى في سككها، والضوء ينسحب تدريجيا من على قمة جبل السعالي الذي يحدها من جهة الشرق.

وصل عند الباب فتردد في طرقه، أصاخ السمع وكأنه أراد أن يسمع ما يدله على الحياة الجديدة التي ولدت من ريّا.

وقف طويلا مصغيا بانتباه حتى جاءه صوت بكاء الرضيع. علا الصوت ثم ما لبث أن سكت. مد يده في لهفة، وطرق الباب مرتين بحلقة الحديد المتدلية من أعلى الباب، كاد أن يطرق للمرة الثالثة لكنه سمع صوت خطوات تقترب.

فتح علي الباب للطارق فوجد راشدا أمامه، أخذته المفاجأة فتراجع خطوة للوراء ثم ما لبث أن تقدم ومد يده لمصافحة راشد الذي مد ذراعيه وعانقه.

تناشدا عن الأخبار والعلوم، ثم أشار عليه علي بأن يلزم الصمت، فقطعا الليوان بهدوء حتى لا تكاد تسمع أصوات خطواتهم على الأرض.

وصلا عند باب الحجرة فتأخر علي ودخل راشد قبله، وجد ريّا جالسة على الأرض مقابل الباب، مشغولة بإرضاع طفلها المندس تحت وقايتها.

وقف عند الباب ينظر أخته التي ازداد وزنها قليلا في غيابه، يتأمل جلستها الحانية على الطفل المتكور في حجرها، يحاول أن يراه من خلال قماش الوقاية، فلا يرى سوى يدٍ صغيرة ترتفع أحيانا أو قدمٍ ترفس الغلالة.

انتبهت لظله فرفعت رأسها، رأته فأشرق وجهها، ابتسم لها فابتسمت له وزال التعب عنها وعنه.

قرفص إلى جانبها وأخذ رأسها بين كفيه وقبل قمته، وهي انكبت على كفه تقبلها المرة بعد المرة.

ثم رفعت رأسها إليه فرأى الدمع في عينيها، سارعت فمدت أصابعها بطرف وقايتها لتمسحها، تبادلا الكلام السريع المختلط، سألها عن أحوالها

وسألته عن أحواله، لكنها لم تقل له: اشتقت لك يا راشد، ولا هو قال.

أخرجت الرضيع من تحت وقايتها وناولته إياه، لم يحمل رضيعا بين يديه منذ أن أخذ أبوه ريّا من بين يديه وسلمها لجارتهم، فتناوله من أمه بحذر، نبهه علي لطريقة حمله الصحيحة، «دع يدك تحت رأسه، والثانية تحت ظهره»، عدل راشد طريقته في حمل الرضيع «نعم، كذا يحمل الرضيع ما كما بو يحمل تفق».

ابتسمت ريّا لامتثاله ورقته في حمل رضيعها، قال علي «سميناه زاهر، كانت ناوية تسميه عليك، لكني قلت لها الأول حالنا والثاني حالكم»، كست حمرة خفيفة وجه ريّا خجلا من تلميح علي بأطفال قادمين، لكن راشدا تجاهل ذلك وقال «ما شاء الله، الأسماء كلها واحد، زاهر ولا راشد ولا حمود ولا سيف ما يهم، المهم البركة وسلامة أختي».

مر أسبوع الإجازة عليهم سريعا، مر في حديث ريّا، وبكاء زاهر، وأخبار علي التي لا تتوقف عن مسقط، وبرزة السيد، وما يشاهده، ويشهد عليه كل يوم.

كانا يخرجان يوميا للمشي كعادتهما في الأيام الخالية، وفي إحدى جولاتهم باتجاه الفرضة، سأل علي راشدا:

- خبرني عن البريمي وابن عطيشان، سمعت أنهم بعدهم هناك؟

- ما وصلتكم الأخبار؟ حتى القبايل بو في شف الإمام صفت معنا، قال لهم الإمام خرجوا مع السلطان سعيد، البلاد بلادنا ونحن صف واحد ومن يدخل عمان غصب يستوي عدونا كلنا ما بس عدو السلطان. وصل السلطان فلج القبائل، وكان مستقوي بجيشه ورجال القبايل، كانوا يمكن ثمانية آلاف رجل، الجميع تلاقيوا في صحار، والسلطان عزّم الهجوم على بن

عطيشان، لكن قبل عن نخرج لهم وصل الميجر تشونسي، قنصل بريطانيا، وقال حال السلطان بنرفع الأمر للتحكيم في الأمم المتحدة.

- وصلنا الخبر، السلطان ما لقى بد ما يماشي الإنجليز ووافق على الانسحاب، لكن القبايل تراها ما راضية، ردت بلدانها وصورة السلطان وهيبته مكسورة في عيونها.

- ترى الإنجليز ما بغوا يدخلوا الحرب، أنت تعرف الحرب خساير، يموت فيها الناس والعسكر، القنصل قال ما شي فايدة من الحرب كان قدرنا نحل الموضوع بالتفاهم.

أحس علي بتردد الكلام على شفتي راشد متأرجحا فيما يقوله بين قلبه وعقله، فلم يرد أن يناقشه، وغير مجرى الحديث، وسأله إن كان ينوي زيارة العود، فغيرا طريقهما وعادا يمشيان في الدرب العلوية بين المزارع باتجاه الطويان يقصدان زيارته.

في الصباح كان يجلس إلى ريّا، يراقب زاهرا وهو نائم في أقمطته، على رأسه طاقية من الأطلس الأخضر تحيط بوجهه الأبيض الصغير، فلا يظهر منه إلا عينان مكحلتان، وأنف صغير، وفم مفتوح قليلا، وكأنه دوما يبتسم. كان يراقب حركة فمه في التثاؤب، تكور قبضته الصغيرة، العلامات التي تسبق إشهاره الجوع وبدأه في البكاء.

ثم يخرج بعد العصر في جولته مع علي فيسيحان كعادتهما في حارات مسقط ووديانها وسفوح جبالها.

وبعد المغرب يجتمعون كلهم للعشاء. ريّا صارت خبيرة عارفة بطعام مسقط؛ يقول له علي وهم يجلسون على البساط تحت البيذامة معلقا على الطعام الذي وضعته أمامهم.

تناول راشد أول لقمة من الأرز الأبيض المغمور بمرقة السمك الصفراء الخفيفة، فقال لها مغالبا حرقة الفلفل الأخضر والثوم في لسانه وسيلان أنفه الخفيف:

- هذه أكلة زينة لكنها تحرق.

- هذه مرقة بابلوة، تعلمتها ريّا من جاراتها البلوشيات.

فرد راشد وهو يمسح أنفه بطرف كمه:

- هذه البابلوة تحرق اللسان وتدمع العين و... الله يهديش يا ريّا.

- هيه كذا، أدق لها فلفل أخضر وثوم وأعصر لها لومي، كل ولا تنسى قول الله تعالى «كُلوا من طيِّباتِ ما رزقنَاكُم».

ترد ريّا مدافعة عن مرقتها، فيداعبها راشد وهو يمسح عينيه وأنفه.

- نعم، لكن الله تعالى قال من الطيبات ما قال من الحارقات.

تقطب ريّا جبينها قليلا ثم تتسع ابتسامتها لتتحول لضحكة خافتة، تأمره: «مد يدك» ثم تصب قليلا من السمن في كفه: «برد به لسانك».

يطيع أمرها وكأنه صبي وهي أمه، يمد كفه إليها فتسكب في باطنها قليلا من السمن الذي يمسح به شفتيه ولسانه ليخفف من الحرقة، ينظر في وجهها طويلا فيرى وجه أمه، ويرى نخل السراير وفلجها العالي، تغافله دمعة تسقط من عينيه دون أن يشعر، يمسحها وهو يقول: «قلت لش هذي المرقة تحرق».

* * *

في صباح اليوم الأخير من أسبوع إجازته، وقبل أن يغادر إلى بيت الفلج حيث سيستقل منها السيارة المغادرة إلى معسكر فلج القبائل، جلس راشد إلى ريّا وتناول الرضيع منها ووضعه في حضنه.

أمسك زاهر أصبع خاله الثخينة فالتفت الأصابع الصغيرة كلها عليه، كف صغير بملمس الحرير، فتح راشد الكف الصغيرة ووضعها في وسط كفه، كف الصغير في كفه كزورق في بحر.

تمطى الرضيع قليلا ثم على مهل فتح عينيه، تلاقت العيون في ومضة، تعرفا إلى بعضهما بعضاً في حديث صامت قصير، ثم تثاءب الرضيع، وأغمض عينيه، وعاد إلى النوم.

ناول راشد ريّا طفلها، فقمطته ووضعته في فراشه، ثم عادت إلى راشد الذي عدل من جلسته ليواجهها، مد يده وراء ظهره ليقبض على صرة بيضاء ثم سلمها إياها.

- هذه حال زاهر.

تتردد ريّا، تستلم الصرة، تفتحها، فتتعرف إليها:

- لكن هذه القروش بو بعت بها نميصة، بنت الخواضة يا راشد، هذي قروشك وأنت أولى بها.

- أنا حاجتي قليلة، ومعاشي سادني وروقتي على الجيش.

- بضمها حالك.

- لا، هذي القروش حال زاهر.

حاولت أن تعترض ثانية لكنه لم يمهلها لترد عليه، قبل رأسها وغادر، تاركا كلامها معلقا في هواء الحجرة.

وضعت ريّا صرة القروش وراء التكية دون أن تفتحها.

شعرت بانقباض وكأن القروش بكل ثقلها قد وقعت على قلبها فجأة، تمنت لو يعود علي فتسلمه إياها، تمنت لو يعود مبكرا فيخرج الصرة ويخبئها

في أي مكان آخر.

لم تعرف سر انقباضها، تذكرت اللحظة التي عاد فيها راشد منكس الرأس وقد باع ناقته، واستلم القروش من تاجر اللومي ووضعها في الخرج ثم وضعها على كتفه وأخذا الطريق مشيا إلى مسقط.

هو ما عاد لذكر نميصة أبدا بعدها، وهي لم تعد لذكرها أيضا.

تركت رضيعها نائما في أقمطته، وقامت لشؤون بيتها، تنقلت في أعمالها بين الحوش، والمطبخ، والليوان، والحجرة، أخرجت ثياب الرضيع وغسلتها، كنست حوشها، ورتبت غرفتها، طحنت البهارات، غسلت السمك، أشعلت النار في الحطب، جهزت موقدها، وحضرت الأرز ومرق السمك، فعلت كل ذلك وهي ساهمة عن كل ما حولها.

عادت إلى رضيعها، وجدته وقد أخرج ذراعيه من القماط وصار يحركهما وكأنه يتمطى، حملته ووضعته في حجرها وأعادت لف القماط عليه لينام.

دمعت عيناها دون أن تدري سببا لذلك، هل هو الشوق إلى راشد الذي غادرها لتوه ولا تعرف متى ستراه مرة أخرى؟ هل هو خوف من القروش التي سلمها إياها؟ تسأل نفسها: ممَ هي خائفة؟ وما لقلبها ثقيل هكذا منذ أن تناولت منه الصرة؟

أخرجت زاهرا إلى الليوان، غيرت أقمطته وأرضعته دون أن تغني له، ثم حملته وتركته تحت ظل البيذامة لينام، قامت لغسل أقمطته المبللة، نشرت الثياب لتجفّ على حبل يمتد في جانب الحوش.

عادت للجلوس تحت البيذامة، مازال طفلها نائما، فكت صرة خياطتها، أخرجت الكمة التي قاربت نجومها على الاكتمال، كمة تنقشها لراشد منذ العيد الصغير عله يلبسها إن عاد لزيارتهم في العيد الكبير.

فكرت بعد أن تنتهي منها أنها ستخيط واحدة لزوجها أيضا؛ ليلبسها في العيد، ثم ربما طلبته أن يذهب لـ(باه حسن) في حارة البلوش ليوصي على كمة على قياس رأس الصغير، ستنقشها بخيط أخضر. علي سيحضر لها اللون المناسب من دكان بهاتيا الهندي في السوق الداخلي، ستخيط لزاهر كمة خضراء ليلبسها في حول حوله[33].

فكرت في كل شيء، في الدشداشة الصغيرة التي ستخيطها له، في الحلوى والفرَّاخ[34] الذي ستعجنها به، في حبات الدنجو[35] التي ستنثرها فوق رأسه وهي تهتف مع نساء بيت الوادي وأطفاله.

«حول... حول... حول... حول».

ستحتفل بإتمامه عامه الأول في بيت الوادي، لا بد من ذلك، هم أهلها في مسقط، وسيكون خاله هنا، سيعود راشد بالتأكيد ليرى ابن اخته يكبر، ستطلب من علي أن يكتب له رسالة، أو ستكتبها بنفسها ثم تطلب منه أن يودعها في بيت الفلج حتى تذهب مع البريد إليه.

فكرت في التفاصيل الصغيرة كلها، لكن كل التفاصيل التي فكرت فيها لم تشغلها عن الصرة التي وضعتها خلف التكية، كل الفرح المنتظر لم يزح الثقل الذي حط على قلبها.

أعادت الصغير إلى داخل الحجرة ووضعته في فراشه، ثم مدت يدها خلف التكية وأخرجت الصرة. أفرغت علبة المعدن التي كانت تحتفظ بأدوات خياطتها فيها، ووضعت الصرة البيضاء فيها، خرجت إلى الحوش

---

33. الحول حول: الاحتفال بإكمال المولود عامه الأول.

34. الفراخ: الفشار.

35. الدنجو: الحمص.

وأزاحت الحصيرة المفروشة تحت البيذامة.

بيديها حفرت تحتها حفرة، وعمقتها قدر إمكانها، ثم دست فيها علبة المعدن، ردمتها بالتراب وسوت سطحها وأعادت فرش الحصيرة في مكانها.

لن تخبر علياً بأمر القروش، ستتركها مدفونة هناك في علبة المعدن، وستنساها.

هذا ما قررته، ستتركها هناك في علبة المعدن فلا تطالها يد أو عين، حتى يعود راشد من صحار، وينوي الزواج حينها فقط ستخرجها لتشتري بها فضة عروسه.

8

ارتمت في حضن ريّا...

حطت عليها وطوقت عنقها ثم دست رأسها في وقايتها، فالتفت ذراعا ريّا عليها.

شمتها بعمق، لها رائحة ياسمين أنضجته الشمس.

قالت غزلان: مزنة آخر نطفة في رحم البيبي، حملت بها قبل ما حبابي إسماعيل... ثم سكتت.

تركض مزنة في الرواق فيهتز خلخالها الفضي، أو تضحك فيهتز الياسمين المعقود في ضفيرتها.

مهرة وسعاد يكبرنها بسنين، مهرة بنت تسع وسعاد بنت سبع أما مزنة فلم تكمل السنتين بعد، أخواتها يراكضنها في الرواق، فيضج المكان بالحركة والضحك.

أخبرتها غزلان في زيارة لاحقة أن مزنة لم ترَ أباها، وأن آلام الولادة باغتت البيبي بعد يومين من سفره في رحلته الأخيرة، استمرت آلامها في

تصاعد لا يطاق مدة يومين دون أن تظهر علامات على قرب الولادة، وفي اليوم الثالث، والبيبي تعتصر فراشها، وتكاد أن تقطّع شفتيها من شدة الألم، رأت غزلان أن البيبي ما عادت تحتمل فرجتها أن تسمح لها بالذهاب إلى (مس ميري) في مستشفى السعادة فتجلبها، إلا أن البيبي أصرّت أن لا تولدها إلا العودة، قالت لها: «روحي للعودة، قولي لها: البيبي ولادتها متعسرة».

ركضت غزلان في الدرب القصير بين الباغ والحارة غير منتبهة إلى أنها خرجت دون نعالها وسط القيظ فصارت من شدة الحرارة تتقافز في الدرب، لقيت فضيلة وحميدة عند الباب، فقالت لهن: «غِيْثْنّي، البيبي متعسرة ولادتها، وبين حياة وموت».

استنجدت بهن لكنها لم تتوقف بل ركضت عائدة إلى الباغ، وصلت البيت فلقيت البيبي غارقة في لجة من عرق تكتم صراخها وضفائرها الطويلة محلولة، عيناها كالجمر، وطرف فراشها في فمها تعض عليه حتى تقطع.

غلت غزلان الماء وأعدت الخرق النظيفة.

بعد قليل دخلت العودة برفقة حميدة وفضيلة، واحدة تقودها والأخرى تحمل عنها صرة الدواء. جلست القرفصاء ومدت يديها لتلمس بطن البيبي التي كانت تلهث بقوة من شدة الألم، قالت العودة إن الجنين غير مستوٍ؛ فبدأت في تمسيد بطن البيبي بزيت أخرجته من صرتها، وسكبت منه في راحة يدها، حركات يد العودة على البطن المنتفخ حانية وقوية، تفرد راحتيها على البطن ثم تعود فتلمّ أصابعها، وكأنها تلمّ شيئا قد تبعثر، كانت تفعل ذلك مرّة تلو المرّة، وهي تعيد توجيه رأس الجنين نحو الرحم؛ حتى يأخذ طريقه إلى الدنيا.

بعد أن اطمأنت العودة إلى عودة الجنين إلى مكانه الصحيح، قربت منها النساء طاسة، وسكبت عليها الماء حتى تتخلص راحتاها من فائض الزيت.

تتابعت موجات الألم وزاد لهاث البيبي، ندت عنها صرخة فأمرتها العودة بالمباعدة ما بين فخذيها والتوسيع للطفل الذي سيخرج، ثم أمرتها بكتم صرختها لتوفير طاقتها للدفع به إلى الخارج.

أسندت غزلان ظهر البيبي بيديها القويتين، وزفرات البيبي تتلاحق، بعد قليل خرج الماء والدم مختلطا فأغرق الفراش تحتها، ثم ندّت عن البيبي صرخة قوية، فخرجت الطفلة لتتلقفها يدا العودة اللتان كانتا تنتظران خروجها عند باب الرحم.

خرجت الطفلة للدنيا زرقاء، مغمضة العينين وبلا صوت، حتى صفعت كف العودة ظهرها؛ فخرج الماء من فمها وتعالى منه الصراخ.

«قالت العودة بنية، والبيبي تريد الولد، لكنها حمدت وشكرت، وناولتني مزنة، ذبلانة المسكينة ومتجعدة كما شُوب[36] التين».

* * *

أرسلت البيبي غزلان لبيت ريّا في ميابين ودعتها لزيارتها، قالت لها إن البيبي سمعت من العودة عن حسن قراءتها؛ وتطلبها لتعليم البنات، لكن ريّا ترددت ولم تتعجل إجابة الدعوة بل طلبت مهلة حتى تستأذن زوجها.

أخذت المهلة أشهرا، وعلي الذي شجع ريّا على الذهاب إلى بيت الباغ لم يكن يعرف شيئا عن الزيارة الأولى، ولا عن سوء الاستقبال ولا الإهانة التي أحستها.

قال لها: ما شي باس، علميهن تكسبي فيهن أجر.

أخبرته ريّا بما جرى بينهن في حادثة الحليب، فضحك، وقال: «الرأي

---

36. شوب: ثمرة.

عندي تسيري، وتشوفي، وإن عجبش المكان والمعاملة وطابت منش النفس علمتيهن من علم الله، وإن ما عجبش حالهن وأحوالهن خليتيهن، وجزاش الله الخير في النية قبل العمل».

ارتاحت نفس ريّا لكلام زوجها، إلا أنها مع ذلك لم تجب دعوة البيبي إلا بعد أشهر.

غابت ريّا في الوحام فافتقدت العودة زياراتها الصباحية لها، انتظرت أسبوعا ثم أمرت نساء البيت بالذهاب إليها وعيادتها، فوجدنها راقدة في فراشها، واهنة ولا تقوى على الحركة، عدن فأخبرن العودة ما وجدنه من حالها، فأمرتهن أن يتناوبن على زيارتها وخدمتها وأن يحملن إليها الأكل المطبوخ دون بهارات، وأن يصنعن لها أقراص العجين، الذي كانت تحليه بنفسها بعسل السمر، الذي كان أهلها يرسلونه لها من وادي السرين.

اعتنت النساء بريّا فتوقفت عن قذف كل ما يصل جوفها، وتخلى عنها الوهن تدريجيا فعادت إلى أعمالها في البيت وحركتها.

لم تتوقف نساء بيت الوادي عن التناوب على زيارتها والاعتناء بها، حتى تجاوزت شهورها الأولى واستقر حملها.

عندما شعرت بأنها قد استعادت عافيتها تماما، قالت لزوجها بأنها قد عقدت العزم على الذهاب لتعليم بنات البيبي القرآن، قالت له: «نذرت لو أني خرجت بالسلامة من ذا الوحام أني بعلمهن لوجه الله تعالى». قالت: «يمكن لو علمتهن تكثر كلمة الله وهن يرددن سور القرآن وراي، ويوم تكثر كلمة الله يمكن قلوب الناس ترق، وفودتهم تبصر الحق، وتغشاها الرحمة».

طرقت باب البيت ففتحت لها غزلان هاشة ضاحكة، ومضت أمامها في تهاديها وغنجها، تبعت ريّا وقاية غزلان الحمراء بوريْداتها النيلية وهي تكنس

الأرضية النظيفة بخفة، قطعت الليوان الواسع المبلط بالحجر، حتى وصلت عند باب في طرفه الشمالي، وقفت عند باب الحجرة قليلا حتى أومأت إليها غزلان بالدخول فدخلت الحجرة التي وجدتها مفروشة بالسجاد.

وقفت ريّا عند الباب تدير بصرها في المكان فوجدته مزينا بروازن كثيرة محفورة في الجدران على جانبي الحجرة. صُفّت على الرفوف التي على يمينها أكوابٌ وصحون من الصيني الأبيض، رُسمت عليها ورودٌ حمراء تكاد من فرط حمرتها أن تتمايل على أغصانها الخضراء الدقيقة، أما التي على يسارها فقد صُفت عليها أكوابٌ وصحون زرقاء بورود بيضاء دقيقة.

جالت بنظرها في المكان فوجدت روازن لا تحمل رفوفها إلا مباخر الفخار الملونة، ومرشات ماء الورد المصنوعة من المعدن، تزينها رسومٌ لطواويس وورود كبيرة، وعُلّقت في الفراغات بين الروزنة والروزنة مرايا طويلة، مزينة برسومات من ورد وأغصان كُتب أعلاها بخط جميل عبارات: «لا إله إلا الله» و«محمد رسول الله» و«علي ولي الله».

في واجهة الغرفة أمامها اتكأت على الجدران البيضاء وسائد كثيرة، مكسوة بأقمشة من الحرير الملون بالأخضر والأزرق والوردي والأصفر ومشغولة بخيوط البريسم والذهب والفضة.

تضج الغرفة بخليط من الروائح، تستطيع أن تتعرف فيه إلى رائحة الياسمين الموضوع في صحون صغيرة على رفوف الروازن، ورائحة بخور اللبان الذي يعبق به البيت، ورائحة أخرى خفيفة تشبه حزنا معتقا تماما كرائحة المسك.

وقفت ريّا لوهلة عند الباب مأخوذة بجمال تلك الغرفة وطيب رائحتها، يدخلها الضوء من أربع نوافذ مستطيلة تطل على البستان فيشرق فيها بوفرة.

رأت ريّا البيبي تجلس في صدر المكان، تلبس ثوبا من الحرير الأصفر، عليه ثوبٌ آخر من قماش أخضر خفيف، مطرز بخيوط من الذهب عند الصدر وعلى الأكمام الواسعة والحواشي.

كانت البيبي تجلس وقد مدت ساقا ووضعت الأخرى عليها وفي يدها قطفة ريحان، تقربها من أنفها وتشمها وهي غافلة عما حولها.

لحظات وانتبهت البيبي لدخول ريّا، فنهضت لها وتبادلتا التحية، لكن البيبي لا تحيي كما يحيون ولا تتبادل شم الأكف كما تفعل النساء في البلاد، بل تستعيض عن كل ذلك بالمصافحة بكف ممدودة ثم بوضع الخد على الخد.

طلبت منها أن تجلس قربها فجلست وهي راضية بحسن الاستقبال، سألتها البيبي عن أحوالها وحملها الذي صار ظاهرا، وعمّا سمعته عن مرضها في الفترة الأخيرة.

كانت البيبي تسألها بلهفة وكأنها تريد أن تجسر بالسؤال الهوة التي حدثت بينهما في أول لقاء لهن.

بعد قليل دخلت غزلان بصينية من الفضة عليها كؤوس من الزجاج الملون، أخذت البيبي كأسا وناولتها، قربته ريّا من فمها وتذوقت الشراب البارد فلم تعرفه لكنه أعجبها، فشربته في جرعات صغيرة فرحة.

بادرتها البيبي:

- أولا، بغيت منش المسامحة، ما قابلتش في المرة الماضية المقابلة اللي تستاهلين؛ لكن غزلان مثل ما تعرفين كانت مريضة، وكنت بروحي في البيت، وأني أركض ورا البنات، هذي طايحة وهذي تصيح.

- مسموحة.

- أما الثانية، خبرتني العودة عن قرايتش وزين صوتش ونطقش، قالت ما سمعت أحد يقرأ مثل ريّا بنت سيف.

- علمني أبوي من علمه مع الإمام.

- وأني الحين أطلب منش تعلمين البنات، أشوف أنه أحسن يتعلمون القرآن ويعرفون ربهم ويفهمون أمور دينهم قبل دنياهم. مهرة وسعاد فقدوا أبوهم صغار وكبروا بلا أخو ولا حامي، أما مزنة فما شافته أبدا وبعدها صغيرة وبتكبر وبتلحق عليهم. ويش رأيش تجين كل يوم أول الصبح لين بعد الضحى، وأجرتش في الشهر عشر ربيات.

- إن كان يناسبكم بجي من بعد الضحى لين صلاة الظهر، كذا أنسب لي ولشغل بيتي، وأجري على الله.

- أما الوقت فعلى راحتش، وأما أجرتش فعلينا عشر ربيات، وأجرش على الله عنده.

بعد قليل دخلت غزلان بدلة القهوة في يسارها، والفناجين البيضاء الصغيرة في يمينها، شربت ريّا القهوة الخفيفة المغلية بالزعفران على مهَل، ثم قامت واستأذنت للذهاب.

خرجت ريّا من الباغ راضية هذه المرة وفي خطواتها وقع فرح خفيف، وكأن البيبي قد غسلت بحسن استقبالها وحديثها ما بقي عالقا في نفسها من الزيارة الأولى.

* * *

عادت ريّا إلى بيت الباغ كثيرا بعد ذلك، علّمت البنات في الغرفة البديعة نفسها التي استقبلتها فيها البيبي أول مرة، غرفة تستقبل الضوء بفرح، وتعكسه في التفاصيل الدقيقة التي تزينها.

صباحات كثيرة قضتها تُعلّم البنات مخارج الحروف والنطق السليم، تكسر الحروف ثم تحييها بالرفع والضم.

بدأت معهن من سور الصلاة القصار ثم عادت بهن إلى سورة البقرة وأخذتهن في التفسير والحكمة وقصص الأنبياء.

مهرة وسعاد متقدات الذهن وإن بدا على مهرة بعض الشرود أحيانا، لكنها كانت ما تلبث أن تستجيب لتنبيه المعلمة وتعود لمصحفها، أما سعاد فكانت سريعة الحفظ حاضرة البديهة لكنها لا تكف عن مناكفة أختها أثناء الدرس وبعده.

لم ترث أيّ منهن جمال أمها، مهرة سمراء نحيلة خجولة وقليلة الكلام، لكن لها صوت عذب في التلاوة. أما سعاد فقصيرة تميل للامتلاء، لها عينان ضاحكتان وشفتان كأنهما خلقتا من أثر ابتسامة فلا يُرى على وجهها عبوسٌ قط.

وكانت البيبي، التي عرفت ريّا بعد شهر تقريبا من ترددها عليهم أن اسمها في الأصل (نرجس)، تحضر بعض الدروس مع بناتها، وتردد معهن الآيات وتحفظ مثلهن السور، وغالبا ما تجلس المرأتان لشرب القهوة بعد الدرس فيذهب بهن الكلام بعيدا.

كانت ريّا تجيد الإصغاء كما تجيد القول الطيب، الذي تُزيّنه بالآيات، وبأحاديث الرسول، وسير الأولين وحكمهم، وكانت البيبي تصغي بانتباه وتقول لها عند انتهاء كل حديث: «كلامك حلو ودوم يطيب الخاطر».

مع الوقت أيضا تخلت البيبي عن حذرها مع ريّا وفتحت لها قلبها وذاكرتها وحكت لها حكايتها واستفاضت، فأخبرتها كيف أن زوجها رحمه الله كان تاجرا ورث التجارة عن أبيه كما ورث عنه صداقة أبيها، حكت لها

عن لقاء أبويهما في المكلا باليمن، وكيف أن الرجلين تصاحبا طويلا في السفر وصارا صديقين وشركين في التجارة.

حكت لها كيف أنه عندما مات الأب حل الابن محله في التجارة والسفر، وكيف أنه في أحد الأسفار قرر الابن أن يرافق أباها إلى البحرين فاستضافه في بيتهم في البلاد القديم، حيث رآها هناك صدفة تلعب مع أخواتها أمام بيتهم في البلاد القديم وهي بين طفولتها والبلوغ فوقعت في قلبه، وطلبها من أبيها الذي أرجأ الأمر سنة أو سنتين حتى تبلغ مبلغ النساء فيسألها.

ثم كيف أنه عاد بعد سنتين وكانت قد بلغت حينها مبلغ النساء ونضجت فسألها أبوها فوافقت.

كانت تعرف أن رجلا من عمان يسمى إسماعيل بن عيسى قد خطبها، كانت تعرفه في كلام أبيها فقط، لكنها لا تعرفه ولا تتذكر ملامحه، زيّنه كلام أبيها عنه في عينيها فأحبته دون أن تجالسه.

«كان الله يرحمه رجال جميل وقوي حتى لو كان يكبرني بعشر سنين أو يمكن أكثر شوي، وما كان ينشم منه إلا ريحة عطر الورد، وكان طيب ونفسه كريمة، وما بخل علي بشي أبدا، وكان يحب البنات واجد، ويحب يلاعبهم، وكله يفرچهم بالصوغات إلي يجيبها وياه من السفر، لكن أني كنت أدري أنه كان ينتظر مني ولد».

سكتت قليلا، وأغمضت عينيها كأنها تستنشق رائحته، ثم تنهدت، وأكملت «زفوه علي في بيتنا في البلاد القديم وبقينا مع أهلي شهر وشوية، بعدين ركبنا الباخرة وسافرنا، مرينا الدوحة ودبي، وبعد أسبوع وصلنا مسقط، وصلتها وأني حامل بمهرة».

«سكنا فهالبستان وكتبه باسمي وسماني في عقد الزواج (سكينة) ونسيت نرجس، بعدين ناداني الخدم البيبي ونسيت سكينة».

«كان رجال طيب لكنه كان واجد يغار، وحرم علي الخروج إلا للمأتم أو لمستشفى السعادة أو للحاجة الشديدة، والبيت الوحيد لي كنت أدخله هو بيت الوادي لما أروح أزور العودة».

«يوم وصلت بيت الباغ شفت فيه فاضل وعروس الله يرحمها وبنتها غزلان. فاضل ماسك الباب وهو اللي يهتم بالبستان. لكن عروس هي لي اهتمت فيي أول ما وصلت وصارت لي مثل الأم تعلمني وتداريني، أما غزلان بنتها فمن سني وكبرت ويايي وصارت رفيقتي وإيدي ورجولي برا البيت».

«إسماعيل الله يرحمه كان يسافر واجد وكله في أشغاله، وكنت أظل بروحي شهور طويلة. قلت له أكثر من مرة ودني أزور أهلي، لكنه كان يوعدني سنة ورا سنة، يقول من تصير صحتش أحسن بآخذش ونروح ليهم، لكني كنت كله مريضة، حملي كان صعب وولادتي أصعب، جبت ليه البنات وكان يبغي مني ولد، بعد سعاد ومهرة سقطت مرتين والولد ما جا، تأخر واجد لين جات بداله مزنة وهو بعده ما جا».

«من تركت البحرين ما شفت أهلي، بس أبوي جا قبل سنين وزارني، جاب لي معاه صوغة وأخبار وجاب لي معاه تصاوير لأمي وخواتي، فزاد شوقي ليهم ولفريقنا وبيتنا اللي عند مسجد الخميس، واشتقت لعين قصاري والدواليب وضحكنا وركضنا فيها، تمنيت أرجع معاه، لكني سكتت وما قلت ليه، سافر وأنا خاطري أكون ولو خيط في ثوبه بس أرجع معاه البحرين».

«لكن أبوي سافر ومن سافر ما طول، جاني إسماعيل في يوم وخبرني انه استلم برقية مكتوب فيها أن أبوي توفى -الله يرحمه - ساعتها عرفت أني صرت وحيدة وأنه ما بقى لي غير إسماعيل فهالدنيا، رجل وبيت، وأنه ما بقى لي غير الباغ بلاد».

«تعودت على المكان وعلى سفر إسماعيل، وفي سفرته الأخيرة كان رايح البحرين، وكنت أنتظره بشوق وقلبي ملهوف على أخبار ديرتي وأهلي، لكنه ما رجع، ركب الباخرة والباخرة غرقت به بين البحرين ودبي».

«ولما توفى عرفت أن له مرة ثانية تسكن في بلاد بعيدة اسمها (بركا) ما خبرني عنها ولا أن له أولاد من مرة غيري، ولما مات إسماعيل جوني أولاده البستان يطالبون بمال أبوهم، أخذوا حقهم وفوقه حق أخواتهم ظلم، ولو ما البستان مكتوب باسمي خذوه مني ورموني أنا وأخواتهم للناس تاكل لحمنا».

«بقى لي هالبستان وغزلان وفاضل، يرعوني ويحرسوني، أما العز اللي تشوفينه هنيه فهو من تجارة أبوي، تشغلها أخواتي وأزواجهم في البحرين ويوصلني نصيبي منها كل سنة».

«ما أطلع من البيت إلا رايحة ليلة عاشوراء أو قراءة في المأتم أو أزور العودة، لكن النسوان في مسقط يعرفوني ومرات يجون يزورني. ما صادقت أحد وما قربت أحد، لكني ما منعت الناس عن بيتي، بس العودة هي الي حبيتها من عرفتها، من لما جابتها عروس أم غزلان تولدني بمهرة، حسيت بمحبتها وهي تاخذني بالراحات لين الله سهل علي وقمت بالسلامة، ولما شافتني ضعيفة وتعبانة ما خلتني وقامت على نفاسي أربعين يوم تماما مثل الأم، كل يوم تجيني تهتم بصحتي وتخبر عروس ويش تطبخ لي، لين صارت صحتي زينة وقمت من الفراش. إسماعيل حاول يعطيها ربيات أجرة تعبها لكنها رفضت وأتذكر وقفتها عند الباب كاني أشوفها الحين وهو ماد إيده يبغي يعطيها الفلوس، قالت ليه: «يا ولدي نحن ما نأخذ أجرة، ولا نشتغل في بيوت الناس، لكننا نساعد المحتاج، ونسهل الصعب، ونشفي بعلم الله وعونه المريض».

حبيتها لطيب نفسها، وحنانها، ويمكن لأنها هي حبتني ورعتني، وما خلتني ولا تخلت عني لا في ولاداتي ولا في أيام عزا رجلي الله يرحمه ولا لما عرفت أن له مرة وعيال، ولا لما رحت اليها أركض مستجيرة من أولاد إسماعيل لما اشتكوا علي عند القاضي، وهي جزاها الله ألف خير ما قصرت، وقفت وياي، ولما احتجت لشهود على حقي وحق بناتي في البستان كان زوجها وأولادها هم الشهود، ويشهد الله أنهم ما شهدوا زور وكل الورق اللي عندي صحيح، مكتوب بخط إسماعيل ومختوم بختمه».

«لكني بعد موته وهجوم أولاده على البستان صرت أخاف من كل شيء، حتى من الحليب إللي يشربونه بناتي، وصيت العودة وقلت ليها ما حد يحلب لي غيرها، ولازم تغسل الضرع، وتصك على الحليب في ماعونه بالمفتاح اللي عندها، صرت وسواسية وأخاف أخلي البستان وأروح أزور أهلي وأرجع ألقاهم خذوا البستان وحق بناتي غصب».

«البنات يكبرون يا ريّا، وأني صارت رجعتي للبحرين أصعب، يمكن مع الزمن الوحدة منا تتعود على المكان وعلى ناسه، فيصير مكان أولادها مكانها وناسهم ناسها، مو صدق؟ أنتين مثلي غريبة عن مسقط وتعرفين قصدي».

* * *

كانت ريّا إذا ما ذهبت إلى بستان البيبي تأخذ زاهرا معها، تحمله على خاصرتها وهو رضيع، ثم عندما تعلّم المشي صار يعلق يده بيدها، ثم كبر فأفلت اليد وصار يركض أمامها.

كان له وجه دائري وحاجبان تقرنهما بالزعفران وعينان ذكيتان، وكان متى ما دخل البيت تتلقاه البنات باللعب والضحك، وعندما يبدأ الدرس تأخذه البيبي أو غزلان فتلاعبه في البستان هو ومزنة التي كانت تكبره بحوالي سنتين.

في البداية أظهرت مزنة غيرتها من القادم الجديد ومن اهتمام أمها وأخواتها وغزلان به، حتى إذا ما عرف المشي صار رفيق لعبها في البستان وكاتم أسرار شقاوتها.

كبر زاهر في بستان البيبي، تحرسه نساء البيت وبناته بمحبة، وعندما حان درس مزنة أجلته ريّا سنة لكي يدرس معها ويحفظ القرآن معها، بعد أن أتما حفظهما أقيمت لهما التويمينة[37] في البستان عوضا عن الحارة، وحفتهما فيها سعاد ومهرة وغزلان وفاضل والبيبي عوضا عن الأطفال الذين يرافقون مواكب التويمينة في العادة، ونقدت البيبي كل واحد منهما قرش فضة.

أحبته البيبي كالابن الذي لم تنجبه، وكانت كثيرا ما تردد لريّا «بناتي ما ليهم أخو غير زاهر».

لكن زاهرا كبر ودخل السعيدية فما عاد يرافق أمه يوميا في ذهابها إلى هناك، وإن ظل يزورهم أيام الجمع ويسابق مزنة حتى طرف الحوش، فعل ذلك حتى خط شاربه، فما عاد يدخل البستان كما كان يفعل دون استئذان، وما عادت مزنة رفيقته في اللعب كما كانت.

كبرا وكبر الشوق بينهما.

37. التويمينة: الاحتفال بإكمال حفظ القرآن.

9

طالت مدة احتلال بن عطيشان للحماسة، وفي لندن وواشنطن كتب الإنجليز المذكرات عن الطرف العماني والأمريكان عن الطرف السعودي، مستعينين بالبيانات التي جمعها رحالتهم وجواسيسهم من المنطقة، عن القبائل وأعدادها وآبارها وتاريخ استقرارها، رفعت المذكرات إلى مجلس الأمن ولكن لم يبت في الأمر.

في تلك الأثناء توفي الإمام محمد بن عبدالله الخليلي الذي كان شيخا متقدما في السن، واختير الشيخ غالب بن علي الهنائي إماما لما عرف عن ورعه وعلمه ولتوصية الإمام به قبل وفاته، والتف حول الإمام الجديد أخوه الشيخ طالب بن علي، والشيخ سليمان بن حمير النبهاني.

في أكتوبر 1955، غادر السلطان قصره في صلالة عابرا الربع الخالي إلى البريمي لطرد ابن عطيشان من الحماسة بعد أن وجد أن موضوع التحكيم في مجلس الأمن غير ذي جدوى، وأن الموضوع برمته ليس أكثر من مماطلة يروم بها الإنجليز عدم الدخول في مواجهات مباشرة مع حلفائهم الأمريكان الذين كانوا على الجهة الأخرى في أرامكو ينقبون عن النفط السعودي، ويغتنون به.

عبر السلطان سعيد الربع الخالي مع عسكره، لكنه عندما وصل إلى نزوى قرر الاستيلاء عليها، وإزاحة الإمام الذي لم يكن يروق له ولا لأعوانه، وبمساندة الإنجليز احتلت قوات عمان ومسقط الميدانية أدم وفرق في 14 ديسمبر 1955 دون سقوط قتلى، وفي الخامس عشر من ديسمبر أصدرت حكومة السلطنة بيانا تعلن فيه قيام قوات سلطنة مسقط وعمان بالقضاء على مؤامرة تهدد سيادة السلطان سعيد، والعثور على وثائق مكتوبة تؤكد ضلوع بعض المشايخ في التخطيط لها بدعم مالي وعسكري ودعائي من دول أخرى.

تبع هذا بيان آخر يعلن دخول قوات السلطان إلى نزوى دون مقاومة تذكر، ورفع علم السلطنة على قلعة نزوى.

جاء هذا البيان بعد دخول ممثل السلطان للقلعة والاستيلاء عليها.

بعدها توجه السلطان إلى البريمي، وتمت المواجهة بين كتيبة كشافة ساحل عمان المتمركزة في أبوظبي وتحت القيادة البريطانية مسنودة بقوات السلطان المسلحة مع ابن عطيشان، فخرج بن عطيشان من الحماسة، وانتهت أزمة البريمي.

* * *

تمركزت قوات مسقط المسلحة في الداخلية، وتم إحلال حامية مسقط مكان قوة مسقط وعمان الميدانية في البريمي.

لأول وهلة بدا السلام مستتبا، وأن البلاد صارت كلها في قبضة السلطان، إلا أن كل هذا كان مؤقتا، ففي السعودية كان الشيخ طالب الهنائي ومعه الشيخ صالح بن عيسى الحارثي يعملان على جمع المساعدات، والتعاطف العربي والدولي.

وبالفعل تمكنت قوى الإمامة من الحصول على دعم سياسي وعسكري، ومالي كبير من السعودية ومصر والعراق وبعض الدول العربية، وفي مخيمات التدريب قرب الدمام جهّز حوالي 500 رجل ليكونوا (جيش تحرير عمان)، نواة الثورة القادمة.

في بدايات 1957 تسرّب الكثير من رجال جيش التحرير عبر البر والبحر إلى داخلية عمان؛ ليشعلوا فتيل الثورة التي كان الكثير من أنصارها ما يزالون في حالة سكون في داخل عمان وبين قبائلها.

في الرابع عشر من يونيو وصل الشيخ طالب إلى عمان، ونزل إلى اليابسة عند خور ضيان في السويق من بلاد الباطنة، ومعه عدة مئات من الرجال المدربين والمسلحين جيدا بالبنادق الأوتوماتيكية، والألغام التي سرعان ما زرعت في الطريق المؤدية من مسقط إلى الداخلية لضمان عرقلة أي تقدم لقوات جيش عمان.

في بلدة أسفل جبل الكور اجتمع الشيخان الأخوان طالب وغالب ورجالهما، وأعلنت الثورة من هناك بشكل رسمي.

فوجئ السلطان سعيد بهذه الثورة التي لم يُقدِّر قوتها، وحسن تدريبها في البداية، وبدلا من أن يخاطر بمواجهة مباشرة أمر بتدمير بلاد سيت أملا في ضمان عدم مشاركة قبيلة بني هناة في الثورة، وأيضا لإرغام الشيخين على الخروج.

بدأت المناوشات تزداد سخونة، وسقط الكثير من رجال جيش عمان في كمائن جيش التحرير وبرصاص قناصته، ووصلت الأخبار بأن جيش التحرير قد قام بتلغيم كل طرق مواصلات الجيش.

في تلك الأثناء وصلت كتيبة مسقط عبر سمائل، وعززت بفرقة من كتيبة شمال عمان المرابطة في صحار.

لكن مع كل تلك التعزيزات استولى الشيخ طالب على حصن بهلا، وانسحبت كتيبة شمال عمان من بلاد سيت إلى الردة، وبقي الطريق مقطوعا عن الحامية في قلعة نزوى. أما رجال بني ريام فقد دافعوا عن تنوف باستماتة، ولم يسمحوا لقوات السلطان بدخولها، وقاموا بقطع الطريق بين مسقط وفرق.

توالت انتصارات (جيش تحرير عمان) وانهارت قوات السلطان، وعندما وصلت الأنباء عن انسحاب كتيبة شمال عمان إلى فهود وفرار والي السلطان على نزوى، استسلم الفصيل الحامي لقلعة نزوى بسهولة لجيش التحرير.

بعد انتصار جيش تحرير عمان في نزوى، أمرت كتيبة شمال عمان بالعودة إلى معسكرها في فلج القبائل لإعادة تشكيل نفسها وانتظار الأوامر.

وصلت الكتيبة إلى صحار ممزقة ومنهكة، وقادتها غير قادرين على فهم ما جرى أو قبوله.

كان لجيش تحرير عمان الغلبة، كان رجاله مدربين ومسلحين تسليحاً جيداً، وكانوا أهل البلاد وأدرى بها، وهذا ما لم يدركه لا السلطان ولا قادة الكتائب من الإنجليز.

عاد راشد مع الكتيبة إلى فلج القبائل، ما أصابته رصاصة وما مزقه لغم، لكنه رأى رفاقه وهم يتساقطون؛ سليم بن علي، وسعيد بن ناصر، وعلي بن عدي، تساقطوا أمام عينيه أو تمزقت أجسادهم أشلاء في انفجار لغم.

بعضهم مات من فوره، وبعضهم تردد صراخه في بطون الوديان حتى ضجت به الشعاب، رأى اختراق رصاصة عين سليم بن علي، وما كان يبعد عنه أكثر من ثلاثة أمتار، رأى أحشاء سعيد بن ناصر مندلقة على حصى الوادي، رأى أشلاء علي بن عدي تتناثر في الهواء بعد أن تفجر لغم تحت قدميه.

عاد راشد إلى فلج القبائل لكنه لم يعد.

هم أخوة، القاتل والمقتول أخوة، هو عسكري عماني في جيش السلطان، والذين في مواجهته عمانيون مثله، خرج في جيش السلطان، وخرجوا هم لنصرة الإمام.

أي الرجلين على حق؟

هذا يحكم باسم الدولة وإرثه المستحق، والآخر باسم الله ورسوله، وكل يدَّعي أن الأمر له.

هذا يقول: سأوحد البلاد، وستنعم بالتنمية والخير بعد تسديد الديون، وتصدير النفط، وذاك يقول بالمثل وأكثر.

تذكر عليا وهو يودعه «يا راشد، العمانين من الساحل حتى عمان الداخل صابرين على الجوع والمرض، أو متغربين في بلاد الناس يدوروا رزقهم».

«ضاقت عمان بناسها، وهانوا على الخلق في بلاد الخلق».

سأله: مع من أنت يا كاتب السيد؟ فأجابه «أنا ما مع حد ولا ضد حد، أنا بس أوصفلك حال البلاد وأحوال ناسها، شوف، الرجال بو يسافروا يشتغلوا في البحرين والكويت والظهران، يشوفوا بلاد ثانية، بلاد غير عن بلادهم، عندهم مستشفيات، وعندهم مدارس، وعندهم شوارع، وعندهم سيارات وعندهم وعندهم، أكيد تدخلهم الغيرة، ويبغيوا بلادهم كما بلاد الخلق».

«الرجال يسافروا مضطرتنهم اللقمة، ويشتغل أكثرهم مزارعين ونواطير، ما يقدروا يرفعوا عيونهم في عيون الناس، ويعرفوا أنه من عاملهم زين تراه عاملهم شفقة».

عاد راشد إلى المعسكر في فلج القبائل لكنه ما عاد إليه كما ذهب، هو ممزق بين الدماء والأشلاء والولاءات والأفكار والأسئلة.

لكنه عسكري، عسكري في جيش السلطان، والعسكري لا يسأل، العسكري يستجيب للأوامر وينفذ، ينفذ فقط.

على العسكري أن يلتزم برايته وبأوامر قائده فقط، أما الآخرون، الذين كانوا إخوته فقد صاروا اليوم أعداءه.

في الحرب أنت إما قاتل أو مقتول، لا رحمة في الحرب ولا شفقة، إن ترددت رصاصتك أردتك رصاصة، وإن ثقلت خطوتك أو سارت في الدرب الخطأ تفجر لغم تحت قدميك وفتتك، اِبقَ مع فصيلك، أطِع الأوامر، واحفظ السر.

استقرت الكتيبة بعض الوقت في فلج القبائل حتى جاءت الأوامر بالعودة إلى المواجهات في نزوى وما حولها من البلاد.

* * *

في السادس عشر من يوليو عام 1957 تقدم السيد سعيد بطلب إلى القنصل العام البريطاني جاء فيه:

«أنتم على معرفة تامة بالوضع في نزوى، وأشعر أن الوقت قد حان لطلب مساعدتكم العسكرية القصوى، ودعمكم الجوي الذي بإمكان الحكومة البريطانية الصديقة أن تقدمه في هذه الظروف، كما فعلت في ظروف سابقة مما عزز أوصار الصداقة، والتي أحمل تجاهها كل مشاعر العرفان، سأكون شديد الامتنان إذا ما حصلت على مساعدتكم مرة أخرى كي نصلح الوضع، وكي نتمكن من تجنب فقدان المزيد من الأراضي، والمزيد من الثقة.

إن الأحداث تتسارع على الأرض بحيث أن السرعة التي ستقدمون بها الدعم في أهمية الدعم نفسه، وسأكون ممتنا إذا ما رفعت هذا الأمر لحكومة جلالتها بسرعة».[38]

حصل السيد سعيد على الدعم الذي طلبه.

وصلت فرق بنادق الكاميرون الإسكتلندية، وطائرات الفينوم المقاتلة، وطائرات شاكلتون للتصوير الجوي والاستطلاع، وسيارات الاستطلاع والمدرعات، وصلت التعزيزات من البحرين وكينيا ومالطة والشارقة وعدن.

قُتل الكثير من الثوار، واحتمى القادة الثلاثة بالجبل الأخضر، ومعهم عدد ليس بقليل من الثوار، وتحصنوا بقريتي سيق والشريجة، أسقطت الطائرات البريطانية المنشورات التحذيرية على القرى، ثم هوجمت القريتان بطائرات الفينوم، فهدمت القرى، وقتل خلق كثير.

بدا أن السلطان سعيد قد انتصر في 1957، لكن المنافذ التي يتسرب منها الرجال والعتاد على طول الصحراء لم تغلق، وبقيت مفتوحة، ولم تنجح كل المحاولات لاغتيال أو إلقاء القبض على القادة الثلاثة المتحصنين في كهوف الجبل الأخضر.

في الأمم المتحدة طرحت مسألة تدخل الحكومة البريطانية في عمان، وبدا الأمر مثيرا للقلق فكان على الإنجليز أن ينسحبوا بسرعة قبل أن يُعرض الأمر على مجلس الأمن.

المسألة العمانية كانوا يسمونها، لكن المسألة لم ترفع أبدا، وتوقف السؤال عند مناقشة بسيطة، وعلى إثرها أغلق الموضوع.

---

38. النص ترجمة الكاتبة عن الأصل كما ورد في كتاب ثورات عمان لجي.إي. بترسون.

10

استيقظت ريّا وكفها اليمنى مضمومة بقوة، فتحت كفها فوجدتها مطوية على حفنة من ورق السدر، قربتها من أنفها وشمت فيها رائحة لا تشبه رائحة السدر في شيء.

تذكرت ليلة البارحة، الطرقات العالية على الباب بعد أن ذهبوا إلى النوم، المرأة الغريبة الواقفة عند الباب عندما فتحته، المرأة التي خيل إليها أنها كانت تشبهها، ولكنها لا تشبهها.

تكلمت المرأة دون صوت لكن ريّا تبعت إشارتها، أخذتها في دروب لم تعهدها، وأدخلتها بيتا له باب منخفض اضطرها أن تنحني لتلجه، وما إن دخلت حتى وجدت نفسها في حوش فسيح، رفعت رأسها للسماء فلم تجدها، لم يكن هناك ظلام، ولم يكن هنالك نور.

كان في البيت بكاء لا تعرف من أين يأتي، لكنها تسمعه، وكأنه يخترق الجدران أو يأتي من الأرض تحتها، اجتازت الحوش والليوان ودخلت حجرة ما دلها أحد عليها.

رأت على الأرض فتاة مسجاة، في ملابسها بلل، وفي شعرها الطويل

المفروش تحتها ماء كثير، وكأنها خرجت لتوها من الحوض، لكن أين هو الحوض؟

قالت لها المرأة الغريبة آمرة: ولّديها.

جسّتها، كانت باردة ولم يكن في جسدها علامات حمل.

قالت ريّا: كأنها ميتة.

أمرتها ثانية: ولّديها.

فأدخلت ريّا يديها في رحم الفتاة، وأخرجت طفلا، كان الطفل أزرق.

فجأةً ملأ صراخ الطفل البيت؛ لكن لونه لم يتغير، وكأن الهواء لا يدخل رئتيه، وكأن الصراخ يخرج من الفم وحده، وكأن الفم مغارة تمتلئ بالهواء فيرتد من على جوانبها ولا يتعداها.

فتحت الفتاة عينيها، نظرت بعتاب عميق لريّا، وكأنها بإخراجها الطفل منها قد ذكرتها بشيء لا تود تذكّره، أو كأنها هتكت سترا أو كشفت سرّا.

جلست الفتاة، واتكأت على جذع غافة نبتت خلفها تواً في تلك اللحظة، وأخذت منها الطفل ووضعته على صدرها، ناولته ثديها فسال الحليب.

كان الطفل يرضع بشراهة، والحليب يزداد غزارة ويفيض. فاض الحليب حتى سال وغطى ثياب الأم ولم تكترث، سال حتى كساها فصارت بيضاء متوهجة.

ريّا مخطوفة البصر، ترى وفي قلبها فهم لا تدركه.

أشارت إليها المرأة أن اتبعيني وغادرت الحجرة، ترددت ريّا قليلا. لسبب ما أرادت أن تبقى، لسبب ما أرادت أن تعتذر للفتاة؛ لكنها ما استطاعت أن تعصي الإشارة فقامت وتبعتها. وكما في الذهاب كان الرجوع، دروب تفضي إلى دروب، وسير لا ينتهي.

بعد مسير طويل وقفت المرأة تحت سدرة تعرف ريّا أنها تعرفها لكنها تنكر مكانها.

سحلت المرأة ورق السدرة، ووضعتها في كف ريّا وقالت: هذه أجرتك. فتحت ريّا كفها، فوجدت فيها قروشا ذهبية لم ترَ مثلها من قبل.

فجأة فُتح في الظلمة بابٌ دخلت منه ريّا فوجدت نفسها واقفة تحت البيذامة في وسط حوش بيتها، تلفتت حولها، كان الحوش خاليا، والظلمة حالكة.

دخلت حجرتها، وجدت علياً متوسدا يمينه، وهو راقد على الأرض، وزاهراً قد أخذ مكان أبيه على السرير، تأملتهما بعض الوقت لكنها لم تجرؤ على إيقاظهما، وضعت جنبها حذو زاهر، ونامت.

استيقظت على صوت المؤذن وحركة علي ينهس كتفها برقة، فتحت كفها، الورق ما زال أخضرَ، وطريا وله رائحة لا تشبه رائحة السدر.

هل كان حلما؟

* * *

لم تكد الشمس تعلو في السماء حتى كانت ريّا في حجرة العودة، تجلس مقابلها لكن المصحف ليس بين يديها:

- ماه العودة، ما أعرفه حلم ولا علم، لكنه كأنه علم، وجه البنت كأني شايفتنه في مكان، كأني أعرفها وما أعرفها، وورق السدر صابح في كفي خضر...

نظرت العودة طويلا في وجه ريّا، ثم نكّست رأسها ولم تتكلم، بعد مدة ابتسمت العودة، ثم مدت يدها إلى جيب دشداشتها، وأخرجت مفتاحا.

«أنا ما أعرف أفسر الأحلام، لكن فتحي السحارة، تلاقيي محكمة[39] معدن، ناوليني إياها».

فعلت ريّا ما أمرتها به العودة، فتحت السحارة فوجدت في بطنها صرة بيضاء، وقنانيَ زجاجية صغيرة، ووجدت أقماعا من الورق مربوطة بخيوط ثخينة ومصفوفة في بطن السحارة، ثم وجدت علبة المعدن، أخذتها وناولتها العودة.

«هذه ورثتي من أمي، ماتت في قريات، يوم وصلت لقيتها مدفونة، ما غسلتها، ولا كفنتها، ولا بدني منها وداع، لكنها وصت أخوي، قالت له: هذه ورثة فاطمة، قول لها، بو تعلمتيه ما حالش، بو تعلمتيه حال الناس، صدقة ودفعان بلاء».

فتحت العودة غطاء العلبة، وأخذت إصبع ريّا، وغمستها فيه، أخرجت ريّا أصبعها، وقد بللها سائل أسود لزج.

«هذا حنوط».

ضمت العودة أصابع ريّا في كفها وقالت:

«تعلمت من أمي معالجة الناس، وخلط الدويات[40]، وتعلمت منها تغسيل الميتة، والتكفين، وأعرف عتاده كله، من طيب وحنوط وكافور. ومن يوم ماتت أمي ووصلتني وصيتها، وأنا أطلب الأجر من الله فيه، والمغفرة حال أمي، كل أهل مسقط يطرشوا لي، من حارة البحارنة لين حارة البلوش، ومن سداب لين ريام، ويعلم الله ما قصرت فحدّ، لكن أنا التو كبرت، ويوم أموت ما عندي بنت تغسلني، وحريم حمود كما تعرفيهن ما يعرفن من القرآن غير سور الصلاة».

---

39. محكمة: علبة محكمة الإغلاق.

40. دويات: أدوية.

أصغت ريّا إلى حديث العودة مطرقة، تذكرت أمها التي رحلت قبل أن تعرفها، سألت نفسها: من يا ترى سكب الماء عليها؟ من غسلها ومن كفنها؟

لم تسأل أباها عن ذلك، ولم تر في حياتها كلها ميتا قط غيره، عندما سقط بين يديها فصرخت.

تتذكر صرختها، ووجه أبيها الذي فارقته الحياة دون أن تأخذ منه بشاشته.

تتذكر دخول راشد، ووقفته مذهولا أمام الجسد الذي فارقته الروح، وهو جالس إلى مصحفه، تتذكر بكاءه، لكنها لا تتذكر بكاءها، هل بكته؟

لا تتذكر.

مؤمنة بقضاء الله، لكنها لا تفهم الموت، ولا حدوثه، ولا اختياراته، ولا قدرته على المحو، ولا ما يخلفه من كسر في الأفئدة.

يأتيها صوت العودة فينتشلها من الفكرة، «لكن قد يكون فهذا الحلم إشارة، البنية الراقدة وشعرها مبلول، يمكن يكون دفن بلا غسل ولا تكفين، كما بو ضام شي وفزعان منه».

«أما الإشارة بو حالي، فأنا أول ما كنت ناوية أعلمش تغسيل الميتة، وتكفينها قلت مجعول في يدين ريّا الحياة ما الموت، هذا الحلم والله أعلم يطلب إنش تتعلمي مني غسالة الميت كما تعلمتِ مني مداواة الحي».

«الله هو الشافي، ونحن عبيده، نسير بأمره، وييسر على يدينا أمور الناس».

«أول معلمتنش أنواع الدويات بو أعالج بهن الجروح، والحروق، ووجع العيون، ووجع البطن، والحمى، والخطف[41]، كله بو تعلمته من

41. الخطف: الشلل.

أمي علمتش ياه، وعلمتش تخلطي كل شي بمقدار، ولا يزيد شي على شي إلا بحاجة، والنية تحتاج عزم، وصبر».

سكتت العودة برهة، ثم ركزت عينيها في عيني ريّا، وسألتها «لكني أبغى منش شي يا رّيا».

أمرتها العودة بإخراج القماش الأبيض من السحارة، وكل العلب وقناني الطيب، والقراطيس الملفوفة، وبدأت تعلمها ما تقول وما تفعل.

طلبت منها العودة أن تغسلها عندما تموت، وأن لا يساعدها أحد في ذلك إلا حفيداتها، أما زوجات العود وزوجات أبنائه؛ فيساعدنها بجلب الماء، وخياطة الكفن.

لم تتخيل ريّا أن العودة قد تموت، مع أنها تعرف أن الموت حق، ومعلق في رقاب الخلق منذ ولادتهم، والعودة من هؤلاء الخلق، مثل أمها، مثل أبيها، مثل...

لم تتخيل أنها ستغسل ميتا، فكيف تلمس جسد العودة باردا، وقد فارقته الحياة.

نفرت روحها من الفكرة، لكنها ما استطاعت أن ترد للعودة طلبا فأومأت بالموافقة.

علمتها العودة أسماء الأشياء التي بين يديها، علمتها ما تقول وما تفعل، علمتها كيف تغسل الميتة، وكيف تسترها.

«الحريم مسيكينات، يقولوا ذنوبهن على قلة حيلتهن عظيمة، وعورتهن أوجب سترها في الموت كما واجب سترها في الحياة».

خرجت من عندها، وقد حفر كل ذلك في ذاكرتها، ولكن في نفسها

انقباض وهمّ كبير، وما إن اقتربت من بيتها حتى تذكرت ما قالته العودة عرضا «كما بو ضام شي وفزعان منه».

تذكرت قروش راشد، ثمن نميصة، الصرة المدفونة تحت البيذامة.

انقبضت نفسها أكثر، استعاذت بالله، وحوقلت، وصلت عند بيتها، ووقفت أمام الباب، بقيت تنظر إليها، وهي ساهمة، ومترددة في فتحها، تشعر أن هناك شيئا ليس على ما يرام لكنها لا تعرف ما هو.

تذهب بعيدا في تذكرها، عندما باع راشد نميصة، وعاد مكسور القلب، وعندما أعطاها تلك الصرة، تستعيد الثقل الذي حلّ على قلبها عندما استلمت منه الصرة، ودفنها لها تحت البيذامة حتى لا تراها فلا تتذكرها أبدا.

عادت إلى نفسها ثم دفعت الباب فانفتح على الحوش فوجدتهما، علياً وزاهرا وقد عادا من السوق، وجلسا في الحوش ينتظرانها، في عين علي أسئلة، وفي يد زاهر صرة.

«ماه، شوفي مو لقيت تحت البيذامة».

انتزعت ريّا الصرة بغضب من يد زاهر، وعاتبته بانفعال لم يعهده منها:

– ما لك حاجة تبحش تحت البيذامة، عن تصيبك مضرة.

– القروش مال من؟ ومن ضامنها هناك؟

– القروش حال خالك راشد، وما لك حاجة فيهن.

أخذت الصرة، ودخلت حجرتها، وخبأتها تحت وسادتها، ثم خرجت إلى مطبخها تعد الغداء الذي جلب علي سمكه لتوه من السوق.

في دخولها وخروجها المتوتر تحاشت عيني علي، لكن لم تخفَ عليه رائحة جسدها المختلطة برائحة الغضب والخوف.

ارتقى زاهر الدرج الخشبي الصاعد إلى السطح، ثم جلس هناك وأدلى رجليه عن الحافة، يراقبها بجبين مقطب والحيرة تشغله.

ارتفع الأذان فخرج علي للصلاة، أغلق الباب وراءه، وفي قلبه هواجس يكابرها فتكابره.

لا يعرف من أين لريّا كل هذه القروش؟ أمن ورثة أبيها أم من دروس القرآن في بيت الباغ؟ لكنه كان يعرف موضع كل قرش في مندوسها، ويعرف أين تخبئ مفتاحه.

لا يهم من أين أتت بالقروش، لكن يغضبه أنها أخفت عنه أمرها، ألا تثق به؟

يعود من الصلاة كما ذهب إليها، غاضبا وحزينا.

مرّ اليوم ثقيلا بينهم، ريّا منشغلة بأعمالها أو بقراءة القرآن، وزاهر تناسى غضبه شيئا فشيئا، وانشغل بقراطيسه، وعلي أغلق على نفسه باب السبلة، وحاول أن ينشغل بمخطوط نونية أبي مسلم البهلاني الذي كان قد وصله قبل أيام، يقرأ فيه ولا يقبض شيئا مما يقرأ.

لم يخرج من السبلة حتى ناداه زاهر للعشاء، أكل في صمت، وكذلك فعل زاهر وريّا، كان الصمت ثقيلا، واللقيمات غصات صغيرة.

تعشوا ثم عاد إلى السبلة، أشعل سراجه وجلس إلى مخطوط النونية يقرؤها بذهن غائب، ثم يتركه ثم يعود مرة أخرى إليه، أراد أن ينام في السبلة تلك الليلة، لكنه لم يستطع، أيهجر فراشه وريّا فيه؟ مهما بلغ به الغضب لن يقدر على هجرها أبدا، يعرف ذلك فيقوم إلى فراشه.

دخل الحجرة فوجد زاهرا نائما على الأرض في فراشه، وهي مستلقية على السرير، نام إلى جانبها فتنبهت، واستوت على الفراش، ثم أخرجت

الصرة من تحت وسادتها ووضعتها بينهما.

«يوم جينا مسقط، وقفونا فمطرح وقالوا النوق ما تدخل، باع راشد ناقته بميتين قرش، ويوم ولدت زاهر ناولني القروش وقال ضمهين حاله، ويعلم الله ما ضميتهن عنك لكن عن عمري، هجست يوم ناولني إياهن كأنهن حصاة حطت على فوادي، شليتهن، ودفنتهن تحت البيذامة، وقلت أنساهن. أهجسبهن من يوم ناولني إياهن كما بو شال إثم على رقبته. ضميتهن وحسبت عمري نسيتهن واسترحت، لكني ما نسيتهن وما استرحت».

استمع علي بانتباه شديد لحكاية ريّا وعذرها، فتراجع غضبه قليلا، ثم أشار على زوجته أن تفرق القروش صدقة إن لم تكن مطمئنة لوجودها، لكن ريّا خشيت أن يعود راشد فيحتاج لقروشه فلا يجدها، احتارا في إيجاد مخرج لخوف ريّا، لكنهما ما وجدا بدّا من العودة إلى إخفائها مجددا في مكانها تحت البيذامة، معتمدين على أن زاهرا لن يعود بعد تقريع أمه الشديد إلى البحث عنها هناك مرة أخرى...

يحبها لكنه لا يفهمها أحيانا، تحمل علمها في يد، وهواجسها في اليد الأخرى، مسلمة بقضاء الله، ولا يفتنها إلا ما اتصل بزاهر أو راشد.

انتقل خوفها وتوجسها إليه، فلم يستطع النوم حتى تأكد من نومهما، فأخذ الصرة، وعاد لدفنها في مكانها تحت البيذامة، ثم صلى ركعتين، علّ الخوف والهواجس تغادره.

11

لم يعرف من أين جاءته الرصاصة، لكنه أحسّ بوسم يكوي أعلى ذراعه، وآخر يخترق ضلوعه، سقط سلاحه من بين يديه وسقط عنده.

عندما تأكد رفاقه الثلاثة من خلو المرتفعات الصخرية، والشقوق حولهم من القناصة، تقدموا الواحد تلو الآخر، يتسلقون الصخور بهدوء باتجاه فتحة الكهف الذي بَلّغت الطائرةُ الاستكشافية عن احتمالية كونه مقرا للقادة الثلاثة، أومنفذا لهروبهم إن استدعى الأمر.

تسلل خليفة بن عبدالله، ومرهون بن حميد، وصالح بن خلف يحملون حزما من أصابع الديناميت؛ لوضعها عند مدخل الكهف، فإذا ما انفجرت انهار الكهف وأغلق، أما راشد فمكث في مكانه يراقب السفوح القريبة.

الشمس قبيل المغرب تكاد تختفي وراء قمة الجبل، ولا يتبقى من أثرها سوى الظلال الساقطة على الصخور والشقوق، وجوانب الجبل الصلدة.

عيناه على جهة الشرق حيث يتوقع أن يظهر قناص أو مراقب من الثوار، يفحص الصخور وما وراءها، يصعد بعينيه حواف الجبل، يصغي وتتبع عيناه أذنه.

في البداية لم ير شيئا إلا تقدم رفاقه، وحركتهم البطيئة الحذرة الصاعدة نحو باب الكهف.

بعد قليل، سمع دحرجة صخور خفيفة، كان الصوت يأتي من أعلى الجبل وراءه، حدس أن شخصين على الأقل تمركزا أعلى السفح خلفه، حيث بإمكانهما بكل سهولة أن يراقبا حركة رفاقه الغافلين.

أخفض رأسه، فصار مندسا بين حصاتين كبيرتين، استدار ببطء، وتفحص السفح وراءه، كانوا ثلاثة رجال وبيد كل واحد منهم بندقية.

لم يبدُ له أنهم قد رأوه، لكنهم كانوا بالتأكيد قد رأوا رفاقه الذين كانوا يتقدمون ببطء محتمين بالصخور، وشقوق الجبل.

اتخذ الرجال وضع القناصة، وبدأوا في إعداد بنادقهم لصيد الجنود، كان صيدا سهلا من مكانهم، وكان رفاقه مكشوفين لهم تماما، سيسقطون الواحد تلو الآخر، ودون أن يتبينوا مصدر الرصاص.

بينه وبين الرجال حوالي مائتي متر، وبينهم وبين رفاقه أكثر من ذلك بقليل، لو أطلق النار سيكشف مكانه، وسينهال عليه الرصاص، لكن ذلك سينبه رفاقه للخطر، وسيمنحهم الوقت للاحتماء، والاختباء وراء الصخور.

كان يعرف أنه في خطر، لكنه كان يعرف أيضا أن الحرب ما هي إلا خطر مستمر، ما الحرب إلا موت يحوم فينقض أو يُرْجِؤكَ حتى حين.

صوّب أول رصاصة على الرجل الذي مازال واقفا، ولم يتخذ وضعية القنص بعد فأرداه، انهال الرصاص عليه من بنادق الاثنين الآخرين، لكنه وبحركة سريعة اندس في شق بين صخرتين.

تنبه رفاقه فوجدوا لهم ساترا، واختبأوا وراءه، على الجهة الأخرى تكاثر الثوار الذين كانوا ثلاثة فصاروا خمسة ثم سبعة، كانوا يتكاثرون، وكان يراهم

يشيرون إلى مكانه، إلى حيث انطلقت الرصاصة.

مرت رصاصة عند أذنه لكنها أخطأته، غاص أكثر في الفجوة بين الصخرتين، وبدأ الرصاص ينهمر عليه، وعلى مخبأ رفاقه، ثم فجأة توقف الرصاص، انسحب الصوت تماما من المكان، تكثف الصمت حتى صار لزجا.

هدوء ممتلئ بالتوجس، لا حافر معزة جبلية ولا نهيق حمار في البعيد، في تلك اللحظات بدا كأن الجبال عادت إلى نومها الأزلي، إلا أن رائحة الهواء كانت تشي بحدة الحواس، بالعيون الراصدة، وبالآذان المشحوذة.

الكل يراقب الكل، ويبحث عن حركة، أو صوت، أو ظل يقع، الجميع مختبئ خلف الصخور وبين الشقوق وساكن، الجميع مترقب وخائف.

رفع رأسه ليستطلع حال رفاقه في الأعلى، فانتبه لظل رجل يتسلل من ورائهم، يأتيهم من الخلف، فيكشفهم تماما ولا ينتبهون له. سيقنصهم واحدا واحدا بكل سهولة قبل أن يصلوا إليه.

كان عليه أن يصيبه، لكنه لن يستطيع ذلك من مكانه، فالصخرة التي يختبئ وراءها الرجل تمنع الوصول إليه من حيث هو.

عليه أن يغير مكانه، ويصعد المنحدر جهة اليمين فيباغته من الخلف.

زحف خارجا من مخبئه، تسلق الصخور بحذر متجنبا إحداث صوت، لكنه كان يسمع صوت تدحرج الحصى تحت قدميه، مع ذلك أكمل صعوده، وتنقل بين الظلال والصخور حتى وجد لنفسه موقعا أفضل.

كامنٌ في مكانه يعرف أنه إن أراد أن يصيب هدفه فعليه الخروج، والكشف عن نفسه، فخرج بسرعة من مخبئه، انتصب، وضع بندقيته على كتفه وصوب، وجه فوهة البندقية نحو الرجل الذي لم يكن قد انتبه إليه بعد.

أطلق رصاصته، فاخترقته أخرى وأخرى.

شعر بالرصاص يخترق جلده ولحمه، شعر بالوسم عميقا والألم صارخا لا يطاق.

سقط سلاحه وسقط عنده، عيناه لا تريان إلا الصخور الصغيرة المفتتة، وبقعة دم تزحف إليها، يشعر باللزوجة تمتد تحته، وبأنه صار يخف ويطفو، شعر بأنه يغادر مكانه وأن كل ما حوله يتلاشى.

في البعيد سمع صوت طائرة تقترب ودوّى انفجار في مكان ما، سمع صوت الجبال تفلت حصاها وانهيار صخور، سمع صوت الرصاص، ركض أقدام على المنحدرات، صوت رفاقه، كان راشد قد غاب تماما، ولم يستيقظ إلا بعد أيام طويلة.

* * *

دخل علي البيت بعد صلاة العصر فوجده ساكنا، كل ما فيه من أصوات يأتيه من الخارج، أما في الداخل فلا صوت إلا الصوت الخفيف لتخلخل الهواء لأغصان البيذامة.

كان يعرف أن ريّا تأخذ غفوة قصيرة في هذا الوقت، وأن زاهرا مشغول بقراطيسه يقلد فيها خطه.

قطع الليوان مضطربا فوجد زاهرا جالسا على الأرض يخط الحروف التي علمه إياها، في العادة كان سيقرفص إلى جانبه يصحح له رسم الحروف، لكنه اكتفى اليوم بسؤاله عن أمه فأشار إلى داخل الحجرة وقال إنها نائمة.

وقف بعض الوقت مترددا أمام الباب، كيف يخبرها؟ أيبادرها هكذا؟

«راشد في بيت الفلج مصاب».

هل ستتحمل أن تسمع منه حتى آخر الكلام؟ يعرفها، ويعرف تعلقها به، وخوفها عليه.

تقضي لياليها في الصلاة والدعاء حتى يسلمه الله من الرصاص، وقسوة القلب التي تنبتها الحروب، وكلما ذكر اسمه أمامها ولو عرضا أطل الخوف من عينيها.

دخل الغرفة فوجدها نائمة على الأرض، وقد غطت عينيها بطرف وقايتها كعادتها في غفوات النهار، الغرفة ساكنة ولا يكاد يسمع فيها غير صوت تنفسها.

وقف قربها يتأمل وجهها في غفوته، مطمئنة في نومها، غارقة في حلمها، وجهها مسترخ، ونفسها خفيف ومنتظم.

يعرف قوتها، ويخبر هشاشتها، ضعفها في خوفها من فقد من تحب، خوفها على راشد الذي لا يعادله إلا خوفها على زاهر، قوية وحكيمة هي إلا في هذا الحب.

لا يغار منها، يعرف مكانه في قلبها ويكتفي به، هو طمأنينتها وهو يدرك ذلك.

ركع إلى جانبها، وهمس باسمها، فلم تستجب، نهس كتفها برقة، ففتحت عينيها، رأته راكعا، وقرأت في عينيه الكلام.

خرج صوتها مخنوقا:

- راشد؟

قال ببطء وهدوء محاولا طمأنتها:

- لا تخافي، راشد بخير، بس منقول بيت الفلج.

- بيت الفلج؟ مصاب ولا...؟

- البرقية تقول أنه مصاب وأنهم ناقلينه...

نهضت بسرعة وهمّت بالخروج، أمسك بذراعها ليمنعها:

- لو بخير ما نقلوه بيت الفلج، الشيمة علي...

يحاول أن يؤجل مسيرهم، وكان في نيته أن يذهب قبلها فيطمئن على حاله، ثم يعود فيطمئنها، ويأخذها إليه؛ لكنه ما استطاع كتمان الخبر عنها وهي متى ما عرفت لن تنتظر، كان يعرف ذلك فاستعد له وإن حاول ثنيها.

نادت ريّا زاهرا وناولته من المندوس دشداشة نظيفة وأمرته بتغيير ملابسه، أما هي فتوضأت، وارتدت شيلتها فوق ملابسها كعادتها عندما تذهب في مشوار بعيد.

مشوا إلى الباب الكبير حيث اكترى علي سيارة ولد حميد، ركبوا السيارة، فمضت بهم في دروب مسقط حتى ارتقت عقبة ريام، وهبطت بهم إلى مطرح ثم استدارت في آخر الدرب ناحية بيت الفلج.

فرحا كان زاهر بركوب البدفورد، لكنه لم يكف عن الأسئلة، ولم يقبل بصمت والديه جوابا، إلى أين نذهب؟ هل سنذهب إلى مطرح؟ أين بيت الفلج؟ بيت الفلج مزارع أم سوق؟ ما بال خاله راشد؟

يسأل ولا يجيبه أحد، فينشغل بالغبار المتطاير من تحت عجلات السيارة، ويرسم في خياله حروفا كثيرة تنعقد في الغبار ثم ما تلبث أن تتطاير معه.

يجلس علي إلى جانب ولد حميد، فيسأله عن حرب الجبل، وجيش السلطان، والإمام، والإنجليز، وعن المصاب الذي يذهبون إليه، فإذا ما لاحظ وجومه وصمته كف عنه.

تجلس ريّا وراء علي متلثمة بطرف شيلتها، ولا يظهر من وجهها إلا قصبة أنفها، وعيناها الممتلئتان بالرجاء والدموع.

حدث ما كانت تخشاه وتعرف حدوثه. الذاهبون للحرب لا يعودون، وإن عادوا... فإما مصابين أو مجروحين أو مكسوري القلب أو قد تحولوا إلى حجر، لكنهم أبدا لا يعودون كما ذهبوا.

يقول علي إن إصابته خفيفة، لكن ما أدرى علي؟

تعرف أنه يقول ذلك ليطمئنها، يحدثها عن انتصار جيش السلطان على الثوار ليطمئنها.

ما همها انتصر السلطان أم هزم جيشه، همها راشد وسلامته.

تنوح بصوت أشبه بالهمس:

«يا خوي وأبوي وحبابي وجدودي...».

كادت أن تستغرق في نواحها لولا أن علياً ظل يردد بصوت عال «لا حول ولا قوة إلا بالله، استغفري... استغفري» يذكرها بالله الساكن بين ضلوعها في كلماته حتى لا تنساق وراء خوفها وهواجسها، فتستغفر، وتردد لا حول ولا قوة إلا بالله، وتنصرف لقراءة القرآن في سرها.

هو نفسه لا يعرف مدى إصابة راشد ولا يعرف خطورتها، ولا يعرف إن كان قد برأ أم أنه على حافة الموت، كانت البرقية مختصرة ولا تقول شيئا، وصلته في برزة السيد فلم يفهم منها سوى ما جاء فيها، مختصرا ومقلقا.

وصلوا بيت الفلج قبيل المغرب، منعهم الحرس من الدخول أول الأمر، حتى أبرز لهم علي البرقية، فقاده عسكري إلى العنبر الذي استحدث على الجهة اليمنى من القلعة لمعالجة مصابي الحرب.

مشت ريّا بخجل بين الأسرّة، رأت الرجال ملفوفين في القطن والشاش، وسمعت أنينهم عاليا.

متعثرة بخوفها ولهفتها على راشد، تبحث بعينيها بين الأسرّة، حتى شدّها علي برقة من ردن دشداشتها، وأشار إلى سرير في طرف القاعة، انخلع قلبها من مكانه، وهرعت إليه.

وجدته نائما، نصفه الأعلى عار وصدره وكتفه الأيسر ملفوفٌ بشاش أبيض وعلى الشاش في وسط الصدر تقريبا بقعة دم.

كان يئن في نومه، ووجه مكسوٌّ بألم تمنت لو تقدر أن تمد يدها فتمسحه عنه بلمسة.

نقلت بصرها بلا حيلة بين أخيها وزوجها، موجوعة بالأول مستنجدة بالثاني.

على وجه علي قلق مثل قلقها، لا تكاد عيناه تفارقان وجه راشد وجسده حتى تلتقيان بعينيها المستنجدين فلا يجد له حيلة، راشد أخوه أيضا، ورفيقه وإن اختلفا أحيانا.

رأت رجلا في لباس أبيض يتنقل بين الأسرة فنهست علياً كي يسأله، ذهب علي وشدّه من ذراعه، وأحضره إلى سرير راشد.

كان الطبيب الباكستاني محمد رفيق يتكلم العربية مثلهم تقريبا، فصار يشرح لعلي حالة راشد، أخبرهم أنه نقل من الجبل الأخضر منذ أسبوع، وأنهم قد أجروا له جراحة في مستشفى الرحمة، وأخرجوا من صدره وكتفه ثلاث رصاصات، أخبرهم أنه نائم تحت تأثير المخدر لكنه سيكون بخير.

ريّا تستمع له بانتباه، لكنها ما كانت تجرؤ على سؤاله في حضرة زوجها، ولو ازدحمت في قلبها الأسئلة.

زاهر ينقل بصره بين الرجل النائم وبين الطبيب وأمه وأبيه، يرى حيرة أبيه وخوف أمه.

يستدير وينشغل بالرجل النائم، تمتد أصابعه فيلمس كف خاله، لكن خاله لا يستجيب للمساته، يقترب من أذنه ويهمس له:

«أنا زاهر بن علي، وأمي ريّا بنت سيف، تعرفها؟ هي أختك وأنا ولدها، أنا ولد أختك وأنت خالي، تعرفني؟». لكن الرجل النائم لا يسمعه ولا يستجيب.

ريّا وعلي منشغلان بسؤال الطبيب وزاهر منشغل بالرجل الراقد أمامه، يضغط براحته على كف خاله فيشعر بحرارتها، يستدير إلى أمه ويشدها من طرف وقايتها ليجذب انتباهها، فتجس جبين أخيها بكفها، ينتبه الطبيب للحركة، فيطمئنهم إلى أن الحمى طبيعية بعد العملية، وأنها ستزول بعد أيام، ثم تركهم ليمر على بقية المرضى.

أراد علي أن يغادروا ثم يعودوا في الغد، إلا أن ريّا رفضت ترك أخيها وحده تنهبه الحمى، لكن علياً رفض «ما يستوي يا ريّا... ما يستوي». أدارت بصرها في المكان فلم تجد في القاعة غير الرجال المصابين، وأنينهم الذي لا ينقطع، لم يكن هناك في تلك الساعة أحد من أهلهم ليقيم بهم أو حتى ليطمئن عليهم.

كانت تعرف أنه على حق وأنه لن يرضى بذلك مهما عاندت ومهما كان شفوقا بها.

- أنت وزاهر ردوا مع ولد حميد وأنا بَقِيم[42] به وباكر عاودية، وبإذن الله بيصبح بخير، أنت تعرفيه راشد قوي.

---

42. أقيم به: أسهر عليه في مرضه.

ما كان هناك بد من ذلك، وهي تعرف ذلك فما عارضته، تركته ليوصلها وزاهرا إلى البدفورد وأوصى ولد حميد بأن يوصلهما البيت، ويعود بهما فجر الغد، ويأخذه معه إلى برزة السيد.

* * *

كلما انشغلت أمه بأمر؛ انشغل زاهر بالتفرس في ملامح خاله، يحاول أن يربط بين الرجل النائم على السرير أمامه وبين الشخصية التي في الحكايات الكثيرة التي تخترعها له ريّا.

لم يكن يعرف شيئاً عنه سوى أنه خاله، وأنه جندي في جيش السلطان، عرف ذلك صدفة من حديث سمعه يدور بين أمه وأبيه؛ حول حرب بعيدة تدور في جبل ما، وعن أخيها الذي لا يعرفون عنه شيئا.

كان أبوه يتحدث بحماسة أحيانا وبأسى أحيانا أخرى، لكن أمه كانت دوما حزينة، وكان الحديث غالبا ما يختم بدموع تمسحها بطرف وقايتها ثم تستغفر، لم يكن زاهر يعرف لماذا يُبكي ذكر هذا الرجل أمه دائما.

يراه الآن نائما على السرير أمامه؛ لكنه ليس كما وصفته له أمه. هذا رجل مريض لا يقوى على الحركة، وراشد الذي في حكايتها عملاق يتسلق الجبال بخطوة، ويكاد أن يحمل الأرض على ظهره.

فتح راشد عينيه، فوجد عينين واسعتين بأهداب كثيفة تتفحصه عن قرب، كانت العينان لصبي نحيل يجلس على الأرض، ويستند بمرفقيه على حافة فراشه، ويطل في عينيه مباشرة، وكأنه يراقب نومه و يفحص أحلامه.

أُخذ زاهر بحركة راشد فتراجع إلى الوراء ونادى أمه، قامت ريّا من على الأرض حيث كانت تجلس والمصحف بين يديها، اقتربت من فراش أخيها.

رآها فهمس «ريّا...»، وانقطع صوته، أقبلت ريّا على كفه تقبلها، وتغسلها بالدموع.

تُردد الحمد لله ولا شيء آخر، تحرك راشد قليلا ليمسح بيديه على رأسها فباغته ألم حاد اخترق ضلوعه فندّت عنه صرخة حادة «لا تتحرك، الدختر قال في ضلوعك كسر، لا تتحرك».

جالت عينا راشد بوهن في المكان، كان يحاول أن يعرف أين هو؟، فبادرته ريّا: «أنت في بيت الفلج، انْصَبْت في الجبل، ونقلوك هنا»، ثم التفتت إلى زاهر، وأمرته بالذهاب لاستدعاء الطبيب.

كان زاهر قد خبر ممرات المستشفى الصغير، فذهب إلى خارج الغرفة بحثا عن الطبيب.

انخلع قلبها عندما صرخ، وأعادته نظرة من عيني أخيها إلى مكانه. ينظر في عينيها، فتنفرج شفتاها عن ابتسامة صغيرة، تغالب بها الدمع الذي بدأ يتجمع في مقلتيها، لم تره واهنا هكذا من قبل. صار وجهه أكثر نحولا وسمرة، هيكله الضخم يستر ما فقده من وزن كثير أثناء الحرب، كفه الذي كان بكفين من كفوف الرجال تضاءل؛ وإن ظلت أصابعه الطويلة شاهدة على حجمه.

«أنت بخير؟ الدختر قال بتستوي بخير... يلّك أسبوعين راقد وما حاس بشي».

أغمض راشد عينيه مرة أخرى، وذهب في النوم، وعندما جاء الطبيب مع زاهر جس نبضه، وقاس حرارته، وطمأنهم على أن المريض بخير ولن يحتاج إلا بعض الوقت ليشفى.

سبع سنين منذ آخر زيارة له، جاءهم بعد ولادتها بزاهر ولم يعد بعدها، سبع سنين وهو غائب في الحرب وحاضر فيها، لا تتحدث عن شيء إلا

ويكون فيه أو عنه، ولا تقص حكاية على زاهر إلا وهو بطلها.

كانت تسأله «الحرب ما تخلص؟»، «وهوه مو شغله في الجيش؟ ما كان أحسن حاله وحالنا لو بقى في مسقط؟»، «ما مجبور يشتغل في الفرضة، لو أنه فتح دكان في السوق أو حتى اشتغل بيدار كان أحسن».

«ما لازم يستوي عسكري ويشل تفق ويا قاتل يا مقتول».

تقول له وكأنها تخاطب نفسها:

«كذا زين التو؟ هو في بلاد ونحن في بلاد، لا نروم نسير له ولا يروم يجينا إلا في السنين مرة».

«وهذه الحرب مو الحاجة عليها؟».

«مكتوب على العمانيين يتناحروا الدهر كله؟ مرة هناوية وغافرية[43]، ومرة السلطان والإمام، ما شي بد عن كذا؟».

وكان علي يشرح لها، يخبرها عن الحرب والأحداث التي قبلها، يخبرها عن أحوال البلاد فلا يقنعها شيء بوجوب الحرب.

لم تفترق عن راشد منذ أن أدركت، كانا دوما معا، كان أخاها ثم صار أباها وكل ما لها في الدنيا. تزوجت عليا، رجلٌ صالح وأحبته، أنجبت منه زاهراً فتعلقت به، لكن راشدا أخوها، صخرتها وجدارها ومتّكؤها.

في غيابه كانت تقوم الليل وتدعو له، تختم القرآن مع بنات البيبي وتدعو له، تُعلم زاهرا مخارج الحروف، وتدعو له عند كل كسر ورفع وضم ومد، تسرّ له الحديث في يومها فتحدثه هو عندما تحدث نفسها.

كان علي يدرك ما بينهما من قوة وشيجة؛ فيغار أحيانا من حبها المطلق

---

43. هناوية وغافرية: الحزبان الذين انقسمت إليهما القبائل.

له، لكنه يعود ويقول: هو أخوها ولا أحد غيره في قلبها.

تناوبا على العناية به، علي في الليل وهي في النهار؛ حتى تحسنت حالته فسمح له الطبيب بأن يغادر المستشفى، وينتقل معهم إلى البيت، بشرط أن يعاوده في بيت الفلج مرة كل أسبوع.

رخص له الضابط وسمح له أن يقيم مع أخته حتى يشفى، ثم يعود إلى الثكنة للتدريب، وراشد رفع يده بالتحية بصعوبة، وغادر مع أخته وزوجها وولدها الذي لا يكف عن الأسئلة.

تدريجيا استعاد راشد عافيته، وخف الألم في كتفه الأيسر وبين أضلعه.

في كل صباح كان علي يغادر إلى برزة السيد، وكانت ريّا تنشغل ببيتها، أما هو فكان ينشغل بزاهر، صبي ذكي سريع الحركة، حاضر البديهة، يضحك بسرعة لكنه إذا ما غضب صار إرضاؤه صعبا.

قال لريّا: «زاهر نبيه، بعده ما دخل السعيدية؟».

«علي قال بيدخله السنة الجاية، لكنه أول بيختم القرآن معي، وأبوه علمه الأرقام والحساب وخط الحروف، وهو كما تشوفه مشغول بالخط في القراطيس».

طلبه راشد ليريه كتابته فأحضر قراطيسه، كان خطه جميلا فعلا، يرسم الحرف بدقة، «أنت ولد نبيه، وخطك زين وواضح، وأنا ما أعرف أكتب، تعلمني؟». فيجلس زاهر إلى جانبه، ويضع القلم بين أصابع خاله، ويمسك بها، ويساعده على كتابة اسمه، فلا يعجبه خطه، فيحاول ثانية معه، وعندما ييأس منه يقول له بنفاذ صبر «خالي خطك ما غاوي، أنت ما تعرف تكتب»، وكان راشد يضحك، يحب غضب زاهر، وبراءته، ويعجب بحس المعلم فيه.

12

أقام راشد معهم قرابة الشهرين، استعاد فيهما صحته لياقته، وكسب بعض الوزن من الدجاج، والسمن، والعسل، والبيض الذي تغذيه به ريّا، لكن كان عليه الرجوع إلى معسكر بيت الفلج. حاولت ريّا إقناعه أنه لم يتماثل للشفاء بعد، وأن حركته ما زالت ضعيفة، لكنه أصرّ قائلا إنه يشعر بأنه أصبح قادرا على أداء مهامه، توسلت إليه أن يؤجل ذهابه حتى يطمئن قلبها عليه.

«لو أسمع كلامش كنت ما خرجت من الباب، لكني عسكري، وطولة الرقدة والراحة ما حالي، ولو بقيت هنا أكثر أخاف أنسى سلاحي».

تقول له وهي تحاجه: «يقولوا الحرب خلصت؟»، فيرد عليها: «الحرب ما تخلص، وشغلة العسكري يكون دايما جاهز، ومستعد».

عاد إلى الثكنات في بيت الفلج، وعرف ما حدث لفصيله في ذلك اليوم في وادي بني حبيب حيث أصيب.

عرف أنه بعد إصابته قتل اثنان من أفراد الفصيل، وأن طائرة الفينوم أغارت على الموقع الذي كان الثوار يطلقون منه الرصاص، فهدمت الجبل

عليهم، عرف أن رصاصة اخترقت ضلوعه، وكادت أن تستقر في قلبه؛ لولا أن سلمه الله، وأن رصاصتين أخريين أصابتا كتفه، وعرف أنه أُجلي إلى بيت الفلج، ومنه إلى مستشفى الرحمة لإجراء العملية واستخراج الرصاص من كتفه وبين ضلوعه.

عاد للمعسكر وللتدريب، وتدريجيا عادت له لياقته العسكرية، وبعد أيام قليلة بدأ في تمارين الرماية حتى استعاد دقته المعروفة في التصويب، وسرعته في الحركة.

في التاسع من مايو، استدعاه الميجور، وبلّغه أنه رقّي إلى رتبة ملازم أول، وأنه قد حصل على وسام الشجاعة من السلطان، وفي احتفال تكوّن من خمسة طوابير من الجنود، ألقى الميجور كلمة قصيرة:

«لقد أظهر الملازم أول راشد بن سيف شجاعة نادرة، وعرّض نفسه لنار العدو حتى ينقذ فصيله من هجوم أثناء قيامها بمهمة استثنائية في وادي بني حبيب، بتاريخ 15 فبراير 1959، الملازم أول راشد بن سيف كان مدركا أهمية ما يقوم به فصيله، والنتائج المترتبة على إخفاق المهمة، فاشتبك مع العدو، وعرّض نفسه للرصاص، ليشغلهم عن الجنود الذين كانوا في مرمى النيران، مضحيا بذلك بنفسه في سبيل رفاقه، ولقد نجح في ذلك، وأتم الفصيل مهمته بنجاح. هذه الشجاعة النادرة، والتضحية البالغة يجب أن تكون ملهمة لزملائه من الجنود والضباط، وهذا الوسام ما هو إلا تقدير له من السلطان على شجاعته وتضحياته».

ثم علّق الميجور الوسام على صدره أمام الجنود، ورفع يده بالتحية العسكرية، فبادله راشد التحية، واستدار بخطواته العسكرية الواسعة لينضم إلى رفاقه في الطابور، دون أن يحني رأسه أو يتردد، ودون أن يظهر عليه فرح أو زهو.

كانت خطوته واثقة، وقلبه ثابت على راية السلطان، الراية الحمراء.

* * *

لم يطل بقاء راشد في بيت الفلج، فبعد تسلمه الوسام بأيام أمره الميجور باللحاق بكتيبته في الجبل الأخضر، والانضمام إليها، أبلغه بأنه ستكون هناك مهمة خاصة وبالغة الحساسية في انتظاره، وأن القائد سيطلعه على تفاصيلها حال وصوله.

استقل راشد طائرة الهيلوكوبتر من مدرج بيت الفلج برفقة بعض الجنود الجدد، الذين انضموا لتعزيز الكتيبة، التي أصبحت مرابطة في الجبل الأخضر بعد أن استطاع جيش سلطان عمان إحكام السيطرة عليه، واختفاء القادة الثلاثة ومن تبقى من الثوار.

هبطت الهيلوكوبتر في مهبط قريب من القاعدة العسكرية الجديدة، حيث كانت سيارات (اللاندروفر) في انتظارهم.

ركب الجنود السيارات فأخذتهم إلى الثكنات، أما راشد فقد قضت الأوامر أن يتوجه مباشرة إلى مقر الحاكم العسكري.

في طريقه إلى هناك شاهد راشد كمية الخراب الهائلة التي خلفتها الغارات والقنابل، التي كانت تسقط بلا حساب؛ كي تخرج القادة الثلاثة من القرى التي ظُن أنهم لجأوا إليها، أو من مخابئهم في الكهوف القريبة منها، كانت هناك قرى قد دمرت، ولم يبقَ منها سوى الأطلال، وكانت هناك عوائل قد قضت بأكملها تحت الركام المتساقط.

كان يعرف أن لا رحمة في الحرب، الحرب موت وقتل ودمار، لكن ما رآه كان كثيرا حتى عليه، وهو الجندي الذي شهد سقوط رفاقه إلى جانبه، وتطاير أشلائهم في الهواء.

لكن رفاقه كانوا جنودا، والجندي منذور للموت متى ما دخل العسكرية، أما هذه القرى الفقيرة، وهؤلاء الناس المساكين فما ذنبهم؟ أما كان للقاذفات البريطانية أن تكون أكثر دقة؟ أما كان لاستخباراتهم أن تكون أكثر فاعلية؟ فتحدد مواقع الشيوخ الثلاثة والثوار دون اللجوء لهذا القصف العشوائي الذي طال كل شيء، البشر والحيوان والشجر والصخر.

وصل إلى مقر الحاكم البريطاني قبيل الظهر، وبدت عليه علامات الاضطراب مما رآه، ومما ينتظره في مقر الحاكم العسكري، لماذا استدعي للجبل؟ ما هي المهمة الحساسة التي تكلم عنها الميجور في بيت الفلج؟

استقبله أحد الضباط عند الباب، وكأنه كان في انتظاره، ثم قاده في ممر طويل إلى مكتب نائب الحاكم، استقبله النائب وضابط آخر برتبة (لافتنت) بحفاوة أثارت استغرابه، أدى التحية للضابطين فطلبا منه الجلوس على واحد من الكراسي المعدنية الموجودة، في حين جلسا قبالته وصارا يتفرسان فيه، بعد قليل بادره نائب الحاكم:

- ملازم أول راشد، لقد بلغنا حصولك على وسام السلطان تقديرا على شجاعتك وتضحيتك في الميدان، كما بلغنا أنك قد رقيت وأصبحت واحدا من الضباط العمانيين القلة في الجيش.

- نعم سيدي.

- المعلومات المتوفرة لدينا تشير أيضا إلى أنك تنحدر من قرية زراعية تقع على الجانب الآخر من الجبل، وأن عندك خبرة في أمور الزراعة؟

باغته سؤال الضابط الآخر لكنه أجاب:

- نعم سيدي، عملت في الزراعة حتى هبوطي إلى مسقط، والتحاقي بالجيش.

- هل تعرف شيئا عن صيانة الأفلاج؟

- لا سيدي، معرفتي قليلة في هذا الجانب.

- لا بأس، سنستعين بأهل الخبرة من القرى.

أدخل أحد الأفراد صينية عليها ثلاثة أكواب شاي، فسكت الضابط عن الكلام، مرّت لحظات صمت قصيرة، فكّر فيها راشد فيما يريد الضابط أن يقوله لكنه لم يفهم علاقة الوسام، ورتبته العسكرية الجديدة بقريته وعمله القديم في الزراعة، بعد أن خرج الجندي أكمل نائب الحاكم كلامه:

- ملازم أول راشد، لابد أنك وفي طريقك من المدرج إلى هنا قد لاحظت كمية الخراب التي خلفتها الغارات على القرى.

- نعم سيدي.

- لقد دمرت الغارات أيضا قنوات الأفلاج والمصاطب الزراعية. هي الحرب والجميع يدرك ذلك جيدا، ولكن إن بقي الحال على ما هو عليه سيجوع الناس، وسيكون هناك سبب جديد لثورة جديدة، ونحن نعرف أن الجوع كان دائما أقوى أسباب الثورات.

أكمل اللافتننت فريمان كلام النائب:

- نحن نوزع المعونات، والأغذية على الأهالي؛ لكنّ هذا حل مؤقت، علينا محاولة إعادة الأمور إلى ما كانت عليه من قبل، على الجيش أن يساعد هؤلاء الناس الذين كانوا مجرد ضحايا لحرب كانوا في غنى عنها؛ لولا احتماء الشيوخ والثوار بهم وبقراهم، لكنها الضرورة، للحرب ضروراتها.

إذا لم تصلح قنوات الأفلاج لن يجد هؤلاء الناس ما يسقون به مزروعاتهم، وإذا لم تكن هناك زراعة فلن يكون هناك أكل، وسيجوع الناس، مفهوم؟

- نعم سيدي.

- أنت الضابط العماني الوحيد في الكتيبة الذي يملك خبرة سابقة في الزراعة، ومعرفة ولو قليلة بالأفلاج، لذا قررنا إيكال مهمة الإشراف على ترميم هذه الأفلاج، وإعادة بناء المصاطب إليك، وسنوفر البذور التي ستقوم أنت وفصيلك بتوزيعها على الأهالي ليبدؤوا في الزراعة، والعودة إلى حياتهم الطبيعية، الوالي مستعد للتعاون معنا، وسيكون حلقة الوصل بين الجيش والأهالي.

تلقى راشد أوامر تفصيلية حول مهمة إعادة تأهيل الجبل الأخضر، لكنه وهو يمرّ بين القرى كان يعرف أن الأشياء لن تعود يوما إلى ما كانت عليه، ربما ستعود الأفلاج والمصاطب، ربما سيتوفر الماء، وستبذر البذور، وستحصد الثمار، وسيعاد بناء المنازل، لكن من سيعيد أرواح الناس الذين قضوا دون ذنب، من سيعيد الآباء والأبناء والأمهات والبنات والأخوال والأعمام والأجداد للحياة؟

كان يشعر بغضبه ينمو في كل خطوة يخطوها خارج مقر الحاكم العسكري باتجاه مخيم الفصيل الذي صار قائده، ولم يكن يعرف من يحمل وزر هذا الخراب الذي يحيط به، أو ربما لم يكن يعرف لمن يوجه غضبه، للثوار وقادتهم أم للسلطان والإنجليز؟

لكنه عاد ليتذكر أنه عسكري، وأنه جزء من كل هذا، جزء من الجيش الذي هو تحت إمرة الإنجليز والسلطان، هو عسكري دخل هذه الحرب ليشهد انتصارهم فيها أو أن يقتل فيها، إن كان قد نجا فذاك لأن ساعته ما حانت بعد، لكن في الحرب الموت هو السيد، الموت والخراب والبؤس ولا شيء آخر.

يتذكر مكانه الذي يقف فيه ورتبته العسكرية التي وصل إليها فيعود إلى واقع الأشياء من حوله، يقول لنفسه لو أن الشيوخ الثلاثة لم يلجؤوا إلى هذه الجبال، ويتحصنوا بها لما كان لكل هذا الموت والخراب أن يحدث.

تقاذفته الهواجس والأفكار المتناقضة طوال النهار، كان موجوعا، وغاضبا، ومستسلما في آن.

جافاه النوم طويلا في ليلته الأولى بالثكنة رغم شدة التعب الذي أثقل جسده، وعندما نام أخيرا رأى الرصاصة تخترق أضلعه، وتنفذ من الجانب الآخر لينتشر بارودها، ويغطي كل شيء حوله كالضباب.

غطى الضباب الجبال والوجوه ثم رآه ينقشع شيئا فشيئا، فرأى ريّا تركض هابطة أحد السفوح، وهي تصرخ باسمه وقد علّقت على خاصرتها طفل، لكنه ليس بطفل، مجرد أشلاء تركض بها ريّا، وتصرخ، ثم صار هو يركض وراءها ويصرخ.

استيقظ مفزوعا، وهبّ على قدميه واقفا دفعة واحدة وكأنه يهرب من فراشه، ونومه هو العدو، ولم ينتبه لنفسه إلا وهو واقف وحده في الخيمة تحيط به العتمة.

غادر خيمته، ومازال الظلام في الخارج أكثر من النور، لكنه سمع من البعيد صوت الأذان ولأول مرة منذ سنوات شعر بحاجة حقيقية للصلاة.

صلاة تُطهّره، وتخفّف عنه، وتنجيه، صلاة يقف فيها بكليته بين يدي ربه، صلاة مخلصة وشافية، وليست كتلك الصلاة التي صار منذ خروجه من سجن الوالي يقيمها عادة وشكلا أمام الآخرين؛ حتى لا يقال أنه قد ترك صلاته، وخرج عن دينه.

بدت الشمس وكأنها مترددة في الصعود إلى شاهق الجبل، فصارت

تعكس أشعتها من خلال الغيم البعيد جهة الشرق فتصل ولا تصل.

مشى باتجاه خزان المياه ليغتسل، فاجأته برودة الماء فارتعش جسده، توضأ وصلى الفجر منفردا، سجد على الأرض الصخرية طويلا، راجياً الله أن يزيل عنه الهم والحزن الذي حط على قلبه منذ أن وصل الجبل، ويبعد عن نفسه أشباح ما رأى.

بعد قليل بدأت حركة الجنود تدب في الخيام، ينهضون على عجلة كعادتهم، وكأن كل يقظة عندهم تنبيه عن خطر. الجنود هكذا دوما؛ مستعدون في الحرب متوجسون من السلم.

عند السادسة نفخ في الصفارة ليجمع أفراد الفصيل الذين صاروا منذ الأمس تحت قيادته المباشرة، عشرون رجلا، غالبهم من العرب الذين انضموا حديثا للجيش، وبعض العسكر من البلوش الذين كان قد زامل بعضم في حامية مسقط.

اصطف الجنود في أربعة طوابير قصيرة، فتقدم ووقف أمامهم، وأدى التحية فأدوها ثم بدأ بتوجيه الحديث إليهم:

«الحرب انتهت لكنكم تعرفوا أن شغل الجندي ما ينتهي، وإن كنا أمس نقاتل فنحن اليوم هنا نحمي ونبني، ولهذا السبب تمركزت كتيبة قوات الباطنة الميدانية على الجبل الأخضر، حتى نتأكد من أنه السلاح ما يوصل هنا ولا الثوار يعودوا».

«البارحة جاتنا الأوامر ما بس بالحفاظ على الأمن، ومراقبة كل شي في الجبل، ولكن أيضا جات الأوامر بمساعدة الناس حتى يردوا لبيوتهم وزراعتهم بدل عن الجوع، وسكنتهم في الكهوف».

«وبيكون شغلنا من اليوم مساعدة أهل الجبل في الشريجة، وسيق وغيرها

من البلدان في تصليح أفلاجهم، وبنيان المتهدم منها، وكذلك مساعدتهم في بنيان بيوتهم، وتصليح المزارع».

- يعني سيدي نحن نكسر ونجبر؟

رشق راشد الجندي الذي تكلم دون إذن بنظرة غاضبة، ثم أجابه بنبرة وإن حاول أن يتحكم فيها لا تخلو من انفعال.

«هذه حرب، والحرب ما فيها رحمة، يموت فيها البريء والمجرم، الظالم والمظلوم، في الحرب أنت قاتل أو مقتول، منتصر أو مهزوم».

نكس الجندي نظره، لكن السؤال الذي أغضب في الظاهر راشدا هو السؤال نفسه الذي كان يريد أن يوجهه للضباط الإنجليز عندما أعطوه الأوامر.

«هيه نعم نحن نكسر، هذه شغلة الجند وهذه صنعة الجيوش، ونحن ما سوينا شي غير عن بو يسوى في الحرب، كسرنا العدو وانتصرنا، لكن التو الحرب خلصت، ولابد إنه قدر المستطاع نجبر الكسر، مفهوم؟».

قال الجنود بصوت واحد تقريبا «مفهوم سيدي».

«الجيش هنا ما مخول يسائل الناس، هذه متروكة حال الوالي والقاضي بس، أما نحن فعلينا بالأفلاج، نشوف المتضرر والمنهدم ونصلحه، والبيوت بو ساقط نبنيه، والمنهدم منها نقيمه».

وزع الفصيل إلى مجموعات، الأساسية بقيادته تقوم بتفقد قنوات الأفلاج في أطراف القرى، وأخرى تتوجه للمخازن لجلب المتوفر من مواد وأدوات بناء، وثالثة تبقى لحراسة المخيم.

مشوا طويلا في دروب وعرة لم تُعبّدها عجلات الآليات العسكرية

بعد، مشوا صعودا وهبوطا حتى وصلوا إلى طرف الشريحة التي ما بقي منها غير رسوم لبيوت سوّاها القصف بالأرض، أو تلك التي لم يبقَ منها غير الأطلال، تجنبوا دخول القرية، ومشوا بمحاذاتها، لكن راشدا انتبه لحركة بين الركام، فوضع يده بسرعة على سلاحه، وكذلك فعل رفاقه، ووقفوا متأهبين موجهين بنادقهم في كل الاتجاهات إلى ما تبقى من أطلال البيوت، ساد الصمت برهة، ثم بدأت رؤوس صغيرة بالظهور بين الخرائب، رؤوس صغيرة جداً بعيون كبيرة جداً، وفارغة جداً تصوب نظراتها نحوهم بكل ما هو ممكن من جوع وغضب.

وقف الجنود ببنادقهم المصوّبة في مواجهة تلك العيون، التي ما لبثت أن هربت واحتمت بالطين المتهدم، الذي كان يوما بيوتا، وضحكات، ومواقد نار، وروائح خبز.

أمر راشد الجنود بخفض أسلحتهم، وإكمال المشي.

بعد مشي طويل وصلوا إلى بداية قناة الفلج على حدود البلدة، كانت شبه مطمورة، لكن بها أثر ماء فقدّر راشد أن أم الفلج لم تتضرر، وأن كل ما يحتاجه الأمر هو رفع الحجارة من المجرى، وتنظيف القناة، وترميم الجوانب المتهدمة منها، إلا أنه لم يكن متيقناً من ذلك، واحتاج لمساعدة الأهالي كي يحددوا مواقع أمهات الأفلاج، فطلب من الوالي أن يتكلم مع الأهالي، ويقنعهم بضرورة التعاون معهم.

مرت بضعة أيام قبل أن يعود الوالي بصحبة رجال من سكان القرى، وعندما وصلوا وهبطوا من سيارات البدفورد، تقدم الوالي من معه من الرجال، وكانوا سبعة رجال من أعمار مختلفة، لكنهم من شدة الهزال بدوا وكأنهم جميعا قد تجاوزوا سن الكهولة.

وقف الرجال السبعة إلى جانبي الوالي بظهور مشدودة، وكأنهم يحملون البنادق خفية على ظهورهم، رؤوس مرفوعة وكأن الدمار والموت لم يمس من أرواحهم شيئا، ينظرون في وجوه الجند فتلاقي العين العين دون أن يهتز لها جفن، يحيط بهم العسكر فلا يظهرون كثير اكتراث بهم.

عرّف الوالي الرجال بقائد الفصيل ومهمته، وبعدها أمسك راشد بزمام الحديث:

«الجيش زار الشريجة وسيق وتفحص السواقي والفُرَض[44]، لكن بعدنا ما وصلنا أمهات الأفلاج،[45] وما متأكدين إن كانت تضررت أم أنها باقية على حالها، والأكيد أننا هنحتاج مساعدتكم تدلونا عليها، وأنتم أهل البلد، وأخبر منا بها».

دل الأهالي الجنود على أمهات الأفلاج، وهبط راشد معهم برفقة الجنود إلى القنوات الداخلية، وقاموا بتنظيفها، وإعادة تأهيلها، تعاون الأهالي معهم فرمموا ما تهدم، وسقط من القنوات، وعاد الماء إلى التدفق في السواقي، لم يكن الماء وفيرا، لكنه كان كافيا لبدء الحياة في القرى الضامرة.

ساعد الفصيل بعد ذلك الأهالي في إعادة إعمار البيوت، خاصة تلك التي في الشريجة، وسيق والتي تهدمت، ولم يبقَ منها أثر، فعاد إليها من تبقى من أهلها المقيمين في الكهوف منذ بداية الحرب.

رُممت المصاطب، ووُزِّعت البذور فعاد الورد، والرمان، والمشمش، واللوز للإزهار في الربيع.

---

44. الفرض: فتحات رأسية في مجرى الفلج للتهوية والصيانة.

45. أمهات الأفلاج: منابع مياه الأفلاج.

طُلب منهم أن يعيدوا كل شيء إلى مكانه. إلا أن راشدا يعرف أنه لا شيء سيعود كما كان.

كان يرى وجوه الناس الذين يمر بهم، عيونهم المتهمة، خليط الازدراء، والكراهية الذي يُقذف في وجوه الجند، الغضب الذي يدارونه... يدارونه فقط حتى حين.

13

لم تعد تعلّقه على خاصرتها، ولم تعد كفه تتعلق بكفها في المشي، صار بين الطفولة، والرجولة يمشي أمامها في دروب مسقط، يرافقها إلى بيت الوادي يوم الجمعة حيث يسلّم على العودة في عجلة، ثم ما يلبث أن يركض خارج البيت لينضم إلى الأولاد المتجمعين في بطن الوادي، ليشكل وخليفة بن ناصر فريقا في لعبة (اللقف دوم)، والركض على الحصى الملتهب، فيغلبا في لعبهم أبناء عمهما صالح الذين يكبرونهما في السن، ويتخلفون عنهما في سرعة الحركة، وحضور البديهة.

تسألها فضيلة وهن ملتفات حول صينية الفوالة عن سبب عدم إنجابها طفلا آخر، فتبتسم وتقول الرازق الله، تنصحها نساء الدار في أصوات متداخلة بالذهاب لزيارة جارتهم (جان بيبي) لتقوم بمسحها، وتدليك بطنها، وتسوية رحمها عَلّ بذرة تعلق به، فتكرر عليهن «الرازق الله».

تلحظ العودة ضيق ريّا من الحديث المتكرر حول عدم إنجابها بعد زاهر، فتعاتبهن بنظرة طويلة وناهية، وتطلب منها أن تتناول المصحف، وتقرأ لها بعض آيات من القرآن، تقول لها: «هذا البيت ما يدخله وُبَصْ، وما يشرق إلا يوم تستمع قرايتش فيه».

تفهم النساء الإشارة فيغادرن الحجرة، يأخذن صغارهن، ويتركن المكان ليعود إلى سكينته.

تقوم ريّا فتتناول المصحف من على أحد رفوف الروازن، تمسحه بطرف وقايتها، وتقبله ثم تضعه على رأسها، ثم وكعادتها في كل مرة تجلس أمام العودة.

«كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا»

تحب ريّا سورة مريم، تحبها وتشعر بالياء الممدودة فيها تمتد من قلبها إلى حنجرتها حتى تصعد خفيفة في انفراج شفتيها، وكأن كل كلمة دعاء، وكأن كل مد فيه نداء لها.

يتغير الحرف آخر الآية فتتحول الياء الممتدة إلى دال، وبعدها ألف حازمة؛ وإن كانت ريّا تجد فيه حزما مختلطا بحنان كما كان حزم أبيها معها، ثم تختم السورة بحرف الزاي والألف الممدودة بعدها في التذكير.

تشعر باهتزاز الزاي الذي يخلفه ترددها بين الأسنان والشفتين المنفرجتين، تشعر بالاهتزاز يسري إلى أذنيها، ويتسرب عبر حلقها إلى صدرها، تشعر بالحرف المهتز يسكن تجاويفها، يرتد عن عظام قفصها الصدري، يبعثر تلك الطمأنينة التي كانت في الياء الممدودة أول السورة.

تغلق ريّا المصحف، ويبقى حرف الزاي يتردد في جنبات الحجرة وفيها.

تعيد ريّا المصحف إلى مكانه، وتبقى واقفة بعض الوقت أمام الروزنة، يأتيها طيف أبيها باشّا، وهو يأخذ إصبعها ويمررها على الآيات، حرفا حرفا وكلمة كلمة، يطلب منها أن تغلق عينيها

«غمضي وتبعي الحرف بطَرف صبعش، كذا ينقش الحرف في الفواد، وما يضيع».

«كلام الله يحس في كل شي، في الصوت، وفي الخط، وفي النطق، وفي المعنى».

«المعنى في الفواد ما في العين، لكن العين باب، واليد باب، والحرف باب، وكل باب منها يفتح على باب، وكله يسيل لكنه يتلاقى في مكان واحد، في الفواد».

«لو المعنى ما استقر في الفواد من هين بيجي النور؟».

«الله هو النور... وكلامه نور».

«ولو النور ما شق الصدر واستقر، كل ذا العلم ما يله معنى، ولا منه أجر، ولا يرتجى منه وصول».

«الوصول بالتسليم».

تسأله عن معنى الوصول.

يبتسم وكأنه يرى ما لا تراه «الوصول وقوف المحب بين يدي المحبوب».

ثم تسأله عن التسليم.

«الإيمان... اليقين بأن كل أمر من الله خير، إن أعطى فهو خير، وإن منع فهو خير، ما يوقف الإنسان بين يدي الله إن داخله شك في محبته».

تذهب بعيدا في كلام أبيها، ولا يعيدها إلى مكانها إلا صرخة من طرف الحوش، وصوت بكاء تعرفه، يدخل زاهر الحجرة، والدماء تسيل من جبهته، ووراءه خليفة يقول كلاما كثيرا فتنهره العودة.

تهلع لرؤية الدماء فتركض إليه، وتحمله بين ذراعيها، تسجيه عند قدمي العودة، وتقرفص إلى جانبه، تمسح جبينه بطرف وقايتها لكن الدماء لا تتوقف، تأمره العودة بالتوقف عن البكاء ثم تفحص رأسه بأطراف أصابعها لتعرف مكان الجرح وتقدر عمقه، ثم تأمر ريّا بالذهاب إلى المطبخ، وجلب خليط من الكركم والملح.

تمشي ريّا مسرعة إلى حيث تطبخ النساء، تطلب منهن عيدان الكركم والملح، تتسامع النساء بالخبر فيهرع بعضهن إلى حجرة العودة، وتبقى حميدة معها تحاول مساعدتها في تحضير ما أمرتها به العودة. تناولها حميدة الكركم والملح لكنها لا تتوقف عن الأسئلة، وريا غائبة في خوفها عن أسئلتها، تدق عيدان الكركم والملح بكف مرتعشة حتى تكاد أن تخطئ فتؤذي أطراف أصابع كفها اليسرى، تناولها حميدة صحنا فتضع فيه الخليط ثم تركض عائدة إلى حجرة العودة.

تأمرها العودة بفتح السحارة، وإخراج قنينة زيت (حل الحليل) وسكب مقدار كف فيه وخلطه به. تخلطه فيتحول خليط الكركم والملح إلى مزيج متماسك تناوله العودة بكف مرتجفة، تقول لها العودة وهي تأخذ منه مقدار اصبعين «يا بنتي، تراه ما يستوي طب ورْحُمْ» ثم تكبس المزيج في الجرح بقوة حتى تغلقه فيصرخ زاهر.

تشعر ريّا بأن قلبها ينخلع في صرخته فتعض على شفتيها حتى تكتم صرختها، ثم بكف مرتعشة تناول العودة خرقة فتعصب جبين زاهر بها، وتأمره بالاستلقاء بعض الوقت.

تنسحب الرجفة من أطرافها، وهي تراقب العودة تداوي ابنها بهدوء وثقة، وعندما تنتهي من علاجه ينقل زاهر رأسه، ويضعه في حجرها وهو مغمض العينين، ثم متى ما اطمأن فتحهما ليجد أمه منحنية عليه، ذراعاها

يحيطان برأسه، وكأنها شجرة منكسة بوافر ظلها على الأرض، ينظر في عينيها فتتجمع دموعها، وتفيض عيناه بالدموع مرة أخرى.

تأمر العودة خليفة بإخبارها عما حدث، ومن تسبب في شج رأس زاهر، فيحلف بالله أنه لم يكن الفاعل، وأن زاهرا سقط من تلقاء نفسه أثناء سباقهم في الوادي فشج رأسه.

تلتفت العودة إلى زاهر النائم في حضن أمه وتقول له: «مرة غيرها لازم تعرف موطى رجلك عن تطيح وتتعور» ثم تصمت قليلا ثم تكمل «وتذكر بو يعور عمره ما يصيح، سمعتني؟».

* * *

بعد يومين رافق زاهر أمه إلى بيت الباغ، وما كادا أن يدخلا من البوابة حتى لمحته مزنة التي كانت تلعب أمام الدار بدماها القطنية التي تصنعها لها غزلان، رأته معصوب الرأس فتركت دماها متناثرة على الأرض وركضت إليه.

سلمت مزنة على معلمتها، ثم شدت زاهرا من ردن دشداشته فتأخر خطوة عن أمه وصارا يمشيان خلفها، ثم توقفت، وأشارت إلى رأسه المربوط، وسألته عمّا حدث لرأسه.

أخبرها بأنه سقط في الوادي فشجّ رأسه، مدت يدها، وتلمّست جرحه من خلف القماش، سألته إن كان يؤلمه فقال لا، وشرح لها همسا ما فعلته العودة، وكيف أن أمه كانت تبكي.

استمرت ريّا في مشيها قليلا ثم التفتت إليهما فوجدتهما، وقد تأخرا عنها بخطوات فتوقفت حتى لحقا بها، وهي تكاد تقترب من درج المدخل، تناولت مزنة دماها، ودخلت معهما.

كانت البيبي تنتظر ريّا في حجرة الضيوف، وما إن رأته يدخل في إثر أمه حتى ندّت عنها شهقة، ثم أخذته من يديه، وأجلسته في حضنها، تمسح على جبينه ورأسه، وتقرأ عليه المعوذات.

أحضرت مزنة كوبا من ماء الورد، وصارت تسقي زاهرا، وهو في حضن أمها، ابتسم لرائحة الماء المحلى، وبرودته، ولعينيها اللتين كورقتين سقطتا من شجرة لوز.

انشغلت أمّاهما وغزلان بالكلام؛ فانسلا، وتركا الحجرة دون أن يحسّ بهما أحد، وأخذا يركضان في البستان باتجاه شجرة الرمان التي يحبان.

جلسا عندها، وبدأ زاهر بخط الحروف بغصن على التراب.

رسم حرف الميم كما علمه أبوه في أول الكلمة، وفي وسطها، وفي آخرها، في كل مرة كان للحرف شكل مختلف.

كانت تكبره بعامين، وكانت تعرف القراءة لكن أحدا لم يعلمها الكتابة، أخذ إصبعها وكتب به حروف اسمها واحدا واحدا ثم علمها كيف تشبك الحروف فتصير كلمة هي اسمها، ثم كيف تفرقها فتتناثر، كتبت حروف اسمها كما تنطقها ثم كتب هو حروف اسمه:

«م، ز، ن، ة»

«ز، ا، ه، ر».

«نحن نتشابه بس في حرفين والباقي حالي وحالش، كل واحد يشل حروفه ويبقى بس (م، ن، ا، ر)، شفتِ تستوي «منار»، ولو شوية حركنا الحروف بتستوي «رمان».»

تركها تتأمل الحروف المرسومة على الأرض، وقام وقطف لها حبة رمان دانية، عضها بأسنانه وبصق القشرة، ثم قسمها بأصابعه وناولها نصفا

واحتفظ بالآخر، يسيل عصيرها على أصابعه فتصبغها بالحمرة لكنه لا يكترث إلا للمرارة العالقة في لسانه من طعم القشر، يبصقها ثانية:

- قشارها مر...

- لكن أمي تقول إن فيها حبة من حبات الجنة.

- الجنة في الرمانة؟

- لا، حبة من حبات رمان الجنة في كل رمانة.

- يعني لو أكلناها نسير الجنة؟

- إيه.

- يعني بنموت؟

نظرت إليه نظرة عتاب وغضب:

- أمي تقول إن اللي ياكل حبة رمان الجنة بيروح الجنة.

- زين، لو أكلت أنا الحبة كيف بعرفها؟

- ما بتعرفها، ولو أكلتها أنا بعد ما بعرفها.

- يعني بس واحد منا بيسير الجنة؟

وقف غاضبا، ورمى الرمانة من يده:

- أنا ما أريد هذي الرمانة وما أريد حبتها وما أريد أسير الجنة إلا كان سرناها رباعة.

رمت الرمانة من يدها وقالت له مطمئنة:

- ولا أنا أريدها. والجنة بنروح لها أنا وأنت... بس لا تسبقني.

قالتها وركضت فركض وراءها، نسي عثرته في الوادي، ووقوعه وشج رأسه، نسي نصيحة العودة وتحذيرها.

ركضت فركض وراءها، يتسابقان كعادتهما إلى مكان في الجدار وضع له زاهر علامة بقطعة فحم وجدها في بقايا سعف النخيل المحروق، يلمسان العلامة بأطراف أصابعهم ثم يعودان راكضين إلى شجرة الرمان.

يلهثان ويضحكان، يسمعان صوت سعاد تبحث عنهما فيختبآن، ويكتمان أنفاسهما حتى تغادر، وما إن تغادر حتى تبرق عيونهما ثانية فيعودا للركض واختراع اللعب.

* * *

لم تتعلم سعاد ومهرة الكتابة، واكتفت أمهما بما علمتهما إياه ريّا، وما تحضرانه في المأتم في أيام العزاء والمناسبات، لا تخرجان من البيت إلا لسبب وفي رفقة أمهما أو غزلان.

لكن مزنة تعلمت الكتابة، أخذت عهدا على زاهر أن يعلمها كل ما يتعلمه في السعيدية، فصار كلما زارهم خرجا إلى البستان، وجلسا إلى جانب الرمانة يخط لها على التراب كلَّ ما تعلمه في المدرسة في ذلك الأسبوع.

سرّب إليها أقلاما وورقا، وعلمها الكتابة، والحساب، والجغرافيا، والأناشيد. كانت تردد أمام أمها ما يعلمها إياه زاهر من أناشيد في اللعب، لكنها لم تخبرها أبدا بأنه يعلمها الكتابة أيضا، لسبب ما أحست أنها لو أخبرتها لعاقبتها، وربما حرمتها رؤية زاهر، فبقي السر بينهما.

كبرت قبل زاهر فمنعتها أمها من اللعب معه في البستان، وصارت تستقبله مع أختيها وغزلان داخل البيت، وتقدم له الفوالة، ويجلس فيحدثها عن المدرسة، ورفاقه، وأساتذته وكتبه، ثم إذا ما أراد المغادرة رافقته إلى الباب

لتسلم عليه، وتترك في كفه أو يترك في كفها رسالة صغيرة، يقولان فيها ما لا يقال في حضور الآخرين.

مع الأيام كانت رسائلهما تصبح أطول، والكلمات تتكاثر، وتصنع لهما جسرا ورؤية.

14

انطلقت رصاصة مسلم بن نفل فما عاد شيء في ظفار كما كان.

بدأت الثورة في أبريل 1963 بهجوم على قافلة تابعة لشركة النفط (جون ميكوم أويل) كانت تسير في الطريق بين صلالة وثمريت، وقتل فيها العسكري المرافق، بعد ذلك توالت الأحداث، كمين هنا وإطلاق نار هناك، قتل جندي هنا أو اثنين هناك، تفجر لغم تحت عجلات سيارة للجيش هنا أو لشركة النفط هناك.

كان ذلك يثير قلق الجيش والسلطان، فعززت الحراسة، وسيرت الدوريات، ونشطت قوى الاستخبارات، لكن ما حدث يوم أن تعرض السلطان سعيد لمحاولة اغتيال وهو يقوم بجولة تفقدية على الجنود في مخيم عين رزات، هو ما غير كل شيء في ظفار وإلى الأبد.

كانت محاولة فاشلة لكنها كانت كافية لاستثارة السلطان، وإفقاده ما تبقى لديه من إحساس بالطمأنينة فأمر بإنشاء سور حول صلالة، فأضاف إلى معاناة الناس فيها تقييدا لحركتهم، ثم اعتزل في قصره، ولم يغادره إلا بعد الانقلاب.

في منتصف 1966 تم استدعاء راشد إلى بيت الفلج، قابله اللافتنت هيكسلي وضابط إنجليزي آخر، وأمره بالاستعداد لقيادة فصيل في كتيبة مشاة جديدة أنشئت لتعزيز جيش السلطان في ظفار.

علمته العسكرية أن لا يناقش، أن يقول نعم سيدي وينفذ، وإن كان في ذلك مضاعفة للمسافة بينه وبين أخته.

تحركت الكتيبة من بيت الفلج جوا إلى ظفار، لم تكن رحلة راشد الجوية الأولى، لكنه كان يركب طائرة الهيركليس لأول مرة، ولأول مرة يسافر كل هذه المسافة محمولا في الهواء، شعر بشيء من التوتر عندما اقترب من الطائرة الضخمة الرابضة في مدرج مطار بيت الفلج.

دخل الجنود إلى بطن الطائرة في طابور واحد طويل، فوجدوا أنفسهم في تجويف شبه خال تتدلى من سقفه الحبال الغليظة التي كان عليهم أن يثبتوا أنفسهم بها أثناء الطيران.

جلسوا على كراسي الحديد المتكئة على جوانب الطائرة في صفين متقابلين، وثبتوا أنفسهم وعتادهم بالحبال، وهم يتبادلون نظرات تمتلئ بالأسئلة والتوجس.

كان هدير الطائرة وهي ترتفع في الهواء مخيفا، وفي حين كان بعض الجنود لا يظهرون أي رهبة من ركوب الطائرة، توتر البعض بشدة لدرجة أن أحدهم وكان يجلس مقابل راشد تقيّأ على أرضية الطائرة، مما جعل الهواء في الطائرة نتنا ومشبعا برائحة القيء.

وبالرغم من التوتر الذي كان راشد يشعر به في داخله إلا أن وجهه لم يشِ به، كان صامتا جامدا ينظر أمامه يتأمل الفراغ ولا يلتفت ناحية أحد.

لساعات حلّقت بهم الطائرة فوق الصحراء العارية وجبال الحقص

الرسوبية التي تفصل شمال عمان عن جنوبها، وعندما نزلوا كان الدوار يلفهم، خرج الجنود يترنحون من جوف الطائرة، أما راشد فقد قفز عند أول إشارة بالإخلاء متظاهرا بالقوة.

كان يضع كيسه الخاكي المصنوع من قماش الهيسيان السميك على كتفه الأيمن، وعلى الأيسر يضع بندقيته، ويقف كعمود من الصلب المصبوب لا يترنح، عيناه مثبتتان على آخر نقطة تصلان إليها، ولا يردد في رأسه غير كلمات السلاح، وكأنه متشبث بما فيها من صيغ الأمر الواضحة التي لا تعرف التردد، فلا يعطي لاختلاف الأرض تحته فرصة؛ فتشي بالدوار الذي يشعر به.

خرجوا من بطن الطائرة فوجدوا السماء تهمي رهاما خفيفا ينتثر برقة، والجبال البعيدة محجوبة بطبقة كثيفة من الضباب.

اصطف الطابور على أرض المدرج الواقع عند أطراف صلالة، ثم هرولوا جميعا لمسافة قصيرة إلى سيارات اللاندروفر التي أخذتهم إلى معسكر عين رزات في السهل القريب.

البحر الذي حاذوه في طريقهم باتجاه الجبل كان هائجا، موج يدفع موجا بقوة إلى الساحل، فيرتطم بقسوة بالجروف الصخرية، ويرتد عنها ثم يعاودها بالقسوة ذاتها.

أحس راشد بالنداوة تغلف قلبه، ارتاح للخضرة التي تكسو الجبال ولأزرق البحر الحائل للرمادي في غضب اصطخابه، وتدافعه.

كان يظن أن العسكرية والتدريب المكثف قد قسّيا قلبه، لكن موجة من موجات بحر العرب الهائجة هزّته بقوة، أخذته في لحظة إلى الطمأنينة في وجه ريّا والبشاشة الدائمة في وجه أبيه وإلى نخلهم العالي في السراير.

لوهلة اهتز قلبه من فرط الجمال الغريب الذي يمر به، فشعر بشيء يشبه الحزن يخالطه ثم يرتفع ليتجمع عند منابع دمعه فيحبسه كي لا يفيض.

أغضبه ذلك قليلا، يرى نفسه رجلا عسكريا لا يفترض أن يهزه شيء أثناء تأديته لواجبه، ولا يليق به أبدا أن يهتز لرؤية الجمال.

هز رأسه بقوة وكأنه يستعيذ من الجمال ويبعده عنه، ثم أنزل عينيه، وثبتهما على طرف حذائه العسكري الضخم، وتحسست يداه بندقيته كأنه يتشبث ببرودة حديدها، بلامبالاتها الصارخة، باستكانتها بين يديه وبامتلاكه لها وامتلاكها له، هو يعرف بندقيته أكثر من أي شخص آخر، يعرفها جيدا ولا يثق إلا بها.

ذخّر، سدّد، أطلق النار، وتيقّن من إصابتك الهدف.

ذخّر وسدد وأطلق، هذا كل ما في الأمر، هذا كل ما تطلبه المعركة، وربما كل ما تطلبه منه الحياة أيضا.

* * *

في ظفار كان على الجنود أن يتدربوا على استكشاف المسالك الوعرة، التدرّب على المشي فوق الأرض الزلقة بفعل المطر الذي لا يتوقف عن التساقط في موسم الخريف، والزحف فوق الطين واختراق الشجيرات الشوكية.

كان عليهم أن يتدربوا على الرؤية في الضباب، أن يشحذوا حواسهم كلها ليسمعوا ويروا ويشعروا بكل نفس في الأحراش الجبلية.

كان عليهم أن يتعودوا التعامل مع أرض جديدة، وعدو جديد، وأسلحة جديدة، كان عليهم التدرب على التسلق والتشبث، صنع السواتر، استخدام المتفجرات، التقدير الدقيق للمسافات، تحديد الزوايا وقراءة الخرائط.

كانت حربا جديدة في بيئة مكسوة بغطاء نباتي كثيف ومسالك شديدة الوعورة، بيئة لا تشبه في شيء بيئة الجبل الأخضر العارية الجافة المكشوفة.

كان عدوهم هناك واضحا ومعروفا، أما أعداؤهم هنا فهم كالأشباح يظهرون، ويختفون عندما يريدون، لا يعرفون عددهم تحديدا، ولا يستطيعون قطع طرق الإمدادات التي تأتيهم عابرة لحدود اليمن على ظهور الجمال.

عرف القادة مبكرا أن حرب العصابات في الجبل كانت بحاجة إلى مهارات استثنائية، ودعم كامل من سلاح الطيران حتى يستطيعوا تأمين مواقعهم، وطرق إخلائهم وتموينهم، وحتى يجسّروا الفجوة بين صاحب الأرض الذي يعرف مكان كل كهف، ومسلك، وشجرة، وقرية، وبين العمى التام الذي كانوا يعيشونه بسبب اختلاف الطبيعة، ووعورة المسالك، وكثافة الشجر، ونوعية العدو، واللغة المختلفة.

كانت الدوريات تتحرك باستمرار في الطريق بين صلالة وثمريت وبين صلالة وريسوت، وكانت هناك قائمة بأسماء الأشخاص المطلوبين من الحكومة الواردة في التقارير الاستخباراتية التي كانت ترصد تحركات الثوار وإمداداتهم.

كانوا يجدون بعضهم أحيانا فيضعون الحديد في أيديهم، وأرجلهم ثم يرسلونهم إلى الجلالي في مسقط، لكن غالب الشخصيات كانت وكأنها مصنوعة من مادة الأشباح نفسها، فكانت تظهر في أماكن لا تخطر على البال ثم تعود فتختفي عندما تشاء.

كان الثوار رجالا مقاتلين وأشداء، وكانوا أهل الأرض وأسيادها، هم أصحاب اللعبة، وواضعو الشروط، يتعاطف معهم الناس لأنهم يتكلمون في مظلوميتهم، وكان الظلم في ظفار ثقيلا، ويزداد وطأة على أهلها مع إحساس السلطان سعيد المتعاظم بفقدان الأمان والعزلة.

كانت الفرق تتناوب على الوجود في ظفار، وعندما لا يكونون في ظفار فإنهم في معسكر بيت الفلج يتدربون ويُدرّبون.

إلا أن راشدا كان قد طلب من القائد أن لا يغادر ظفار، وأن يبقى في الخدمة طوال الوقت.

هو لا يعرف ما أحدثته ظفار فيه، لكنه لسبب ما وجد نفسه في مكانه. أحب الجبال المكسوة بالخضرة في موسم (الخرْف)، ثم أحب موسم (الصَرب) عندما يكسو الزهر السهول، ثم أحب عريها الصارخ في بقية أيام السنة.

أحب بحر العرب في اندفاعه نحو الشاطئ، وتعلق قلبه بالدروب الوعرة الصاعدة أعلى الجبال.

صار استكشاف المكان هوايته في أيام العطل، فيظل يجوب المناطق الآمنة، ويحدد مواقع الكهوف، ويخرج مع الضباط الإنجليز في رحلات صيد عندما يكون البحر هادئا والصيد ممكنا.

لكن أكثر ما كان يمتعه هو تعلم بعض كلمات من اللغة الشحرية، اللغة التي لم يسمعها من قبل، اللغة التي أغرته بقوة نبرتها، واختلاف مخارج حروفها، ومسالكها في الكلام، اللغة السر التي تقترب من العربية في لحظة وتفر منها في اللحظة التالية.

يخالط رفاقه من الجنود الظفاريين فيجسر البعد بالكلام، يستمع إليهم جيدا، ويلتقط المعاني، يشعر بأنه يعرف هذه اللغة، يعرفها جيدا وأن كل ما عليه هو الاجتهاد في تذكرها فقط.

هكذا بدأ في تعلم الشحرية، فصار يعرف أن البندقية «منديق»، والقتل «لوتغ»، والكهف «رقب»، والسلام «عوفيت»، والموت «إيت»، والحب «عوجوب».

* * *

أُرسل راشد على رأس فصيله للقبض على بعض الثوار المتسللين إلى وادي نحيز، كانوا اثني عشر رجلا كما ورد في تقارير الاستخبارات، وكانوا في طريقهم من الكويت مع شحنة أسلحة لتسليمها إلى الثوار.

عبر الثوار الربع الخالي، ودخلوا البلاد، وأدخلوا معهم شحنة من الأسلحة والألغام، وكان على راشد وفصيله الإيقاع بهم قبل وصولهم وما يحملون إلى الثوار في مخابئهم في الجبال.

كان دليلهم في الجبل رجلٌ من أهل البلاد، يمضي أمامهم في المسالك، ويتسلق الروابي المكسوة بالشجر، يتنقل بين صخرة وصخرة وشجرة وأخرى كأنه نمر عربي، يمضي أمامهم خفيفا، وواثقا لا حاجة له للمس حصاة أو التشبث بغصن.

وكانوا يمشون وراءه بحذر؛ عندما وجدوا أنفسهم فجأة وسط غابة من الشجر الكثيف، لا يكاد الضوء يتسلل من بين أغصانها الملتفة، بعد قليل اختفى الرجل، ولم يعد موجودا في أي مكان.

أشار راشد على الجنود بالاختباء والسكون، حتى يستطيعوا التأكد من أن المكان آمن، وأن لا كمين قد نصب لهم بمساعدة الدليل.

لكن لم تكد تمضي بضع دقائق حتى بدأ الرصاص يأتيهم من ناحية الغرب، عندها أيقن راشد والجنود الذين معه أنهم قد وقعوا فعلا في كمين محكم، وأن دليلهم أجاد تضليلهم.

بدأ راشد بإعطاء الإشارات الصامتة إلى الجندي الذي بقربه كي ينقلها إلى من تلاه ليبدؤوا في التسلق على هيئة كماشة، ويطبقوا على موقع الثوار فيحاصروه من كل جانب.

قاد راشد الميمنة، بينما أمر العريف خليفة بن خميس بقيادة الميسرة، وبقي الجنديان خليفة بن عامر، وسعيد بن مسلم في مكانهما يغطيان تحرك الجنود بإطلاق الرصاص على الموقع.

استمرت المعركة حوالي ساعتين لم يتوقف فيها إطلاق النار إلا ليبدأ من جديد، لكن بعد ساعتين وعندما كادت ذخيرتهم أن تنفذ، تمكن راشد من الوصول إلى موقع يسمح له بكشف موقع رشاش (سفاغين) الذي كان يمطرهم بالرصاص، فألقى قنبلتين يدويتين على الموقع فتوقف صوت الرصاص، وانسحب الثوار إلى مخابئهم.

سقط من فصيله جنديان، وأصيب ثلاثة بجروح طفيفة، بينما وجدت أربع جثث للثوار الذين كانوا في الموقع.

عاد راشد وفصيله إلى المعسكر بعد أن استولوا على أسلحة الثوار، وقدم تقريره، وسلمه للقادة، وحصل على نيشانه الثاني، وترفيع إلى رتبة جديدة.

مع الوقت ازدادت الهجمات على الجيش، وفي المقابل ازدادت فرق الجيش التي انضمت للخدمة في ظفار كما ازدادت الخبرة لديهم في كيفية التصدي للثوار، والتعامل مع أسلوبهم في القتال.

لكن كل ذلك لم يكن ليوقف الثورة التي تحولت من ثورة بسطاء، بدأت كرد فعل على الظلم المتراكم؛ إلى ثورة مسلحة ومدربة تدريباً جيداً، وصارت رغم إصرارها على مبدئها تغير أيضا أسماءها، وأفكارها وتوجهاتها.

وفي المقابل لم يقبل السلطان سعيد أن يدخل في مفاوضات مع قادتهم أو البحث عن حلول دبلوماسية، أو حتى التخفيف من قبضته على ظفار، بل بالعكس ازداد تشبثا برأيه على أن القوة لا تواجه إلا بالقوة، وأن على الجيش أن يقضي على المتمردين، ويجتث الثورة من منابتها بلا رحمة.

وهكذا اتسع نطاق الحرب، وأصبحت قوات الثوار أكثر جرأة مع الوقت، وصارت تقترب أكثر وتنفذ عملياتها في محيط صلالة ومرباط وطاقة.

بدت ظفار في لحظة ما وكأنها على وشك السقوط في أيدي الثوار، وكان ذلك يعني للإنجليز أن البلاد ستسقط في يد الشيوعيين، وأن الخليج الذي ظنوا أنهم قد أمّنوا نفطه ومعابره على وشك السقوط في يد روسيا والصين، وهذا بالضبط ما لم يكن الإنجليز مستعدين لحدوثه.

على الخليج أن يبقى مواليا للمعسكر الغربي، وآمنا، وتحت السيطرة، هكذا فقط يصبح العالم آمنا وفي حالة توازن من وجهة نظرهم.

ولأن السلطان سعيد لم يكن قادرا على إدراك حجم الخطر الذي يحيط ببلاده، وبمصالح أصدقائه فيها، كان يجب أن يستبدل به وريث أكثر حداثة، وأقدر على إخماد الثورة، وتأمين البلاد.

وكان الوريث الشرعي حاضرا وموجودا في القصر.

15

صار زاهر يكثر من المشي في الفسح، وفي الوقت الذي يقضيه رفاقه تحت الغافة عند الطرف الشمالي كان هو يقطع حوش المدرسة من أقصاه إلى أقصاه، أحيانا يصحبه خليفة بن ناصر، وأحيانا يفعل ذلك وحده.

خليفة بن ناصر رفيق طفولته واللعب في الوادي الصغير والوحيد الذي لم يسمّه (الغريب) عند أول دخوله إلى السعيدية.

يتذكر أنه عاد إلى البيت ذات يوم وسأل أباه، وكان قد ضاق ذرعا بلقبه الذي لا يفهم معناه، ولا يجد له مبررا، كيف يكون غريبا وهو من مسقط مثلهم؟ أجلسه علي إلى جانبه، وأخرج قرطاسا من قراطيسه، وفرشه على الأرض، ورسم عليه نقاطا وخطوطا:

«هذه مسقط حيت نحن التو، وهذه النقطة البعيدة (السويق) وهذه النقطة الصغيرة عندها بلاد صغيرة تسمى (سيمات)، شوفها هنا على الساحل بين (ضيان) و(البوارح)».

ورسم خطا يصل عليه النقاط التي يذكرها، ويضع حول سيمات دائرة.

«في سيهات ولدت أنا وولد أبوي وجدي وجد جدي، لكن أبوي الله يرحمه كان يقول أن قبيلة الجويري أصلها من بلاد قريب نزوى تسمى الفايضة، وبعده فيها بيت أو اثنين يسميّوا الجويري».

ثم رسم نقطة أخرى على القرطاس، نقطة تبعد قليلا إلى الداخل باتجاه الجنوب، «أما هذي النقطة فهي الرستاق، وفيها بلاد تسمى السراير، هناك ولدت أمك وخالك راشد ومنها هبطوا إلى مسقط».

«نحن ما من سكان مسقط بالأصل، غالب سكان مسقط من بيت الحكم، وبيوت من البحارنة أصولهم من عرب العراق ونجد، وبلوش أصلهم من جوادر ومكران وهم في الأصل عسكر في جيوش السلاطين وبعده أكثرهم يخدم فيها. وهنود جابوهم الإنجليز معهم تجار أو موظفين في الجمرك. وبعض العبيد، وأصولهم من قبايل أفريقيا، لكنهم سرقوهم وباعوهم واستعبدوهم، وهم في الغالب خدام السركال وبعض بيوت تجار مسقط. وهناك بيوت من بعض القبايل هبطت من قريات ووروي وغيرها من البلاد القريبة، واشتغلت في النخل أو سوت لها تجارة في السوق كما بني وهيب، والجرادنة، والكواسب، والحميديين في حلة الطويان، وميابين، وسداب، والبستان، وهناك موظفين السركال يشتغلوا في الجمرك، والبرزة وغيرها، ومنهم كتاتيب كماي أنا وأبوي، وأكثريتنا رجال متعلمين من قبايل أصولها من بلاد الباطنة أو نزوى وما حولها».

«جدك، الله يرحمه، كان موظف عند السركال، تعلم في نزوى على يد الإمام والمشايخ وزاد على رباعته في النحو والخط، ومن خلص علمه رجع سيهات، وتزوج بنت عمه فضيلة بنت ساعد، وولدت له ثلاثة صبيان ما بقى منهم حد غيري. ويوم ضاقت به الحال في سيهات هبط مسقط، واشتغل كاتب مع السركال. لكنه رجع من توفت أمي، الله يرحمها ويغفر لها، وكان

عمري ذاك الوقت يمكن ست سنين، رجع سيمات قام العزا ومن بعد جابني مسقط معه، وتزوج من هنا حرمة اسمها حسينة بنت كذي، لكن الله ما رزقه بأولاد منها، ماه حسينة ربتني كأني ولدها».

«يوم دخلت السعيدية سميوني الغريب كما سميوك، يشوفوني، ويخطفوا عني، وكأنهم ما يشوفوني. ما أعرف، يمكن اسم القبيلة غريب عليهم، ويمكن لأن الوالد كان يشتغل مع السركال، أو يمكن كانوا يغاروا مني؛ لأن المعلمين يمدحوا خطي، ولأني دخلت المدرسة وأنا عدت خاتم القرآن مع أبوي وأعرف الكتابة، ويمكن لأننا كنا نسكن بعيد في (ريام) ورا العقبة، وما كنت أسكن في الحارات قريب (السعيدية) كما ميابين والتكية وولجات ولا حتى في (الطويان) و(الدلاليل). ويمكن لأني كنت هزيل واجد كما الخيط وما أعرف ألعب الكرة كماهم، من يعلم؟ لكنهم أكيد في البداية ما قبلوني، كانوا ما يعرفوني، كنت غريب».

«لكن الأيام قربتنا، تراك غريب بس لين يوالفوك ويأمنوا لك، وخلاف بتستوي واحد منهم، بس يباله شوية وقت وشوية صبر».

لم يقتنع زاهر تماما بجواب أبيه، لكن لقب الغريب سقط عنه تدريجيا، ثم ما عاد أحد يذكره إلا للتندر، صار كما قال له أبوه من قبل «واحد منهم».

في الصف الأول عُرف زاهر في المدرسة بحفظه للقرآن وحسن تلاوته، وفي الصف الثاني عُرف بحسن الخط، وفي الثالث ببلاغة التعبير، وفي الرابع صار لاعب كرة عُرف بحسن التسديد، وفي الخامس كان خطيبا مفوها، وفي الصف السادس عُرف بالغضب وشدة القلق.

كانوا خمسة أصدقاء، يونس محمود من حلة الزدجال، وخليفة بن ناصر من الطويان، وإبراهيم فاضل من الدلاليل، ومحمد حسن من حارة البحارنة، وهو.

منذ أن خلعوا عنه لقب الغريب وصار واحدا منهم لم يفترقوا إلا نادرا فهم إما معا في الصف، أو في الفسحة، أو في اللعب.

درسوا في السعيدية العلوم، والحساب، واللغة، والدين، والجغرافيا حتى الصف السادس، لكن الصف السادس أوشك على الانتهاء، ولا علم لهم في السعيدية بعدها ولا مكان.

السنة تقترب من نهايتها ورفاقه يقضون غالب الفسح جالسين تحت الغافة أقصى يمين الحوش يتحدثون عما ينوون فعله بعد انتهاء الدراسة، غالب من هم في دفعته يحلمون بالذهاب للدراسة في الكويت، والبعض قال إنه سيبحث عن عمل في بلاد الله، الكويت أو الظهران أو البحرين أو الدوحة.

أما هو فلم يكن يكف عن المشي من أقصى الحوش إلى أقصاه، يرافقه خليفة بن ناصر أحيانا، وأحيانا كان خليفة يتعب من صمته وحركته فيتركه وينضم للرفاق الذين يراقبونه ولا يسألونه.

خليفة بن ناصر كان قد حزم أمره؛ سيسافر ما إن يستخرج له جده الجواز، وسيلتحق بأبيه في الكويت.

جده يشجعه على ذلك «هنا ما شي فايدة» كان يقول له، وأمه لن تمانع أيضا فهي بعد كل زيارة من أبيه تحبل بطفل جديد، وأبوه كان يكرر في رسائله أن عليه أن يلحق به، ويتعلم في مدارس الكويت، بل وأرسل له قبل مدة أجرة السفر.

وبقية الأصحاب سيفعلون مثله، يونس محمود يخطط للحاق بأخيه عيسى في الدوحة، وإبراهيم فاضل ومحمد حسن سيسافران للبحرين، وينضمان لمن سبقوهم من أبناء العمومة.

كانوا يعرفون ما يريدون من الغد وسيذهبون إليه، أما هو فيعرف ما يريده أيضا لكنه غير قادر على الذهاب إليه. أصبح مجرد ذكر انتهاء الدراسة وخطط الغد يزعجه، فيقضي وقته في المشي حتى لا يجلس إليهم أو يسمعهم.

كان مثلهم يحلم بعلم أكثر مما تعلمه في السعيدية، سمع عن المدارس الثانوية، والجامعات من رفاق أبيه الذين كانوا يعودون في إجازات قصيرة للبلاد، وبعضهم كان قد تعلم بالفعل في تلك البلاد الموجودة على الخريطة المعلقة في الصف، القاهرة، بيروت، بغداد، دمشق.

كان زاهر يحلم، وكان حلمه يؤرقه ويؤذيه.

كيف سيتركها؟ كيف سيتركها؟ يعرف تعلقها به فيشق عليه ذلك، لكن ماذا بعد ذلك؟ ماذا بعد علم صف السادس؟ هل سيصبح كاتبا في برزة السيد يرث وظيفة أبيه كما فعل أبوه من قبل؟

هل سيكون حسن خطه وأدبه هو كل ما يملك ويعرف «هذه البلاد لا علم فيه ولا وظائف، هذه بلاد فقيرة»، كان يزعجه سماع ذلك من أفواه الآخرين لكنه كان يعرفه، وكانت هذه المعرفة تؤلمه.

كان العلم المرفوع في وسط ساحة المدرسة يعني له أكثر من مجرد خرقة ترفع على قرع الطبول فترفرف إذا ما هب النسيم، كان يريد لها أن تعني أكثر، علما أكثر، وحياة مختلفة.

هو لا يعرف الحياة في البلاد الأخرى لكنه سمع بها، يأتي أصدقاء أبيه للزيارة عندما يعودون فيصفون تلك البلاد، ويخبرون عنها.

يتكلمون عن شوارع، ومستشفيات، ومدارس، وجامعات، ومقاهٍ، ومكتبات، وعلم، وسفر، وبواخر، وطائرات، يتكلمون عن وفرة في العلم والرزق.

يتكلمون عن عبدالناصر، وشكري القوتلي، وأم كلثوم، وعبدالوهاب، والتأميم، والوحدة العربية، وفلسطين، والدستور، والثورة، يتناقشون، ويتجادلون، ويثورون، ويغضبون ثم يعودون فيضحكون لنادرة أطلقها أحدهم.

في سبلة أبيه كان يصغي لحديث الرجال فيفهم ولا يفهم، يحس بالكلام ناقصا ما لم يخبر المكان، لكنه كان يعود فيسأل أباه الذي كان يحاول أن يشرح له ما يحدث حولهم في العالم، كان يعرف أن أباه يفعل ذلك بحذر حتى لا تتهمه ريّا بإفساد عقله أو أنه يغريه بالرحيل.

لكنه كان يريد الرحيل، يريد الذهاب إلى هناك، يريد أن يتعلم، وأن يسافر بالباخرة، وأن يركب الطائرة، ويريد أن يدرس في الجامعة، يريد أن يرى كل تلك الأماكن، كل تلك الأشياء، وأن يخبرها.

كانت رغبته تزداد يوما بعد يوم، ويوما بعد يوم كان يشعر بأن مسقط تضيق عليه، وأنه صار يضيق بها أيضا.

لكن ما عساه فاعل؟

كيف يقنعها بضرورة سفره، يعرف أن أباه وإن مانع في أول الأمر سيوافق لا محالة، فهو وإن لم يشجعه يوما فذلك لأنه يعرف مشقة الأمر على أمه، وليس لأنه لا يريد له الذهاب.

هو يرى ذلك في عيني أبيه، ويعرفه من لهفته على أخبار رفاقه، والأسئلة التي يطرحها عليهم متشوقا لمعرفة التفاصيل، وكثيرا ما سمعه يردد وهو عائد من وداع رفاقه عند باب السبلة «ما كل ما يتمنى المرء يدركه...» ولا يكمل عجز البيت.

كان يعرف أن أباه لن يمانع كثيرا إلا لأجلها، لكن ما تراه فاعلا كي يقنعها

بضرورة سفره للعلم، يعرف لهفتها وقلقها على خاله الذي لم يخفّ أو يخفت رغم كل هذه السنين التي قضاها بعيدا عنها؛ متنقلا كجندي من جنود جيش عمان بين فلج القبائل، والجبل الأخضر، والدقم، وبلاد الشرقية، وظفار.

تمر شهور طويلة فلا يأتيهم منه خبر إلا رسالة تحمل سطرين من هذه البلاد أو تلك، وريّا مازالت تنتظر رسائله بلهفة وشوق لا يفتر، وكثيرا ما كان يستيقظ في الليل فيجدها قائمة تصلي أو راكعة تبكي بين يدي الله، وكان يعرف لهفة دعائها وما يبكيها.

سمعها مرة تقول لأبيه وهي تذكر غياب خاله الطويل وتباعد رسائله:

- أنتوا الرجال فيكم قسوة، الأخ والزوج وحتى الولد، كلكم فيكم قسوة.

- وزاهر كيف يقسى وهو بعده صْغَيِرٍ غض؟

- كان ما قسى اليوم بيقسى باكر... الرجال كلهم من ينبت لهم ريش يفروا.

كان يستمع لحديثهما وهما يحسبانه نائما، وعندما نطقت أمه هذه العبارة أغمض عينيه بقوة وكأنه يريد عزل نفسه عمّا سمع، عن أمه وأبيه والعالم كله، وعن الحقيقة التي يعرفها وإن أنكرها، هو يرى في رحيله انعتاقا، وهي لن ترى فيه غير القسوة.

كيف سيقول لها إن العلم في السعيدية لا يكفيه؟ وأنه يحلم بعلم كثير وببلاد بعيدة. كيف سيقول لها أنه قد آن أوان ذهابه؟ وربما قد آن أوان القسوة التي تنبأت بها.

«آن أوان القسوة»، تصدمه الفكرة كلما أتاها لكنه يعرف أنها حقيقية، وإن كانت قسوة غير مقصودة لذاتها إلا أنها لا محال واقعة.

هكذا ستفكر وإن لم تقل، لكنه يعرف، سترى في بعده عنها قسوة جديدة، وحزنا جديدا يضاف إلى أحزانها.

وكيف سيقول لها؟ كيف سيقول لمزنة إنه سيتركها، وسيذهب إلى العلم الذي سيعيده إليها أو يأخذها إليه؟ كيف سيقول لها إنه يريدها أن تترك البستان وتسافر إلى العالم معه؟ كيف سيقول لها إن سفره لا بد منه لأجلهما؟ هل ستقبل؟ وإن لم تقبل هل سيقبل هو بالبقاء؟

توجعه الفكرة لكن الحلم ما يلبث أن يأخذه معه إلى بلاد لا تشبه مسقط في شيء، متوفرة على كل ما يحلم به، بلاد تضج بالحياة فلا تنام أبدا، كما سمع أحد أصحاب أبيه يصف القاهرة.

منذ بداية السنة وهو في أرق وقلق، فقد شهيته وفقد رغبته في الأكل وبدا عليه النحول، وصار مزاجه سريع الاشتعال.

يمشي كثيرا في الفسح ليهدأ قلقه، وبعد الخروج من المدرسة يمضي في الدروب والحواري، وكأن كثرة المشي ستساعده في الوصول إلى حل.

انتهت المدرسة ووزعت شهادات الخريجين، وكان ككل سنة متفوقا على صفه، لكنه لم يكن فرحا هذه المرة، لم يركض إلى البيت، لم يمازح أو يسابق أقرانه في طريقه، لم يقف عند صواني البائعات البلوشيات ليشتري الحلوى، لم يناكد حمدون الصم الذي لا يسمع شيئا ويسأله كعادته: بكم مشتري السمك اليوم؟ فيستثار ويبدأ بقذفه وصحبه بالحجارة.

مشى كثيرا بين الحواري ولم ينتبه إلا وهو واقف عند الفرضة، البحر أمامه وفي الأفق باخرة يُفرغ العتالون بضاعتها في المراكب الصغيرة، كانت الشمس بعد منتصف النهار في شدة حموتها، والهواء راكد، ومثقل بالرطوبة.

وقف أمام البحر ساعات دون أن يشعر، يتأمل الباخرة التي رست بعيدا

عن الشاطئ، وحركة المراكب الصغيرة التي خرجت لملاقاتها، وارتطام الموج بالحواف الحادة، أسفل الكتلة الصخرية، التي بنيت عليها قلعة الجلالي.

فجأة شعر بإعياء شديد، وكأنه كان وسط البحر والموج يتقاذفه، استدار، أعطى البحر ظهره ومضى إلى البيت.

وصل البيت متأخرا عن عادته، فوجد أمه مشغولة بغسل الأواني في طرف الحوش، سلّم عليها بصوت منخفض، رفعت رأسها لتسأله عن سبب تأخره لكنه لم يجبها، اتجه إلى الليوان، ودخل الحجرة فوجد أباه مستلقيا على الحصير كعادته بعد الغداء، يدير أزرار جهاز الترانزستور باحثا عن صوت العرب أو واحدة من المحطات الأخرى التي يلتقطها عبر البحار شرقا وغربا، جلس إلى جانبه، وأخرج الشهادة من جيب دشداشته، وسلمه إياها.

نهض علي وجلس، قرأ الشهادة وإن لم يكن بحاجة لفعل ذلك، نظر في وجه ابنه ولم يتكلم، تلاقت نظراتهما فعرف كل واحد منهما ما في سريرة الآخر.

دون إرادة منه سحت الدموع من عينيه، حاول إخفاءها ولم يقدر، مسحها بظاهر كمه فلم تنقطع، ارتفع نشيجه كطفل صغير، موجوع ولكنه لا يعرف كيف يوقف الألم الذي تجمع طوال شهور ثم سال.

هرعت ريّا من الليوان، وأحاطت ابنها بذراعيها، جست جبينه خوفا من مرض ألمّ به أو حمى، وجدت جبينه ملتهبا، فأمرته بالبقاء في مكانه وقامت إلى المطبخ؛ فأحضرت له كوبا من الماء، وسقته فنجانا من منقوع التفرتيس[46]، ودهنت حلقه، وفمه، ورأسه بخليط الحلق[47] والثوم، ثم

46. التفرتيس: نبات يغلى ورقه وتعالج به به الحمى.

47. الحلق: السناج، ويدهن به الحلق تخفيفا للالتهاب والحمى.

ساعدته على الاستلقاء على الحصير وغطته بشرشف خفيف، وجلست إلى جانبه تمسد ذراعيه، وتمسح على رأسه، وتقرأ عليه المعوذات.

لا تعرف ما أصاب ابنها أو ما كان سبب بكائه، رفعت عينيها إلى علي مستفهمة منه، فسلمها الورقة، شهادة إتمام الدراسة الابتدائية، التي تحمل صورته على يسارها ويزين منتصفها شعار الخنجر والسيفين مؤطرا بعلمين أحمرين متصلين يحتضنانه، والتي تشهد بأن الطالب زاهر بن علي بن زاهر الجويري قد تجاوز الامتحانات القانونية تحت إشراف دائرة المعارف وبتوقيع مديرها نفسه وختم الشمع الأحمر في طرفها إثبات.

أشار لها علي بأن يتركاه لينام؛ فخرجا إلى الليوان، سألته عن شهادة زاهر فطمأنها أن كل شيء على ما يرام، أطرقت وغرقت في صمتها، ثم رفعت رأسها إليه وبعينين مستنجدتين سألته؛ فأجاب سؤالها الذي يعرفه:

- من مدة ألاحظه كل ما حد ذكر الكويت أو البحرين أو بغداد في السبلة، تلمع عيونه، ويتبع السؤال بالسؤال، وإن ما خاب ظني فواده معلق في سواري المراكب.

- يسافر؟

- زاهر نبيه، والبلاد ما فيها علم بعد السعيدية، وأنتِ تعرفيه ما يسده من العلم بو يسد غيره، قارئ كل الكتب بو في روازن السبلة بدل عن المرة عشر.

- لكنه بعده صغير، شاربه توه نابت.

- زاهر رجال يا ريّا، ولو زوجناه اليوم باكر صايح ولده تارس البيت.

- يسير بلاد الخلق ويتغرب؟

- هيه بيسير، وبيلقى الخير والشر كما لقى غيره وبيستوي رجال.

- ويهون عليك؟

- ما شي ولد يهون على والديه، فكيف زاهر يهون وهو رأس المال؟!

تكسر صوت علي فكسرت ريّا نظرها عنه، ثم أردف بغضب ممتزج بحزن:

- لكن البلاد كما تشوفيها يابسة، ومن يباسها تجرح.

كانت تعرف أن الرجال لا يحسنون البقاء ولا يطيقونه، وزاهر رجل، رجل مثلهم وهي تعرف ذلك ويوجعها، يوجعها بقاؤه مقهورا إلى جوارها ويوجعها رحيله.

لكنها تعرف أنه العلم يشغله ويشعله، وها هو يمرضه طلبه، فيعيده طفلا صغيرا لا يقدر على كتمان شهقاته.

مع ذلك لا تريده أن يرحل، لا تريده أن يتركها كما فعل خاله من قبل؛ فيبقى قلبها معلقا في سواري المراكب حتى يعود، تشعر بقلبها يعتصر وكأنه يهرك بين حجري رحى.

قضت ليلتها عند رأسه تمسده، وتعيد تبليل الخرقة، ووضعها على جبينه كلما جفت، تذكرت راشدا وغيابه الذي طال فتضاعف همها وغصت بالعبرة، تساقطت دموعها وهي تقرأ أدعيتها عند رأسه، تساقطت دون توقف فبللت وقايتها وجيب دشداشتها.

ثلاثة أيام بلياليها وزاهر نائم في الحمى لا يكاد يستيقظ إلا لتسقيه بعض مغلي أوراق التفرتيس ثم يعود لينام، حاولت إطعامه فلم يقبل جوفه ولو القليل.

تسهر عليه الليل، تبلل جبينه بالماء والدعاء وتذهب مع نفسها في حوارات طويلة، تحاول فيها إقناع قلبها بتركه يرحل، تعرف أنه ذاهب لجني

الفائدة، عقلها يقول لها لابد من ذلك، وقلبها متشبث بظله.

«دعيه يسافر، لا تمنعيه عن الدنيا وتحرميه من العلم، الولد من كبر وخرج من تحت ظلتك استوى ولد الدنيا، الدروب أمه والتعب أبوه».

«لكنه بيرد، أكيد بيرد، طالت المدة ولا قصرت، مرجوع الغريب لبلاده».

تطمئن نفسها وتعرف أن نفسها لن تطمئن.

عندما قام زاهر من الحمى شم رائحة المبصلات فعرف أنه الصباح وأن أمه تعد الخبز المقلي المحشي بالبصل والشاي للإفطار، نادى على أبيه الذي رآه واقفا أمام المرآة يصلح من مصره بصوت واهن فانتبه له، وهرع إليه ليجس جبينه، ويساعده على الجلوس، كانت الحمى قد زالت، لكنه بدا ضعيفا.

نادى علي زوجته فجاءت، وجست جبين ابنها ثم أعلنت بفرح، طار الشر وزال البلاء، وخرجت لتحضر صينيه الإفطار ووضعتها إلى جانبه، وما إن وضعتها حتى هجم زاهر على الأكل بنهم شديد، تبادلت النظرات مع علي وابتسمت، تُحذّر زاهرا من سرعته في ازدراد الطعام، وعلي يحضه على الأكل وكأنه يناكفها فترد عليه معاتبة لترتفع ضحكته الخافتة في أصلها فرحا بنجاة ابنه من الحمى.

في صباح اليوم الثالث، شعر زاهر بأن حاله قد تحسن، فقام من فراشه، واغتسل، وساعد أمه في حمل صينية الإفطار إلى الليوان، وفي أثناء تناولهم للإفطار قالت له أمه:

- من تخلص ريوقك، غسل يدك وقوم سير مع أبوك.

استجمع شجاعته كلها في عبارة أطلقها بحدة:

- أنا ما أبغى أستوي كاتب في برزة السيد.

تبادلت وأباه النظرات:

- نعرف، ولا نحن نبغاك تستوي كاتب في البرزة، لكن قوم التو وسير مع أبوك البرزة، ومن يخلص شغله سير معاه سوق داخل، وصور عند بهادر الهندي وبعدها سيروا دايرة الجوازات.

قالت ذلك بوضوح وقوة، مؤكدة على كل مقطع من كلامها بصمت يتبعه، وكأنها تقرؤه من صحيفة أمامها، قالته باذلة ابتسامتها حتى لا يشك في رضى قلبها، قالته بهدوء وقد سألت علياً في الليلة السابقة عن ما يستلزمه الأمر لكي يسافر زاهر إلى حيث يشاء، وقضت ليلتها تتدرب على الكلام الذي ستقوله، وعلى المكان الذي ستضع حجر الصبر عليه، فوق القلب تماما، حتى تناجيه دون أن يسمع مناجاتها أحد، وحتى لا يشي بها في الكلام، فتأخذه بها شفقة فيقدم رغبة قلبها على مطلب قلبه.

إن آن أوان القسوة فلتكن قسوتها على نفسها بدلا عن قسوته عليها أو قسوتها عليه، وليكن شقاؤها فداء شقائه، ولتُعِد وضع حجر الصبر على قلبها كلما انزاح عن موضعه.

ستضعه فوق قلبها وستناجيه إذا ما اشتد بها الحزن وغلبها الشوق، وستشكو له وحده دون سواه، وستشاركه الوجع، ولن يعرف زاهر ذلك، لن يعرف منها إلا ما يراه من تشجيع له ودفع به نحو ما يشتهي.

* * *

خرج زاهر مع أبيه إلى البرزة، وخرجت هي إلى بيت الباغ، كانت غير قادرة على تحمل كل ذلك الهم وحيدة، وحجر الصبر ما طاق ما في قلبها من وجع.

أرادت أن تتكلم مع امرأة مثلها، أم مثلها، تهجس بما تهجس به الأمهات، وتفهم أوجاعهن.

ذهبت إلى بيت الباغ فانفلت حزنها بين يدي البيبي دموعا تسيل ولا تنقطع.

ذهلت البيبي من بكاء ريّا، وأقلقها ما كان من أمر صديقتها لكنها تركتها لتنتهي من بكائها، أمرت غزلان بإحضار كوبٍ من الماء البارد، وأن تضعه وتخرج وتتركهما، بعد أن توقفت ريّا عن البكاء ناولتها البيبي الكوب فشربت ثم بدأت في الكلام.

سمعت البيبي من ريا في هدوء، وفهمت ما يجول في خاطر صديقتها ويكدره، عرفت الخوف الذي ينهشها، عرفت الحزن الذي حط بثقله على قلبها، عرفت إحساسها بالغربة الذي بدأ منذ تلك اللحظة بالتشكل. الغربة التي ليست من نصيب من يرحل فقط بل ومن يُتْرَكُ أيضا، المتروك ليكون غريبا في مكانه، وحيدا رغم الكثرة وألفة ما حوله، لكنه لا يجد ما يعبّئ به تلك الفجوات التي يتركها الغياب، تلك الحفر العميقة المجوفة في القلب التي لا يردمها أي شيء من بعد الراحلين.

تحكي لها عن رغبة زاهر، وعن خوفها من رحيله.

– أخافه ما يرد، أخاف العلم يسرقه ويشله وراه من مكان لمكان، ويبقى يدوره وين ما يكون وما يشبع منه.

– آخرته بيتعب من الركض وراه وبيرده حليبك، تطمني.

– الرجال يكبروا على الامهات وعلى الخوات، يكبروا وأول ما يكبروا يروحوا، كأنهم يوم يشتد عودهم تشتد قسوة قلوبهم.

– بسك عاد. زاهر لا يمكن يروح ولا يرد، بس هو شاب والدنيا في أولها.

– أعرف، لكن قلبي يعورني وأهجس به بيوقف.

- استغفري، وقوي قلبك بذكر الله. خليه يروح وادعي له. بيرد ويبعزك، بيتزوج ويصير عنده عيال وبيلاعبوك ويضاحكوك.

تستغفر، لكن لا شيء مما قالته البيبي يقنع قلبها أو يعزيها. سلمت به، وهل لها من حيلة إلا التسليم؟

* * *

لم تكن هناك صعوبة في استخراج جوازات السفر لأهل مسقط ومطرح وما جاورهما من البلاد، فذهب زاهر بعد أسبوع لاستلام الجواز ثم مرّ على أبيه في البرزة وترافقا إلى البيت، وفي الطريق سأله إن كان قد حدد البلاد التي يريد الذهاب إليها فأجابه إنه اتفق مع خليفة بن ناصر على السفر إلى الكويت واللحاق بأبيه هناك.

- خليفة وناصر وأبوه أهلنا وما بيقصروا معك، لكن متى ناويين السفر؟

تردد زاهر قليلا ثم أجاب:

- نحن ناوين نسافر بعد شهر، يكون نوصل ونرتب أمورنا قبل فتح المدارس.

ضحك علي ضحكته القصيرة الخافتة، وقال «أنتوا عاد مرتبين أموركم» مظهرا العتاب، ومداريا الفخر الذي يشعر به لأن ابنه قد كبر وامتلك زمام أمره، فصار يقرر، ويخطط، وينفذ.

ابتسم زاهر ومضى مع أبيه في الكلام عن السفر حتى وصلا البيت، فوجدا ريّا قد بسطت لهما في الليوان فاغتسلا وجلسا، ثم جاءت بصينية الأرز محلاة بمرق السمك.

انتهوا من غدائهم فأخرج زاهر الجواز من جيبه وناوله أمه، تصفحت ريّا الجواز ورأت صورته والتوقيع عليه، رأت سفره وغربته ووجعها.

عرفت أنها ستحتاج للمال كي ترتب له أمره، فالتفت صوب البيذامة، وتذكرت قروش بنت الخواضة التي نسيتها منذ أن قام علي بدفنها هناك في المرة الثانية، تلك قروش زاهر متى ما كبر واحتاج لها كما قال راشد.

فكرت في نبش الصندوق وإعطاء زاهر كل ما فيه نفقة للسفر، لكنها طردت الفكرة بسرعة، هذه القروش ستردها لراشد بعد أن يرجع مسقط ويستقر وينوي الزواج كما كانت قد قررت من قبل، يهجس قلبها أن هذه القروش ليست لزاهر وإن بذلها له خاله، هذه القروش ليست له، قلبها يعرف ذلك.

قامت إلى مندوسها وأخرجت صرة صغيرة، وناولته إياها، لم تكن قروشا كثيرة، لكنه ردها إليها قائلا إن أباه قد أعطاه ما يكفيه من المال، إلا أنها أصرت عليه «خذها وضمها، وكان ما احتجتها اليوم يمكن بتحتاجها باكر».

قبل سفره بأيام جاءتها غزلان بصرة من بيت الباغ، صرة بيضاء، وقالت إن هذه لزاهر من عند البيبي.

عندما فتح زاهر الصرة وجد أن البيبي قد وضعت له فيها دشاديش جديدة وكمة ومصر أبيض مشغول بنقوش دقيقة نيلية اللون، وبين طيات الثياب وضعت أغصان ريحان لتطيبها به، ومصحفا كان زاهر يقرأ فيه عندما كان يتعلم القرآن مع مزنة في الحجرة الصغيرة.

عرف زاهر أن الثياب من البيبي، وعرف أيضا أن الريحان والمصحف من مزنة، فتناول المصحف وقبله ثم قلب ورقه فوجد ورقة صغيرة مدسوسة بعناية بين صفحات سورة الرحمن، السورة التي كانا يحبانها أكثر من بقية السور في القرآن.

كان قد ذهب مع أمه ليودعهم، استقبلته البيبي في الحجرة الصغيرة فقبّل

رأسها وكفها؛ كما كان يقبل رأس أمه وكفها، أجلسته إلى جانبها ودعت غزلان البنات ليسلمن عليه. مهرة وسعاد سلمن عليه، ومازحنه كثيرا، ووصينه بهدايا كثيرة من الكويت يحضرها لهن عندما يعود، أما مزنة فلم تخالطهم في الضحك، نكست رأسها، وانشغلت أصابعها بفتل خيط منفلت من نسيج السجادة التي تجلس عليها. لم تسأله متى سيسافر ولم تنطق في ذلك المجلس ولا بكلمة واحدة، وكلما استرق إليها النظر وجدها في ركن الحجرة تتلمس خيوط السجادة أو نقش الورد في حاشية دشداشتها، لكنه عندما استأذن للانصراف طلبت من أمها أن تأذن لها فتصحبه حتى باب البستان فأذنت لها.

لم تقل له شيئا، لم ترتفع ضحكتها الشقية كعادتها، لم تسابقه حتى الباب كما كانت تفعل وهي تودعه وأمه وهما صغيران.

مشيا ببطء وكأنهما يتعمدان أن لا يصلا، متحاذيين ولا ينظران إلا لموضع خطواتهما، ثم وقفت على بعد خطوتين من الباب، واستدارت ناحيته فاستدار:

- احلف بالرحمن أنك بترد.

- بالرحمن، والقسط، والميزان.

هذا هو القسم بينهما منذ أن تعلما سورة الرحمن على يد أمه، وأغرما بكلماتها، وجرسها.

دس الورقة الصغيرة المطوية في جيبه دون أن تلحظ أمه ذلك، وقام لوضع الثياب في صندوق سفره.

خرج إلى الحوش وجلس تحت البيذامة وعندما تأكد من انشغال أمه بطي ملابسه وترتيب صندوق سفره، أخرج الورقة من جيب دشداشته وفضها بأصابع ترتجف لهفة وخوفا.

لم يكن هناك كلام كثير ليقرأ، لم يجد فيها إلا سطرا واحدا، ولم يكن في السطر إلا كلمة واحدة.

* * *

ربته؛ فكبر؛ فسافر، وكأن كل الذين تحبهم منذورون للغياب.

منذ اللحظة التي ودعته فيها عند عتبة بابها، طال النهار عليها فبدا وكأنه بلا نهاية. كانت تذهب للنوم غالب الوقت، وكأنها تُقصّر بغيابها في النوم مدة غيابه عنها، وأصبح علي يخرج إلى عمله، وهي نائمة ويعود فيجدها نائمة.

كل شيء في البيت كالعادة نظيفٌ وفي مكانه، ثيابه مغسولة وفراشه نظيفٌ وغداؤه جاهزٌ، لكنها لم تعد فيه. شعر بانسحابها، غابت روحها عن البيت، وكأن زاهرا عندما ودعها اختلس روحها وأخذها معه. إن لم يغيبها النوم غابت في الصلاة أو في قراءة القرآن، وإن سألها عن شيء جاوبته بقدر حاجة الإجابة.

شعر بأنها تعاقبه، تحمّله ملامة سفر زاهر، أو أنها تُسقط عليه ما في قلبها من حزن ووحشة.

يعرف أنها لم تكن راضية عن سفر زاهر، ويعرف أنه ما كان لها من بد، إما أن يبقى فيشقى هو أو يرحل فتشقى هي، كان عليها أن تختار بين شقاءين فاختارت ما ظنت أنها ستتحمله.

طال غيابها عنه ولم يعرف كيف يتعامل مع حزنها النائم، حاول أن يقنعها بالعودة لزيارة العودة، وعدته أن تفعل لكنها منذ أن سافر لم تنقل خطوتها خارج الباب. طلب منها زيارة البيبي فلم تجاوبه، كانت وكأن حزنها يقتات على روحها وجسدها فضمرت.

فكّر طويلا وما وجد مخرجا لها من الحزن، حتى صادف غزلان في السوق فسألته عن حال ريّا وأخبرته أن البيبي تفتقدها، فقال لها وفي عينيه قلق لا يخفى إن «ريّا مريضة، زين لو البيبي ترودها» ولم يزد على ذلك.

بلغت غزلان البيبي ما قاله علي فزادها كلامه قلقا. في صباح اليوم التالي أمرت غزلان بتحضير الفوالة، والبنات بتغيير ملابسهن، ووضع العباءات الجديدة على رؤوسهن.

مشت غزلان أمامهن تتهادى بتوازن وهي تحمل على رأسها صحون الفوالة موضوعة على صينية مغطاة بقماش خفيف وفي يدها دلة قهوة وهن يتبعنها بتردد وخجل.

عندما وصلن عند الباب كان الوقت بعد الضحى بقليل، والشمس لم تتعامد على الرؤوس بعد، ونسيم خفيف يهب من ناحية البحر فيحدث في ورق البيذامة صوتا يشبه الهمس.

سمعت ريّا دقات على بابها؛ فقامت بتثاقل، وبخطوات واهنة قطعت الليوان، والحوش ثم وقفت أمام الباب لا تعرف إن كانت تريد فتحه أم لا، لكنها مدت يدها، وعالجت مزلاج الباب، وفتحته، رأت البيبي والبنات فرجعت خطوة للوراء، وعلت ضحكة غزلان من الخلف.

ودت ريّا لو ارتمت في حضن البيبي إلا أنها خجلت من أن تظهر ما فيها من ضعف، فأقبلت تحايي البيبي بحرارة، وتقبّل رؤوس البنات بلهفة، وتضم مزنة إلى صدرها، وتشم رأسها، وكأنها تشم فيه ما علق من رائحة لعبها وزاهر.

أدخلتهن الحجرة، فوجدن نوافذها مغلقة ومسكونة بالعتمة، فكان أول ما فعلته غزلان بعد أن أنزلت صينية الفوالة من على رأسها أن استدارت،

وفتحت الدرايش المطلة على الليوان؛ فدخل الضوء إلى الغرفة الخالية إلا من السرير وبعض الوسائد وبساط من الخوص.

- تأخرتِ علينا، قلنا يمكن متمرضة، ويش فيك؟ وجهك أصفر وذبلانة.

- لا، الحمد لله أنا بخير.

صرفت البيبي غزلان والبنات بحركة من حاجبيها، تباطأت مزنة خلف أخواتها فزجرتها أمها بنظرة آمرة، فخرجت متثاقلة تتبع أخواتها وغزلان إلى الليوان.

- وش فيك يا ريّا؟ وش صار لك؟ كأن سفر زاهر مرضك.

ما إن سمعت اسمه حتى انهمرت دموعها، فطأطأت رأسها، وذهبت في نشيج خافت.

- كذا تسوين فروحك؟ هذا وأنت حرمة مؤمنة، عارفة ربها، وحافظة كتابه، وين إيمانك بالقضاء والقدر؟،وين كلامك عن سير الصالحين وقصص الأنبياء؟ والحكم إللي تبردين بيها قلبي كل ما شكيت لك من شي؟

- كأن الله يمتحني بسفر زاهر، كل إللي قاله لي أبوي، وعلمني إياه طلع سهل دامه في طرف اللسان، لكنه يوم يجين البلا صعب على النفس تتحمله.

- ويش من بلا؟ الله يهديك، الولد ما سوى إلا الخير، راح يدور العلم، وباكر بيرد وبيعزك.

- راح وودرني وراه اسم ورسم بس.

- أنتِ دواك عندي، بس لازم أول توعديني تفتحي الدرايش، وتخلي نور الصباح يدخل. توعديني؟

لم تفهم ريّا المعنى وراء كلام البيبي، ولماذا عليها أن تعدها بأن تفتح نوافذها في الصباح؟ لكنها وعدتها، والبيبي ابتسمت لها مطمئنة، ثم نادت على غزلان، وطلبت منها بسط الفوالة، فقربت غزلان الفوالة التي جاءت بها، وكشفت عن الصينية التي كانت تمتلئ بصحون صغيرة من الخبيصة، والسيويا، والقروص المحلاة بالعسل، سكبت غزلان القهوة في الفناجين، ودار الحديث بعيدا، ودار الضحك بين البنات، إلا مزنة التي كانت ساهمة، وفي عينيها بلل خفيف، وعلى شفتيها أسئلة تكتمها.

غادرتها البيبي والبنات فعاد لها الوهن الذي تحس به. أنجزت ما تبقى من أعمال بيتها بخمول، ثم عادت إلى فراشها واستلقت، وعندما رجع علي وجدها على حالها فظنها نائمة. اقترب منها وأراد أن يوقظها، وهي سمعت خطواته الخفيفة نحوها؛ فأغمضت عينيها، تراجع قبل أن يصل إليها ويمد يده لتهزها فتستيقظ، عاد ووقف عند الباب ينظرها بأسى ثم خرج.

كانت تُحس به وتعرف ما يُحدثه غيابها من ألم في نفسه؛ لكنها لم تكن قادرة على حمل نفسها على مجالسته أو الحديث معه، تعرف أنها تظلمه بغيابها لكنها ما إن تراه تتذكر اللحظة التي أخذ فيها زاهرا إلى الفرضة، وتركاها وحيدة عند عتبة الباب، وحيدة ومنهدمة.

* * *

بعد أيام سمعت ريّا صوت طرقات عالية على بابها؛ فذهبت لتفتح الباب فوجدت أمامها فتاة خلاسية، بملامح حلوة وعينين مشرقتين كالصباح.

فتحت لها الباب وقربتها، لكن الفتاة لم تدخل وابتسمت لها قائلة: «أنا صباح، خادمة بيبي عليا بنت صالح حرمة حبابي عباس بن أحمد الزمار، ما تعرفيها؟».

ريّا لا تعرف زوجة الزمار وإن سمعت اسمها يتردد في الحديث أحيانا بين البيبي وغزلان، أكملت الفتاة كلامها دون انتظار لإجابة من ريّا، وأخبرتها أن سيدتها قد بعثتها لها في أمر، وأنها لولا كبر سنها، ومرضها لجاءتها بنفسها.

كانت الفتاة تتكلم بسرعة فلم تقبض ريّا على اسمها ولا على الغرض الذي جاءت لأجله، فعادت لسؤالها عن اسمها فضحكت الفتاة، وعندما ضحكت شعّ الضوء من عينيها ومبسمها «أنا اسمي صباح» وعادت لشرح ما جاءت لأجله.

تسلل ضوء الفتاة إلى قلب ريّا؛ فعرفت ما عنته البيبي في حديثها قبل أيام، ووافقت على زيارة زوجة الزمار في بيتها دون سابق معرفة بها.

وضعت ريّا شيلتها النيلية على رأسها ورافقتها، كانت الفتاة تمشي معها، وتتحدث وكأنها تضحك، وتضحك وكأنها تشرق؛ فينتثر الضوء في كلامها وضحكها طوال الدرب. ولم يكن بيت الزمار بعيدا جدا عن بيتها لكنها ما تعودت الذهاب ناحية بيوت تجار مسقط في ولجات وما جاورها، دربها كان دوما في الاتجاه الآخر إلى بيت الوادي أو بيت الباغ.

مشت خلفها فوجدت نفسها تعبر سككا أوسع، وأنظف من تلك التي ألفتها في الطويان وميابين، قالت لها صباح: «هنا بيوت الهناقرة وبيت سفير الإنجليز وقنصل الأمريكان».

مشت بها حتى وقفت أمام بيت كبير لم ترَ بيتا مثله من قبل، له بوابة ضخمة وكأنها بوابة قلعة، ما إن دخلت منها حتى وجدت نفسها في ليوان واسع في طرفه درج، صعدت بها صباح الدرج الضيق، حتى وصلتا إلى الطابق العلوي فمشتا في ممر يطل من ناحية على الليوان، وعلى جانبه

الآخر أبوابٌ كثيرة، وعندما وصلت آخره طرقت صباح الباب مستأذنة ثم أدخلتها الحجرة.

وجدت في الحجرة امرأة بدينة تجلس على كرسي مرتفع، ترتدي ثيابا بيضاء، وتنكس رأسها على مسبحة من خشب الصندل تحرك حباتها بهدوء بين أصابعها.

رفعت المرأة رأسها فوجدتها امرأة قد جاوزت سن الشباب، لكنها ما زالت تحتفظ بمسحة جمال لا تخفى، ثم ابتسمت لها فكشفت عن ضرس من الذهب، بريقه يخطف البصر في لحظة.

دعتها للجلوس ثم سألتها عن حالها وأحوال زوجها وولدها، ثم أخبرتها أن (سكينة) بعثت لها غزلان قبل أيام لتنصحها بالاستعانة بالمعلمة ريّا وزكتها عندها.

«سألت غزلان ومن تكون ريّا؟ قالت معلمة البنات، عارفه ربها، وحافظه القرآن، وفاهمه معانيه، وما حد بينفعك غيرها».

لوهلة لم تعرف ريّا من تقصد المرأة على الكرسي بسكينة، ثم تذكرت أنه اسم البيبي الذي اختاره لها زوجها بدل اسمها الأصلي (نرجس) الذي تناديها هي به لأنها تحبه وتشتاق سماعه. قالت لها البيبي في أول تعارفهما: «لما سماني سكينة قال سميتك على سكينة بنت الحسين، بنت حفيد رسول الله، قلت له: وش فيه اسم نرجس؟ هو اسم أم الإمام المهدي، وبعد اسم وردة حليوة وعلى اللسان حليو، بس إسماعيل قال: إيه الإسم حليو، بس اسم سكينة فيه راحة أزيد وقال أنه يسكن ليي. سماني سكينة وكلهم نسوا نرجس، الخدم ينادوني بيبي، وأهل مسقط الي يعرفوني كلهم صاروا ينادوني البيبي، وبس معارفه هو ينادوني سكينة، ونرجس نسوها، ما حد يذكرها، أنتين ناديني نرجس، أنتين رفيقتي مو؟».

يأتيها صوت عليا بنت صالح فتنتبه من شرودها.

«قالت إنك تعرفي أخبار الصالحين، وقصص الأنبياء، وأنا ربي ما رزقني غير بنت وحدة، جات بعد ثلاثة صبيان، وسماها أبوها مَلَكْ. وقالت لي المعلمة ريّا فيها صبر على تعليم البنات، وما تمل ولا تتعب».

بعد قليل أدخلت صباح شابة نحيلة، لها وجه يشبه وجه أمها لكن ابتسامتها الحلوة تخلو من ضرس الذهب، اقتربت الفتاة من ريّا، وسلمت بأدب شديد، ثم جلست على الأرض بجانب كرسي أمها.

شرحت الأم مشكلة الحفظ التي تواجهها ابنتها، والتي لم تفلح كل المعلمات على اختلافهن في حلها، تقول «استوت حرمة وبعدها ما حفظت جزو عمّ».

نظرت ريّا إلى ملك فوجدتها قد نكست رأسها خجلا.

- إن شاء الله بتتعلم مني، وبتختم القرآن كله ما بس جزو عمّ، ما كذا ملك؟

سألتها بلطف لكن الفتاة لم ترفع نظرها عن ثوبها الأخضر المنقوشة حاشيته بالورد ولم ترد عليها. أرادت الأم أن تناقش الأجرة مع ريّا، لكن ريا استسمحت منها وقالت لها إنها ستأخذ رأي زوجها أولا؛ فإن وافق ستكون عندهم ضحى اليوم التالي؛ وأن لم يوافق فليعذروها، أما أجرتها فرفضت الحديث حولها. واستأذنت في الانصراف فرافقتها صباح إلى بيتها.

* * *

شاورت علياً في الأمر فشجعها كما شجعها أول مرة على تعليم بنات البيبي، لكنه هذه المرة كان يأمل أن يكون في خروجها للتعليم مخرجا من الحزن الذي آل إليه البيت.

عادت ريّا إلى بيت الزمار في الصباح الذي يليه؛ فوجدت ملك في انتظارها وبين يديها مصحفها، فجلست إلى الفتاة، واختبرت ما حفظته من القرآن، لكنها وجدت أنه لم يتجاوز الفاتحة وسور الصلاة القصار.

في زيارتها الثانية رأت ريّا أن عليها أن تعلم ملك مخارج الحروف فصارت تأخذ إصبعها، وتبين لها المسار الذي يأتي الحرف عبره، ثم تجعلها تردد الحرف وراءها، ثم تسير بأصابعها على عنق الفتاة، وتلمس قصبتها ثم أعلى فمها وأسفله حتى تصل إلى الشفتين.

لكن ملك كانت ساهمة غالب الوقت، ولا يلفت انتباهها شيء مما تقوله ريّا.

في اليوم الثالث صارت ريّا تعلمها حركات الحروف، فصارت ملك تتابع بانتباه حركات وجه ريّا وهي تعلمها التسكين والمد والكسر والضم والفتح.

كانت ريّا تجلس مقابل الفتاة، وتطلب منها النظر في وجهها، وحركة فمها وهي تضم شفتيها أو تفتحهما أو تشد عضلات الفم إلى الداخل في الكسر.

في البداية ابتسمت ملك وخفضت عينيها، لكنها عادت ورفعتهما ثانية محاولة إبداء الجدية، حتى إذا ما ضمّت ريّا شفتيها انفجرت ملك في الضحك، دُهشت ريّا من سلوك ملك وضحكها لكنها وجدت نفسها تستعيد قسمات وجهها وهي تشرح لها الحركات؛ فصارت مثلها تضحك. ضحكت ريّا حتى دمعت عيناها، ثم مسحتهما بظاهر كفها، واستغفرت.

توقفتا عن الضحك ثم طلبت ريّا من الفتاة أن تجلس إلى جانبها، وتحدثها عن سبب عدم قدرتها على الحفظ، قالت لها ملك «أنا ما أفهم المعنى

والمعلمات ما يفهمني، بس يخليني أرد وراهن كلمة كلمة، والكلمة تدخل أذني وأحطها على لساني، وأقولها وراهن وبعدين يطير مني الكلام».

فهمت ريّا مشكلة الفتاة التي بين يديها، الفتاة التي لا يصل الكلام إلى قلبها إلا من خلال عقلها وفهمها، فوجدت أن عليها أولا أن تتخلى عن ترتيب الحفظ كما تعلمته من أبيها، وتبدأ في تحفيظها السور التي تقص القصص عبر روايتها لها، ثم وهي تفعل ذلك تشرح لها معاني الكلمات ومعنى الآيات، ثم إنها وجدت أن ملك تحفظ بشكل أسرع إذا ما جلست إلى جانبها وسمحت لها بتتبع الحرف بإصبعها كما كان يفعل أبوها معها.

بدأت بسورة الفيل وحكت لها حكاية أبرهة الحبشي والطير الأبابيل وموقف جد الرسول عندما اختار الخروج من مكة والتحصن برؤوس الجبال على حماية البيت الحرام، استغربت ملك من كلام عبدالمطلب عندما قال: «للبيت رب يحميه»، لكن ريّا أفهمتها أن ذلك من كمال الإيمان، والتسليم بأن للكون رب يصرف شؤونه.

ثم صارت في كل يوم تذهب إليها فيه تقص عليها قصة أو جزءا منها، فقصت عليها قصة ابني آدم، وقصة النبي سليمان وبلقيس، وقصة النبي يوسف وإخوته، وقصة النبي إبراهيم وحكايته مع النمرود وتضحيته بابنه إسماعيل، وقصة أصحاب البستان، وأهل الكهف، ورحلة نبي الله موسى والخضر.

شهوراً طويلة وبدأب تُدخل ريّا القرآن إلى قلب ملك حرفا حرفا عن طريق القصص، وملك لا تكف عن الأسئلة فتمتد رواية القصة الواحدة من يوم إلى أسبوع أحيانا.

تسألها كيف استطاع الشيطان أن يغوي آدم؟ وما هي شجرة الخلد؟

وكيف قتل قابيل هابيل لأجل امرأة هي أختهما؟ كانت تسألها عن إخوة يوسف، كيف هان عليهم فألقوه في الجب؟

كانت تسألها إن كان نبي الله إبراهيم جادا في تضحيته بابنه؟ وتسألها إن كان الخضر قد قتل الفتى فعلا؟ وكيف يفعل ذلك إن كان الله قد حرم قتل النفس؟

كانت ملك تسأل وتسأل وكانت ريّا تجتهد في البحث عن إجابات لأسئلة الفتاة التي لم يكن شيء ليقنعها، وعندما كانت تحار في إيجاد الإجابات، وإشباع فضول ملك تعود لسؤال علي، فعاد خيط الكلام ليمتد بينهما من جديد.

وجدت ريّا في تعليم ملك متعة فلم تستعجل أمرها، لكن أمها كانت في عجلة من أمرها، وبدأ الشك يتسرب إلى نفسها عندما وجدت أن تعليم ابنتها قد طال، فسألت ريّا بقلق عن قدرة ملك على الحفظ، فضحكت ريا مغتبطة، وأدنت رأسها من رأس عليا بنت صالح وهمست لها: «ما بس بتختم القرآن، ملك بتستوي معلمة كماي أو يمكن أحسن عني»، لم تصدق عليا بنت صالح كلام ريّا لكن ريّا هزت رأسها مؤكدة، وقالت لها: «ملك جوهرة».

عندما ختمت ملك القرآن كان قد مرّ على دخول ريّا لبيت الزمار سنتين، علّمت فيها ملك القرآن، وتعلمت هي من أسئلتها.

بدل التويمينة أقامت عليا بنت صالح وليمة دعت إليها نساء مسقط كلها تقريبا، وكانت البيبي وبناتها ومعهن غزلان أول المدعوات.

فرش السجاد للنساء في المجلس الكبير الذي كان يخصص للرجال عادة، ووضعت الصواني المثقلة بأكوام عالية من رز القبولي، وعلى كل كومة قطع كبيرة من اللحم، يغطيها قدر كريم من الزبيب والحمص والبصل المقلي.

وبعد أن غسلت النساء أيديهن من الأرز واللحم، وضعت صواني الحلوى، وسارت القهوة في الفناجين بينهن.

انتهت الوليمة، وعُطرت الأيادي بماء الورد، وسُيّر البخور في المكان وتحت أردية النساء، ثم وقبل أن تبدأ النساء في الاستئذان، قامت عليا بنت صالح من مكانها على الكرسي في صدر المجلس، فتبعت الأنظار مشيها المثقل بالسمنة حتى اقتربت من مكان ريّا وهي تحمل في يمينها مرش ماء الورد، أما كفها الأيسر فكان مطويا وكأنها تخبئ فيه شيئا ما، رشت رأس ريّا بماء الورد، وفتحت كفها الأيسر فتساقطت منه أعواد الريحان وقروش الذهب.

دُهشت ريّا والبيبي التي كانت تجلس قربها من تساقط ماء الورد والريحان والذهب، فرفعت رأسها في فرح وابتسامتها على اتساع وجهها قوسٌ من الغبطة.

التقت عيون المرأتين فرأت ريّا الامتنان في عيني عليا بنت صالح، وتذكرت كلامها عندما زارتها أول مرة وطلبت منها تعليم ملك: «يقولن الحريم ملك بنية غاوية، لكني أشوف غواها ناقص، وما يكتمل لين يكتمل علمها».

ابتسمت ريّا لمضيفتها وأحنت رأسها تواضعا، عندها ارتفع صوت عليا بنت صالح أمام ضيفاتها وأعلنت أن هذه المرأة «المعلمة ريّا بنت سيف» هي من فكت مغاليق ملك وأدخلت القرآن إلى قلبها فاستقر فيه، وصار لسانها حرا ينطق به دون تردد أو لعثمة.

بعد تلك الوليمة تسامع الناس بريّا وصارت بيوت مسقط الكبيرة تطلبها الواحد تلو الآخر لتعليم بناتها، وفي مدة قصيرة تضاعفت البيوت والفتيات.

صارت تعلم البنات في بيوت ولجات، ثم في بيوت مسقط داخل، وبعدها في بيوت حارة الدلاليل، ومع الوقت صار أهل مسقط رجالا ونساء يرونها في الدرب فيقفون لها، ولا يسمونها في الحديث والنداء إلا (المعلمة ريّا).

في غياب زاهر عرفت بيوت مسقط ودروبها خطوتها الخجلى، وصوت تلاوتها العذب، أحبها الناس وأحبتهم، وبادلوا حسن سيرتها بينهم بحسن استقبالهم لها وحسن الذكر.

مضت الأيام بها في وفرة من الأعمال، فملأت يومها بأعمال بيتها، وتعليم البنات، واستعادت روحها التي ظن علي أنها قد ضمرت فيها.

في النهار والحركة تحاول ريّا أن تعبئ شقوق الفراغ التي حفرها غياب زاهر فيها، لكنها إذا ما وضعت جنبها لتنام تسيل دمعتها، فلا شيء مهما كثر أو عظم يعوضها غيابه، لا ضحكة تشبه ضحكته، لا صوت يشبه صوته، لا فرح مثله يستيقظ معها ويذهب للنوم معها أو يسهر تحت ضوء السراج جانبها يقرأ.

كان قلبها في يديه الصغيرتين وصار الآن في خطوته، خطوته الواسعة التي لا يحدها شيء.

16

ودعها عند الباب، قبّل ظاهر كفيها وأعلى رأسها، وهي قبلت رأسه ومسحت على وجهه ثم ضمته بكفيها، تأملت تقاسيمه وأطالت النظر، وكأنها إذا ما أطالت النظر خبأت صورته في عينيها وقلبها، فضمنت بقاء ذكراه طازجة حتى يعود.

«سايرين» هكذا أعلن علي انتهاء اللحظة التي بدت بينهما كالأبد، اللحظة التي لم تقل فيها ريّا شيئا، واستعان زاهر فيها بالصمت على ما لا يحتمل قوله.

أفلتت وجهه، فاستدار، وحمل صندوق سفره، ومشى إلى جانب أبيه باتجاه الفرضة، حيث كان خليفة بن ناصر ينتظره ليركبا معا الباخرة (دواركا) المبحرة إلى الكويت بعد ساعات.

مشيا صامتين مدة ثم بادره أبوه «اسمع يا زاهر، أنا ما جربت الغربة لكني أظنها كما يوم تقلع نخلة من مكانها، وتنقلها، وتزرعها في مكان جديد، بتقلعها بتعب، وبتحفر لها بتعب، وبتزرعها بتعب، وبعدين بتنتظرها تمد عروقها، وتثبت عمرها في مكانها الجديد، وبعدين بتثمر، وتثقل عذوقها،

وبتقطف منها وتاكل، لكن كل ذا ما يكون إلا بتعب، تراه ما شيء في الدنيا يجي براحة».

«في الكويت بتشوف أمور كثيرة، لا أنت ولا أنا شفناها من قبل، يمكن سمعنا عنها لكن بو سمع ما كما بو شاف، الشوف غير.

بتلاقي ناس كثيرة، حد منهم يلبس مثلنا، وحد منهم يلبس الباطلون والقميص. حد منهم كلامه يشبه كلامنا، وحد منهم ما تفهم من كلامه شي، وكل ذا يباله وقت وصبر، وبعدين بتتعود على كل شي، ويمكن بعد مدة بتحسب عمرك واحد منهم، وبترد لنا بدشداشة كويتية ورواز الأقلام هنا في الجيب».

وأشار إلى أعلى الجهة اليسرى من صدره، أعلى القلب تماما.

«سير يا ولدي، تعلم منهم بو يفيدك وخلي عقلك الأستاد، وأهم شيء لا تهين عمرك حال حد، تراه الإنسان ما تهينه حاجته لكن تهينه نفسه كان ذلها وقبل عليها المذلة».

«سير بلادهم لكن إياك تنسى أنت من هين جي، وتذكر، دوم تذكر، ترى الإنسان ما بس حيت يوصل، الإنسان نوبة من هين جي؟ ومن هين نابت؟».

وصلا الفرضة فوجدا خليفة بن ناصر في انتظارهم برفقة عمه صالح، وكان أصحاب الزوارق قد بدأوا بالزعيق، وحض من بقي على الفرضة من المسافرين على الركوب، حتى يلحقوا بالباخرة الراسية بعيدا قبل أن تطلق صفارة المغادرة.

تبادلوا العلوم والأخبار في عجلة، وتوادعوا في عجلة، قبّل زاهر رأس أبيه وكفه، ومثله فعل خليفة، قبّل رأس عمه وكفه.

قفز زاهر ووراءه خليفة إلى أحد الزوارق الصغيرة، الذي ما لبث أن امتلأ بالمسافرين، فأتخذ طريقه باتجاه الأفق، تاركا وراءه الفرضة والقصر والقلاع والأيادي الملوّحة.

رفع الرجال الواقفون على الفرضة أياديهم ملوحين بالوداع، لكن المسافرين كانوا قد أعطوا ظهورهم لليابسة، ومضوا دون التفات.

بعد أن رسى الزورق إلى جانب الباخرة، وبدأ المسافرون بالصعود إليها متسلقين سلم الحبال المتدلي إليهم، خُيّل لعلي أن زاهرا رفع يده بالوداع فرفع يده ولوح له للمرة الأخيرة، وكذلك فعل صالح الواقف إلى جانبه، بقيت ذراعاهما معلقة في الهواء بعض الوقت، ثم أنزلاها، واستدارا للعودة إلى بيتيهما.

في الطريق سأل علي صالحا عن أبيه، فأخبره أنه مريض ولم يغادر فراشه منذ مدة، حوقل علي وتأسف على حاله، ثم طلب من صالح أن يسمح له بمرافقته لعيادة أبيه والاطمئنان عليه، فمشى الرجلان باتجاه الطويان.

كان علي يريد أن يعود الوالد حمود فعلا؛ لكنه أراد أكثر أن يتجنب حزن ريّا ولو لبعض الوقت، ما يكفي من الوقت فقط حتى يسترد صلابته فتجد ريّا لحزنها متكأ فيه.

يعرفها جيدا، ويخاف أكثر ما يخاف حزنها، الحزن الذي يبدو وكأنه ولد معها ولازمها، الحزن الذي ما خففه شيء بعد غياب راشد إلا ولادة زاهر، قلبها معلق بهما وحدهما، والآن لم يعد أي منهما هنا، ما بقي لها إلا هو وحبه الذي لا يتغير ورضاه بوجوده معها ولو على هامش قلبها.

يريد العودة إلى البيت؛ لكنه يريد أولا أن يماشي حزنه قليلا، ويتدرب على إخفائه بعيدا عن عينيها حتى لا تراه فيتضاعف ما بها.

ذهب إلى الطويان؛ فوجد العود وقد اشتد عليه المرض، لكنه لم يستطع البقاء كثيرا في الغرفة المكتظة بالأولاد، وروائح الأعشاب والموت.

ترك الحارة ولم يأخذ الطريق الذي يأخذه إلى ميابين، بل ذهب في الدرب باتجاه الآبار العلوية، حيث تعوّد هو وراشد أحيانا أن يستكشفا المسالك التي تصل مسقط بروي عبر الجبال.

ارتقى الجبل حتى وصل عند سمرة وحيدة، نبتت على طرف نتوء صخري، فجلس تحتها وأطلّ على مسقط.

مسقط التي يحبها بكل فقرها وبؤسها، مسقط التي حلم من فرط يأسه بأن يغادرها، لكنه لم يجرؤ يوما على فعل ذلك، لم يجرؤ على تركها وركوب البحر والذهاب نحو المجهول، المجهول الذي يسلمه ولده الآن.

سالت الدموع من عينيه، فلم يلجمها ولم يحاول أن يمد أصابعه فيمسحها، تركها تتساقط حتى بللت جيب دشداشته. فليبكِ الآن، فليبكِ ما شاء تحت هذه السمرة، وبعدها فليعُد لريّا فيسند قلبها بقلبه، وليظهر لها صبرا لم يكن يثق في امتلاكه له.

17

فرضتهم ليست كفرضتنا.

هذا أول ما خطر في بال زاهر عندما لمح ميناء الشويخ، وهو واقف في مكانه على ظهر الباخرة دواركا، التي ركبها من فرضة مسقط قبل خمسة أيام.

خمسة أيام طويلة على السطح حيث لا غطاء لهم فيه غير الزرقة التي تمتد بين البحر والسماء بشكل لا نهائي.

خمسة أيام يمضون فيها في الماء، ولا يقفون إلا في الموانئ من دبي إلى أم سعيد والمنامة وبوشهر، فينزل منها خلق، ويصعد إليها خلق جديد.

قبل أن يصلوا وترسو السفينة في رصيف ميناء الشويخ؛ فحص زاهر بعينيه سطح الباخرة، المكان الذي عاشا فوقه في الأيام السابقة، محشورين بين العمال الهنود وبعض العمانيين من الباطنة وصور، وقليل من العرب الذين رافقوهم من الموانئ التي مروا بها، ثم ارتفعت عينا زاهر إلى المدخنة العظيمة التي تتوسط الباخرة، وتنفث دخانها في زرقة السماء؛ فيعلو كعامود أسود لا يلبث أن تبدده الريح.

التفت إلى خليفة الذي كان يقف إلى جواره على السطح، ويتكئ على الحاجز الحديدي، ويفحص الرصيف البعيد كأنه يبحث عن أحد ما.

اقتربت الباخرة أكثر حتى رست عند الرصيف، فألقت حبالها التي تلقفتها أيدي عمال الميناء، وأوثقت لفها حول أعمدة من الحديد الصلب مثبتة على أرضية الرصيف.

أنزل السلم فبدأ المسافرون بالهبوط، نزل أصحاب القمرات الرئيسية أولا، أما الذين كان نصيبهم السفر على سطح الباخرة فنزلوا متأخرين.

تاها قليلا في زحمة الوجوه والأجساد المندفعة، ثم ظهر لهما رجلٌ يلبس دشداشة كويتية ويلف على رأسه شماغا أبيض.

اقترب الرجل منهما فاتسعت ابتسامة خليفة، وصاح بصوت عال: «السلام عليكم باه» فاستقبله الرجل بابتسامة واسعة كابتسامته، وبدمعة لم يحاول إخفاءها، ضم خليفة إلى صدره، ولم يتحرج من إظهار عاطفته على الملأ، ثم بعد أن أفلت ولده التفت إلى رفيقه، وشدّ على يده في السلام.

«أنت زاهر، عرفتك، كيف حالك وكيف حال أهلك والجماعة؟

أبوك رسل لي خط قبل شهر، وموصني عليك، كأنه ما يعرف أن الوصاية ما عليها حاجة، أنت وخليفة عندي بالنفس».

ثم ابتسم، ومشى أمامهما، وأشار لهما أن يتبعاه.

دخل الجميع إلى مكتب الجوازات، ووقفوا في الطوابير الطويلة، حالهم حال العمال الهنود، الذين صاروا يأتون في أعداد كبيرة إلى الكويت ليعملوا فيها.

وصلوا إلى طاولة الضابط الذي كان يدقّق الجوازات، أخذ جوازيهما ثم رفع رأسه، وفحصهما بنظرة طويلة، ثم هز رأسه، وختم الجوازين،

وأعادهما إليهما.

لا يعرف زاهر لماذا قرأ في نظرة الضابط شيئا ما لم ترتح نفسه إليه، لكنه لم يبدِ ما في داخله بل غض الطرف ومشى، وعندما صاروا خارج المبنى، قال له العم ناصر كما صار يطلق عليه منذ تلك اللحظة:

- صح نحن ولاد عرب كماهم، لكنا معهم ما واجد نختلف عن الهنود بو جايين يشتغلوا معهم عمال، كلنا جايينهم محتاجين وندور اللقمة.

- لكن نحن جايين نتعلم، ما جايين نشتغل عندهم.

- ما شي فرق عندهم، يشوفونا هابطين من الباخرة مع الهنود ونسلمهم الجواز، فأول شي يفكر فيه «هذا عماني، فقير، محتاج، جاي يشتغل عندنا»، ويطيح بالدمغة على جوازك وعليك.

بان على وجه زاهر سؤال غاضب وإن لم ينطق به.

- لأنهم تعودوا علينا عمال فقراء، نجي الكويت نشتغل في مزارعهم أو في دكاكينهم أو بيوتهم، نجيهم عمال ما متعلمين. الفلسطينين والمصريين يجيوا هنا معهم شهادات، ويلبسوا القميص والباطلون والكوت، ويشتغلوا معهم مدرسين وأطباء أو موظفين في الحكومة، ونحن نوصل كذا بدشاديشنا وغبرتنا، وملح البحر يفوح منا، وأكثريتنا ما يعرف حتى يكتب اسمه.

- وأنت عمي مو تشتغل؟

ابتسم ناصر وقال بزهو واضح:

- أنا متعلم في السعيدية قبلكم، وأشتغل كاتب في المستشفى الأمريكاني، باكر نسير المستشفى رباعة، أما التو فبنسير نتغدى.

* * *

لم يكن البيت أكثر من غرفة، في ركن منها مطبخ صغير، وفي جانب من الحوش كنيف ضيق ومكان للاستحمام.

وصلوا البيت بعد صلاة العصر، فوجدوا فيه رجلين يقتسمان سكن البيت مع العم ناصر، عمانيين مثلهم، هلال بن خالد من بلاد سيت، وسنان بن خميس من العيجة في صور.

كلا الرجلين في مثل سن ناصر، هلال يعمل كاتبا في أحد الدكاكين في السوق، وسنان يعمل مضمدا في المستشفى الأمريكاني مع ناصر في الصباح، ويكمل دراسته الثانوية في المساء.

بعد أن تعشوا تلك الليلة سألهم سنان:

- هيش أخبار البلاد وعلومها؟

- البلاد ساكنة.

رد عليه خليفة:

- خلصت الحرب في الجبل ولا بعدها؟

فقاطعه هلال:

- أنت تعرف أن الحرب مخلصة من زمان، والشيوخ خلوا البلاد والإنجليز احتلوا الجبل، مالك تسأل وكأنك ما تعرف؟

- أني ما أقصد حرب الجبل الأخضر، أني أقصد الحرب في ظفار، وبعدين هيش يغضبك في سؤالي؟ أني أسأل الشباب، يمكن جد جديد في البلاد وما وصلنا.

- وما شي في البلاد غير الحرب؟

- نعم، ما شي معنا غير الحرب، خبرني أنت هيش من جديد معنا؟ إن ما كانت بين السلطان والإمام فبتكون بين ذا الشف وذا الشف، والتو الحرب قايمة بين جيش السلطان والثوار في ظفار، هيش تظن معهم من جديد؟ شي مدارس؟ شي مستشفيات؟ شي شوارع؟ السلطان سعيد رجع من صلالة؟

- كل ذا نعرفه، لكن الناس ما تبدا سؤالها كذا؟ الناس تقدم الخير على الشر.

قاطعهم زاهر وكأنه يريد أن ينهي الحديث:

- ما زاد في البلاد شي غير حرب جديدة في ظفار توصلنا أخبارها في مسقط، وغير عن هذا ما زاد شي معنا، لا مدارس ولا مستشفيات، ولو زاد منها شي في مسقط ما كنا جينا نتغرب، كنا جلسنا وكملنا علمنا هناك في بلادنا ومع أهلنا.

التفت الجميع إلى زاهر وترك هلال وسنان جدالهما جانبا وتفرسا في الشاب الصغير، ثم تعالت ضحكتهما فشاركهما ناصر الضحك.

زاهر وخليفة لم يفهما ما يضحك الرجال الثلاثة، لكنهما ضحكا معهم، وكأن الضحكة إذا ما تعالت بين الغرباء صارت وطنا مشتركا، وخففت من ثقل الغربة ولو إلى حين.

18

سمعت طرقا على الباب فقامت لتفتحه.

جذبت ضلفة الباب قليلا وأطلّت من فرجته؛ فوجدت أمامها رجلا في زيه العسكري وقد أدار ظهره للباب، في وقفة مستقيمة ورأس مرفوع، ويدين معقودتين خلف الظهر، وعلى الأرض إلى جانبه كيس من قماش سميك.

جذبت الضلفة إلى الداخل أكثر فانفتح، انتبه لصوت الباب فاستدار والتقت عيونهما لحظة بدت وكأنها عمر مختصر، ضمّته بقوة بعينيها، ثم همست باسمه بصوت أنهكه الشوق والانتظار، وبدأت دموعها في التساقط.

«أنتن الحريم ما شي ما يبكيكن، تزعلن تبكين، وتفرحن تبكين!».

تراجعت للوراء ووقفت جانب الباب منكسة رأسها، تحاول مسح دموعها التي تحولت إلى سيل يعصيها فينهمر، حمل كيسه، ودخل وأغلق الباب وراءه، وانكبّ على رأسها يقبله.

وهي قبّلت كفيه، وبللتهما بالدمع الذي لا يريد أن ينقطع.

تفحّص البيت بنظرة مدربة، فوجده كما تركه قبل ثلاث سنوات، ببيذامته التي في وسط الحوش، والحصير تحت ظلها، القدور المصفوفة في الركن الذي تدعوه ريّا مطبخا.

كل شيء في مكانه كما تركه قبل سنين إلا أن صبغة النورة بدأت تتشقق في عدة مواضع على الجدار.

دخل وراءها الليوان ثم جلست فجلس قبالتها، أطالت النظر في وجهه، وكأنها تريد أن تفحص الجديد الذي طرأ على ملامحه، وهو أسند ظهره على التكية، وقلّب بصره في الحجرة، فانتبه للراديو الموضوع على رف واحدة من الروازن، فأشار إليه.

- أشوف معكم راديو.

ابتسمت ريّا:

- هيه، علي يسمع فيه صوت العرب وكراتشي وإذاعة لندن، ومرات يضبطه على إذاعة القاهرة ونسمع فيه قراية القرآن مع مقريء يقال له عبدالباسط وواحد غيره اسمه الحصري.

ابتسم راشد للفرحة الصغيرة في عيني أخته عندما نطقت بأسماء القراء.

- هين زاهر؟ ما أشوفه، بعده في المدرسة؟

- زاهر خلص علمه في السعيدية، وسافر الكويت من مدة.

استوى راشد في جلسته، ومال باتجاه أخته:

- الكويت؟ مو يسوي هناك؟

- يكمل علمه، قلت لك خلص علمه في السعيدية.

- وما وجدتوا له مكان غير عن الكويت؟ ما كان أحسن لو اشتغل في

برزة السيد أو حتى معنا في الجيش؟!

- قال يريد يتعلم، وموه فيها الكويت؟ يقولوا علمها زين.

غام وجه راشد لحظة ثم تدارك:

- ما شي أختي، الله يوفقه ويهديه.

ثم تكلف ابتسامة وسألها مغيرا مسار الحديث:

- مو غداكم؟

- اليوم علي جايب من السوق سمك كنعد.

- عجب اليوم غدانا مرقة كنعد، بس لا تكثري من الفلفل، خليني أتهنى لقمتي، يبس بطني من الدال والمالح في البركس.

ابتسمت ريّا وأطرقت قليلا ثم رفعت إليه عينين معاتبتين:

- لك ثلاث سنين ما هبطت مسقط وما طرشت حتى رسالة.

- ظفار بعيدة، واجد بعيدة، بينها وبين مسقط صحرا وجبال، ما يوصلوها إلا بالبحر أو بالطيارات، والرخصة بو نعطى ياها ما تسوى تعنية الدرب.

يحكي لها عن ظفار، عن البلاد التي لا تشبه البلاد وهي منها، عن جبالها المكسوة بالغيم وعن أهلها الطيبين، لكنه لا يريد أن يقلقها فلا يخبرها عن رجالها الذين يلبسون الليل ويتماهون معه، ولا عن الأحراش التي تلد ثوارها فيتكاثرون ويباغتون ويرمون.

يحكي لها عن السهول الخضراء ورقة الرهام وموج بحر العرب الصاخب، يخبرها عن الحوت الذي رآه في بحرها، وعن السمك الذي يقفز ويتراقص في الهواء.

ثم يغير الحديث فيسألها عن أحوال مسقط وبيت الوادي؛ فتخبره أن الوالد حمود قد توفي منذ مدة، وأن العودة مريضة وربما لن تطيل المكث بعده، يؤلمه الخبر، يحوقل ويستغفر، ثم يقوم فيتخفف من ملابس العسكر ويرتدي إزاره وعليه دشداشة قصيرة من قماش السنسوني الخفيف، فرشت له ريّا في الحجرة وتركته ليستريح.

خرجت إلى مطبخها الصغير في ركن الحوش، وبدأت في دق البزارات، كانت تدق بخفة وحذر خشية أن يصل الصوت إلى أذن أخيها فيضطرب نومه، لكنها على حذرها لم تستطع إخفاء الفرح الذي في روحها، الفرح الذي لا يأتي إلا بحضوره، تدق البزار فترتفع الرنة خفيفة راقصة في الهواء.

بعد الغداء خرج مع علي إلى الطويان ليعزيا صالح بن حمود في أبيه، مشيا طويلا دون كلام، ثم وقبل أن يدخلا السكة المؤدية للحارة سأله راشد معاتبا:

- خليت ولدك يسير الكويت؟

- ساير يتعلم، مو هناك؟خير؟

- هناك أمور كثيرة، وأنت تعرف الكويت فيها القوميين بو مع عبدالناصر والإمام.

- القوميين في كل مكان التو، من البصرة لين الجزائر، والدنيا كلها مع عبدالناصر.

- وأنت؟

- تو أنت تسأل عن زاهر ولا عني؟

- أسألك أنت مع من؟

- أنا ما مع أحد ولا ضد أحد.

- يعني أنت معنا؟

- ومن أنتوا؟

- نحن جيش السلطان.

- تو أنت استويت جيش السلطان يا راشد؟ يعني أنت ما واحد منا؟

- أكيد أنا منكم، لكن أنا التو عسكري في جيش السلطان.

- وأنا كماك ولكني كاتب في برزة السيد.

قال علي عبارته الأخيرة وأعقبها بضحكة قصيرة، ضحكة حائرة، لا هي دلالة فرح ولا وهي وشاية بسخرية.

- البلاد ما تتحمل شفين التو.

- لكن نحن من يوم خلقنا والبلاد شفين، فريقين، مو جد فيها؟

- البلاد توحدت بعد حرب الجبل تحت راية السلطان سعيد.

- وأنت تشوفها كذا؟ تشوفها متوحدة؟

لم يجبه راشد فبقي السؤال معلقا بينهما.

-اسمعني، كان وصلنا شي ما يعجبنا عن زاهر هناك لازم ترده، رده قبل عن يقصوا عليه ويشف معهم.

استغرب علي من صفة الجمع التي يتكلم بها راشد، وما عاد يعرف من الذي يخاطبه هل هو راشد أم جيش السلطان برمته.

- مربنه ومعلمنه يعرف الخير من الشر.

- كلامي وتنبيهي لك محبة وخوف.

- لكن مقصدك ما فاهمنه، وكلامك ما عاجبني.

- ما لازم كلامي يعجبك، لكن مقصدي أنهم هناك يجندوا العمانيين، ويدربوهم على السلاح، يدربوهم في معسكرات في العراق وفي لبنان وسوريا، يريدوا الثورة مرة غيرها، يدخلونهم متسللين إلى ظفار عن طريق اليمن أو الصحراء، فهمت؟

فهم علي لكنه لم يكن يريد أن يفهم، في كلام راشد توجس وخوف كثير لا يطيقه قلبه.

هزّ رأسه ولم يعرف إن كان يهز رأسه موافقا أم ليغلق باب الكلام فلا يتمدد الخوف في قلبه.

استأنفا سيرهما إلى الطويان قاصدين بيت الوادي، لكنهما وصلا الحارة عند ارتفاع أذان صلاة العصر فدخلا مسجدها، أقاما الصلاة مع الجماعة، وبعد أن سلما وتفرق الناس، وجدا صالح بن حمود عند الباب فعزاه راشد في أبيه، وذهبوا معا لبيت الوادي ليسلموا على العودة.

استأذنوا، ودخلوا عليها فوجدوا صفتها مستسلمة لشح الضوء، وكثافة روائح الأعشاب المختلطة برائحة الأدوية، كانت هناك فتاتان تقومان على خدمتها. لعلهما حفيدتاها؛ فكر راشد عندما رآهما عند رأسها، لكنهما ما لبثتا أن غادرتا بعد دخول الرجال.

شعر راشد بظل الموت حاضرا بينهم، حاضرا بكثافة حتى يكاد أن يترك أثر كفيه على الجدران البيضاء، قبّل راشد كف العودة وهي شبه غائبة عن الدنيا، وصار يسألها عن صحتها وحالها وكأنه واثق من حضورها، بعد قليل فتحت عينيها اللتين زاد بياضهما في السنوات الأخيرة وغاب عنهما النظر تماما، ونظرت في وجهه وكأنها تراه:

- من أنته؟

- أنا راشد... راشد بن سيف العايفي.

- راشد أخو ريّا بنت سيف؟

ابتسم راشد ابتسامة خفيفة لأن تعريفه عندها نسبة إلى أخته لا غير.

- نعم الوالدة أنا راشد أخو ريّا بنت سيف.

أغمضت عينيها ثانية وبدت وكأنها ذهبت في النوم، ثم عادت وفتحتهما وقالت له بصوت يكاد لا يسمعه أحد إلا هو:

- هالله هالله في....

ثم أغمضت عينيها وعادت إلى النوم.

* * *

خرجت من بيتها والدمع يحجب عنها الطريق، لكنها لم تحتج لنظرها كي تعرف الدرب إلى البيت الذي ألفته وأحبت ناسه، تمشي حافية ولا تشعر بحرارة الشمس ولا بالتراب الذي تثيره قدماها في الطريق، تمشي وكأنها تركض، وعلي وراشد وراءها يحوقلان ويستغفران.

وصلت فوجدتهم ينتظرون حضورها، كانوا يعرفون وصية العودة فما تجرّأ أحد على لمسها.

قالت لصالح قبل أن تغيب للمرة الأخيرة: «وصيتي ريّا بنت سيف تغسلني».

جلب الماء، وصنع من الشراشف حراما كي يحجب الجسد عن العيون.

تعاونها بنات صالح فيمزجن السدر بالماء، ويصنعن منه رغوة يناولنها إياها، وحدهن من أمرت العودة أن يتكشفن عليها في موتها، أما

أمهاتهن فيبقين خارجا، هن وبقية نساء بيت الوادي ونساء الحارة، يناولن ويساعدن ويخطن الكفن، لكنهن لا يتكشفن على الجسد الذي صار أكثر خفة وبياضا وحرمة.

تقوم ريّا بنضد الثياب عن الجسد الذي هرم، ثم تستره بشيء من قماش الكفن.

تستر وتطهر، تردد: «اللهم إني نويت أن أغسل هذه الميتة من كل نجاسة صغرى وكبرى، طاعة لله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم».

ثم تبدأ بغسل الجزء الأيمن من الجسد، تبدأ بالرأس، بالوجه الذي أحبت سماحته، تمسح عليه وتمرر أصابعها بخفة على العينين اللتين أبصرتا قلبها رغم بياض مقلتيها.

تغسل الشق الأيسر وتردد الشهادة وهي تهبط بيديها من الرأس إلى الكتف ثم عندما تصل موضع القلب تتمهل قليلا؛ وكأنها لو انتظرت هناك أكثر لعادت إليه الحياة.

تتشهد وهي تغسل الجسد أول مرة بالماء ثم تعود وتغسله ثانية بالماء والسدر، وتفعل كما فعلت أول مرة وهي تكرر النية والتشهد.

تمسح بيديها الصغيرتين على موضع القلب الذي كان لها أهلا ومكانا، على اليد التي داوت وولدت وسترت في الحياة والموت، تهبط حتى تصل إلى الساق ثم القدم التي ما مشت إلا في الخير والإحسان وطلب الثواب.

تتخلل أصابعها الشعر الأبيض الخفيف، ثم تضفره في ضفيرتين تتركهما منسدلتين إلى الخلف.

تغسل الجسد مرة ومرتين وفي المرة الثالثة تسكب الماء المطيب بالكافور وهي تردد: «اللهم بعفوك يالله أسألك فيها العفو وأن تعفيها يا الله برحمتك

يا أرحم الراحمين»، تكرر «يالله» ودموعها تسح فلا تلجمها ولا تحاول ذلك.

تغمس إصبعها في الحنوط فتتذكر كلام العودة وهي تأمرها بفتح سحارتها وتطلب منها أن تغسلها، تتذكر ترددها ثم قبولها، تتذكر أنها كانت تفكر أيضا أن ذلك لن يحدث وأن العودة لا تموت.

تنتهي فينقل الجسد ليلبس ثيابه الأخيرة، يوزع القطن على مواضع منه ويذر على القطن الطيب والكافور.

تبخر الميتة وهي تتلو سورة الإخلاص فتردد النساء وراءها، ثم تسترجع «إنا لله وإنا إليه راجعون» فيرددن خلفها، ثم تحوقل فيحوقلن، يفعلن كل ذلك بين النحيب والشهقات، تفعل هي كل ذلك ودموعها لا تتوقف عن الجريان.

يأتي الرجال فيحملون جسد المرأة التي تحب، ويضعونه على الطارقة[48]، ثم يحملون الطارقة على أكتافهم، يتخذون طريقا بين النساء المولولات، يخرجون بها من الباب فيتعالى صراخ النساء ونحيبهن، لكنهم لا يلتفتون.

في مسير طويل تمشي الطارقة على الأكتاف في بطن الوادي، تغيب في المنعطفات والغبار، يسير الرجال بها إلى المقبرة التي على طريق طوي الحلوة، المقبرة التي لا أهل لها فيها ولا ولد، المقبرة التي لم يسبقها إليها من أهلها إلا الرجل الذي هبطت معه من بلادها البعيدة فتدفن عنده لتستأنس به في دار وحشتها.

تسمع أصوات تكبير الرجال وتهليلهم تبتعد بها، ولا تعود ترى أثرا لها.

تداهمها الوحشة، تشعر وكأن قلبها قد صار خاليا، تشعر بالفراغ وقد

48. الطارقة: السرير الخشبي الذي يحمل عليه الميت.

عاد ليحتل من المساحة أضعاف ما كان هناك قبل أن تلقى العودة فتصبح لها أما.

تميد بها الأرض فتتهاوى، تسندها حميدة التي كانت تقف إلى جانبها، وتُجلسها على الأرض كي تستريح، تتحلق النساء حولها برهة، حتى تأمرهن حميدة بالتفرق، وتطلب منها أن تقوم فتغتسل؛ لتتخفف من رائحة الموت ووطأته.

تأخذها إلى الحجرة وتناولها ثيابا من سحارتها، فتدخل ريّا وراء الساتر، وتنزع عنها ثيابها المبللة، وتغتسل طويلا بالماء الذي أحضر من الطوي العلوية.

جلست ريّا في صدر الحوش، تبكي العودة وكأنها تبكي أمها التي لم تخبر وجودها وموتها إلا من خلال الآخرين، تبكيها بكل ما فيها من خبرة الفقد ومرارة الغياب.

19

كما في كل وداع بينهما ودعته ريّا عند الباب بالدموع والدعاء.

منذ أن صارت العسكرية بيته، صار وداعه غربة، وذهابه وسم مرارة. قبّلت كفيه ورأسه، وترجته ككل مرة ألّا يطيل الغياب، ترجوه وهي تعرف أنه لا نفع من رجائها.

سار علي معه حتى موقف سيارات اللاندروفر عند الباب الكبير، حيث كانت سيارة من سيارات الجيش في انتظاره، رجاه راشد أن يكاتب ناصرا وحتى زاهرا نفسه فيحذرهما وينبهما إلى ما خفي عنهما.

ودعه وذهب إلى البرزة، وفي طريقه سأل نفسه إن كان سيكتب لزاهر كما وعد راشدا، هل سيكتب إلى زاهر وناصر ليحذرهما مما حذره منه؟ كانت غالب المعلومات التي أمده بها راشد حول حركة القوميين العرب في الكويت والدعم الناصري معروفة لديه، بل ويجد في نفسه حماسة لفكرة القضاء على الاستعمار التي ينادي عبدالناصر بها.

كان يعرف عن الثورة في ظفار أيضا، لكنه لم يكن يعرف شيئا عن حركة التسلل إليها، والتنظيمات الطلابية، وانضمام الشباب العمانيين من الشمال في الكفاح المسلح في الجنوب.

كان يظن أن الحراك مقتصر على الظفاريين الموجودين في الدوحة والكويت والعراق والسعودية، على الأقل هذا ما وصله وعرفه حتى الآن.

ودّع راشدا عند الباب الكبير ومشى في هواجسه، غائبا عمّا حوله، وصل باب البرزة فوجده مغلقا؛ فانتبه إلى أن اليوم الجمعة. عاد أدراجه، ثم أخذ طريق السوق، وتوجه إلى مسجد علي موسى عند السوق الخارجي، وقضى وقته في قراءة القرآن محاولا تجنب التفكير في ما زرعه راشد من خوف داخله، قرأ القرآن حتى أذّن لصلاة الجمعة، وتليت الخطبة ثم أقيمت الصلاة فصلى مع الجماعة وهو ساهم، حاول أن يغيب في الصلاة فلا يعود للتفكير في ما قاله راشد من كلام ولا في الهواجس التي زرعها فيه عبر نبرة الشك التي في صوته، فترك له الخوف لينتفخ في أحشائه ويستحل سكينته.

في الطريق حاول طرد أفكاره لكنه لم يقدر عليها، كان يُبطئ المشي محاولا تحسين مزاجه؛ حتى إن وصل البيت لم تنتبه ريّا إلى ما يدور في ذهنه فيقلقها بما لا يعرف ويحزنها بما يعرف.

لكن إطالة المشي لم تجدِ؛ فوجد نفسه يمضي في هواجسه. حتى وصل عند باب البيت فوقف قليلا أمامه، ترتفع يده ليدفع ضلفة الباب لكنها لا تصل إليها فيعيدها إلى جانبه، يتأمل سلسلة الحديد المعلقة أعلاه، يغيب في تتبع شقوق الخشب، يسير بنظره على الجدار، ويتتبع حركة النمل الذي بنى لنفسه بيوتا في ثقوب صغيرة أسفل الجدار. ينشغل بأي شيء حتى يستجمع نفسه، ويزيح عن وجهه علامات التفكير والكدر.

دخل البيت فوجد ريّا جالسة تحت بيذامتها، تشغل أصابعها بغرس النجوم في الكمة التي بين يديها، سمعته فرفعت إليه عينين ذابلتين من فرط ما أصابهما من الوداع. ياهذه المرأة القوية خارج بيته الهشة داخله، كم يزيدها العمر والحزن والضعف جمالا فيكسره. جلس تحت البيذامة

إلى جانبها، متلاصقان وصامتان، لا دمعة سقطت من عينيها، ولا نبست شفتاه بكلمة.

جلسا في مكانهما حتى غيّرت الشمس موضعها في السماء، وسقط الظل على الظل، لم تسأله شيئا فلم يجد نفسه مضطرا إلى إجابات يدّعيها ولا يجيدها.

هل كانت تعرف؟ هو يعرف أن بها حدسا بعيدا، كلما تكاثف عليها خبأته أكثر حتى يغيب. تقاومه بالرجاء، تعرف أن باب السماء مفتوحة لقلوب الأمهات والأخوات والزوجات، تعرف أن رجاءهن كبياض حليبهن ووشيجته.

ترفع يديها وتقول يا الله، تخرج منها طويلة وكأنها تمتد إلى السماء من خلال أصابعها الذاهبة فيها.

يا الله...يا الله...

فيذهب قلبها في الكلمة.

* * *

في تلك الليلة جلس علي لكتابة رسالة لزاهر، لكنه لم يعرف ما عساه يقول له فيها، مم يحذره؟ من العروبة أم من القومية؟ أم من فكرة التحرر من الاستعمار والنضال ضده؟

أيقول له انتبه لا تقع تحت تأثير خطب عبدالناصر، ولا تصدق كلمة مما يقول أحمد سعيد في مديح العروبة وتمجيد القومية؟

كيف يقول له ذلك وهو نفسه ينتظر بلهفة سماع صوت الزعيم الآسر والحشود الهادرة وراءه عبر صوت العرب، فتفيض نفسه بالحماسة وينجلي أمامه أفق يرى من خلاله بلادا غير البلاد، وبشرا يحكمون مصائرهم برأس مرفوعة وكبرياء.

أيقول له لا تتبع الغاوين؟ لكن من هم الغاوون؟

هل هم الرجال الذين يطالبون بجلاء المستعمر الإنجليزي واستعادة فلسطين من أيدي الصهاينة؟

هل هم الشباب الذين يذهبون إلى بلاد الخلق؛ فيجدون الحال غير الحال فيغضبهم ضعفهم وهوانهم على الناس؟

ممن يحذره؟ وكيف عساه أن يحميه من فورة الشباب وحماسة الصبا؟

لا يعرف ما يكتبه إلى ابنه، لا يعرف إن كان عليه أن يحذره أم يشجعه؟ هل على ابنه أن يكون مع أو ضد؟ أم أن يكون مثله، يمشي بحذر في الظل مؤثرا السلامة؟

تردد كثيرا وفي النهاية قرر أن يرسل رسالة لزاهر يطمئنه فيها على أحوالهم، ويسأله فيها عن أحواله، وينبهه مرارا إلى وجوب اهتمامه بعلمه ولا شيء آخر، ثم قرر أن يكتب رسالة أخرى لناصر يعزيه فيها في وفاة أمه، وينبهه إلى ما يحدث في ظفار، ويطلب منه أن يتنبه إلى من يخالطهم زاهر وخليفة في تلميح دون تصريح، عله يفهم ما يرمي إليه.

20

غادر راشد مسقط بسيارة البدفورد مع سائق الجيش الذي كان ينتظره عند الباب الكبير، وتوجها إلى معسكر التدريب في العذيبة، حيث تزودوا بالوقود ثم انطلقوا باتجاه صحار، بعد أن ركب معهم ثلاثة جنود مغادرين المعسكر في إجازة ومتجهين إلى قراهم في الباطنة.

منذ سنوات لم يسلك راشد هذا الطريق، لكنه وجده على حاله منذ أن شقته سيارات الجيش، ومهدته عجلات البدفورد التي تحمل المسافرين، طريق مغبر وصعب كحال الطرق في غالب البلاد، طريق ضيق في سهل قاحل وإن كان يمر بين حين وآخر بالمزارع والنخيل والقرى المتناثرة على امتداد السهل.

بدؤوا في إنزال الجنود الواحد بعد الآخر في قراهم التي انحدروا منها، فيتجمع الأطفال في كل مكان تقف السيارة فيه فرحين لاعبين، ومتلمسين إطاراتها ومصابيحها، حتى ينهرهم السائق فيبتعدوا عنها قليلا ثم يعودون للهوهم حتى يدور محركها ثانية فتنطلق.

بعد أن أوصلا الجنود الثلاثة إلى قراهم طلب راشد من السائق أن يتجه

إلى الرستاق وعندما قاربا مشارفها دلّه على طريق السراير. وصلا بعد العصر والشمس ما زالت عالية في السماء وإن مالت قليلا ناحية الغرب. أمر السائق أن يتوقف قبل دخولهما القرية، وأكمل سيره ماشيا في زيه العسكري وحذائه الغليظ.

محاولا تجنب مصادفة أي من أهلها دخل القرية من طرفها حيث بيت أبيه ونخيلهم التي تركها قبل سنين، لكن كيف له أن لا يصادف البيادير وهم في أوج القيظ منشغلين بالنخل والرطب.

مشى على السواقي التي تخترق ضواحي النخيل حتى وصل إلى نخلهم، فوجدها يابسة وقد قطع عنها ماء الفلج. أوجعه حال النخيل، لكنه تذكر تهديده للحضور في سبلة عمه إن هم مسوا النخل أو قاربوه.

صادف رجالا وقفوا لتحيته وتبادلوا معه العلوم والأخبار، رجالا عرفهم في صباه لكن أحدا منهم لم يتعرف إليه في زيه العسكري، فشيعته عيونهم وهي مندهشة ومرتابة من حضور عسكري بينهم.

من يكون الرجل؟ وما الذي جاء به إلى قريتنا؟ ولماذا يتمشى بين المقاصير ويقف متأملا حال النخيل في الميتة؟ هل أرسلته الحكومة؟ ولماذا؟ الأمور ساكنة ولم تصل أخبار عن حرب جديدة في الجبال وراءهم.

أرسل الكبار بعض الصغار إلى بيت الشيخ ليخبروه عن العسكري الذي يمشي في أموال (الميتة) ويتفقد نخلها.

مشى راشد متجاهلا العيون التي ترتفع من ضواحي النخل، وتمشي معه على طول الساقية، مشى حتى وصل عند باب البيت الذي وجده مغلقا بالقفل نفسه الذي تركه فيه قبل أكثر من خمسة عشر عاما.

لم يتآكل القفل وإن ذهب غالب لونه وعلاه الصدأ.

أخرج المفتاح من جيبه، لكن القرية كانت قد تحلقت حوله قبل أن يولج المفتاح في ثقب القفل، ثم ما لبث أن أحس بطرف بندقية يغرز في ظهره.

لم يلتفت راشد بل أكمل ما كان يفعله، فتح القفل وأزاح حديدة المزلاج، ثم التفت إلى الرجال الذين صارت بنادقهم في صدره الآن، وقد اكتست ملامحهم علامات من الخوف والتوجس، تسأله عيونهم قبل أفواههم عن شخصه ومن أين له مفتاح بيت الشيخ؟

تأمل راشد الحشد الصغير الذي التف حوله بشكل عدائي، أعجبه ذلك، عرف أنه قد زرع فيهم الخوف قبل خروجه من السراير، فصاروا يدافعون عن غيابه كما لم يدافعوا عن حضوره عندما كان بينهم بيدارا، ومنكسرا والأمر والنهي بيد عمه.

خلع قبعته العسكرية ودسها تحت إبطه ووقف وقفته العسكرية وكأنه في طابور التفتيش، أطالوا التحديق فيه لكنهم لم يعرفوه، تفرسوا في وجهه طويلا ولم يعرفوه، ربما لم تتغير ملامحه كثيرا لكن ما تغير هو نظرته ووقفته ومشيته العسكرية، وجه حديثه لأبناء عمه الذين يحملون السلاح:

- هذا البيت بيتي ومفتاحه معي.

- هذا بيت سيف بن راشد، وما...

قالوا عبارتهم وما أكملوها، عادوا ليتفرسوا فيه فعرفوه هذه المرة، وعندما عرفوه سقطت أذرعهم وتعلقت أسلحتهم مخذولة بأطراف أصابعهم، جاءهم صوت راشد واضحا وواثقا يؤكد اسمه وشخصه وحضوره بينهم.

ثم عاد فاستدار وأعطى أبناء عمه وأهل القرية ظهره مرة أخرى وعالج الباب ثم دفعه فانفتح، تخطى العتبة بحذائه العسكري ودخل وأغلق الباب وراءه.

أصبح في داخل البيت وحده، يقف وجها لوجه مع الزمن الذي مرّ على البيت قاسيا في غياب أهله، فأكلت الرمة خشبه في غير موضع، ويبست سدرة ريّا التي علق أبوهما على أغصانها القوية حبالا لتصبح أرجوحة لها، فتطير بها عن الأرض قليلا لتضحك، ويتعالى ضحكها، فيفرح أبوه، والبيت، والسدرة.

ثم عندما كبرت ريّا صارت السدرة ظل مدرستها التي تجلس تحتها، وتتكئ على جذعها المتين عند الضحى لتقرأ القرآن بين يدي أبيها، وفي المساء عندما تكون قد انتهت من أعمال البيت، وتحضير العشاء ويكون هو عائد من الضاحية يجدها تحتها منشغلة بالخياطة أو صنع مراوح السعف.

كانت سدرتها وصديقتها، قالت لراشد مرة: «هذه السدرة ربيعتي، نسقى بنفس الماي ونتجالس النهار بطوله، أكلمها وأقرأ لها القرآن، وأسويلها القصص، مرات يعجبها كلامي فيمشي الهوا فيها ويسوي ورقها حس وكأنها تجاوبني، ومرات تسكت وما تقول شي بس تنكس ظلتها فوقي».

جالت عيناه في الحوش الذي عشش الحمام في فتحات جدرانه ولطخه بالسحل، لكن لم يتهدم أي ركن منه وإن بدا منهكا من مرور السنين وسطوة الشمس.

نظر عند قدميه فوجد الأرض تحته بساطا من ورق السدر الجاف والحصى وثمار النبق التي نضجت؛ فلم تجد من يقطفها؛ فتساقطت على الأرض ثم ضمرت ويبست.

مشى باتجاه حجرة أبيه فأنَّ الورقُ اليابس تحت حذائه العسكري الثقيل وتكسر، وقف مترددا أمام الباب ثم دفعه فأصدر صريرا عاليا، وانفتح على الحجرة التي كانت خلوة أبيه ومكان راحته، أجال بصره فيها فوجد كتب أبيه كما هي، محفوظة فوق الرفوف على الروازن لم تمتد يد لتعبث بها. وجدها

كما تركها لم تمسها الرمة ولا اقتربت منها القوارض، ولولا الغبار الذي تراكم عليها لظن أن الزمن لم يقترب منها في مروره.

عند الزاوية، في الموضع الذي كان أبوه يحب الصلاة فيه وجد المصحف الكبير على مسند الخشب الذي كان يضعه عليه، مفتوحا عند الصفحة ذاتها التي كانت كلماتها آخر ما أبصرته عيناه ثم أغمضهما إلى الأبد.

يرى أباه جالسا، مقرفصا، عند مسند المصحف، منكسا رأسه عليه، ومستغرقا في قراءة صامتة، يرفع بصره عن الصفحة التي أمامه أحيانا ويذهب بنظره في تأمل النخيل الذي يمتد أمامه من عند نافذة الحجرة إلى سفح الجبل، وكأنه يبحث في الخارج عن إجابات لأسئلة تتعاظم في داخله.

تأخذه رائحة الحجرة، وانكسار الضوء على ذرات الغبار التي أثارها دخوله فيسمع صرخة أخته من مكانه في طرف الحوش حيث كان منكبا على ماء الفلج يغرف منه، ويغتسل من تعب النهار وطين الضاحية، فيركض إلى الحجرة ويقف عند بابها والماء يقطر من يديه ورأسه، يجد ريّا وقد أسندت جسد أبيها بجسدها، وترتج في بكاء صامت.

يعود فينظر حوله ليجد كل شيء في مكانه، القراطيس، محبرته، وحتى المكحلة، وبقايا الأثمد وجدها على الرف القريب.

شعر بحضور أبيه في تلك اللحظة، وتمنى لو أنه يحضر فعلا ولو بعض الوقت فيحكي له عمّا جد في حياتهم منذ أن غادرهم ضعافا، ليحكي له عن ريّا وابنها الذي أرسلته الكويت، وعن خوفه عليه وعليها.

يريد أن يخبره عن الجبل الأخضر وعيون الأطفال التي نبتت في الحجارة فصارت شواهدا، عن هول ما رآه هناك، وعن الإصابة في كتفه والنيشان المعلق على صدره.

يريد أن يخبره عن الكلام الجديد الذي صار يعرفه، عن الجبال التي لا تكف عن ولادة ثوارها، «حمر يا أبي، ثوّارهم حمر، ينسلون كخيط من الدخان من بين أصابعنا في تلك الأحراش، يزرعون لنا الفخاخ لنقع فيها ثم يهجمون، يهجمون ثم يختفون، نقتل منهم واحدا فيقتلون منا اثنين... كأنهم جان أو أولاد جان، يظهرون ثم يتلاشون، يباغتون ثم ينسحبون، يذوبون في الهواء، ونحن نستنفذ الرصاص والألغام ولا نصيب منهم أحدا إلا نادرا».

يريد أن يخبره عمّا مرّ من الزمن وترك أثره فيه، عن قلبه الذي يجف ويضمر ويتحول حجرا، كان يريد أن يسأله عن وسيلة تمنع تمدد الصخر في روحه؟ أيِّ آيةٍ تَقيه، وأيِّ تعويذة تجنبه هذه الدرب التي لا عودة منها؟

جلس القرفصاء في موضع جلوس أبيه أمام المصحف، وأراد أن يقرأ فلم يستطع، كانت الدموع قد صارت غشاوة فحجبت عنه الحرف.

لم يعرف كم ظلَّ على تلك الحال، لكنه تنبه على هديل يمامة حطت خلف قضبان نافذة على يساره، ابتسم لها راشد فنظرت في عينيه ثم فرت، عرف أنه قد آن أوان الرحيل؛ فقام وخرج من الغرفة وأغلق بابها وراءه بإحكام، ثم غادر البيت وأغلق القفل بالمفتاح الذي أعاده إلى جيب قميصه.

وجد رجال القرية وأطفالها ونساءها حيث تركهم عند الباب، لم يجرؤوا على الدخول خلفه ولا على المغادرة.

مشى على السواقي باتجاه المكان الذي ترك فيه السائق، فمشى أولاد عمه وراءه دون أن ينطقوا بكلمة.

وصلوا فوجدوا السيارة في انتظار راشد، ركب السيارة وقبل أن يغلق الباب خاطب أبناء عمه آمرا:

«سقيوا الميتة واحيوها».

ثم أغلق الباب وأمر السائق بالتوجه إلى معسكر فلج القبائل.

كانت الشمس قد انسحبت من الأفق، وحمرة الشفق تحولت إلى الأزرق النيلي، أكملا طريقهما في الظلام الذي لا يخفف من حلكته إلا انعكاس نور مصابيح السيارة الأمامية على ذرات الغبار المتطايرة بكثافة أمامها.

21

كان أول المستيقظين، جلس على فرشته وأجال بصره في المكان، فرأى الرجال من حوله ما زالوا نياما، خليفة ينام بعينين نصف مغمضتين وأبوه كذلك، أما هلال فكان ينام وقد غطى قدميه بشرشف ويترك بقية جسده للهواء، سنان ينام على ظهره بفم مفتوح وشخيرعالٍ. كل على فرشته متوسدا ذراعه أو مصره أو وسادة من النايلون المحشوة بالخرق ومرسوم عليها وورود كبيرة فاقعة اللون.

كانوا خمسة رجال يسكنون بيتا قديما من الطين، في حي يمتلئ بالغرباء من أمثالهم، حي من أحياء الفقراء الذين يتقاطرون على الكويت من كل مكان بحثا عن باب رزق وضوء ينير ظلمة أيامهم القادمة.

لا يعرف زاهر كيف بات ليلته الأولى، لكن التعب كان قد تمكن منه فأسلم له أمره غير مكترث بالحرارة الخانقة، وغير منتبه للأصوات التي تصدر عن الرجال، ألقى بجسده في ركن من أركان السطح ونام. استيقظ فنظر حوله، ثم قام من مكانه، ومشى بين الأجساد المتناثرة على السطح وهبط إلى الكنيف ليقضي حاجته. الشمس لم تشرق بعد لكن نورها المتسرب

من أفق آخر كان قد بدأ بتخفيف الظلمة، عرف أن الفجر قد أذّن وإن لم يسمعه، توضأ وصلى على أرض الحوش وإن لم يستدل على القبلة.

أقام الصلاة وقبل أن ينهي قراءة التحيات الأخيرة هبت عليه نسمة حملت رائحة البحر فأيقظت حواسه كلها دفعة واحدة.

يذكره الفجر بأمه، وصوت طحنها حبات القهوة في طرف الحوش، رائحة خبزها وهي تبسط عجينه الرقيق على سطح الحديدة الساخنة، وتتركه حتى تنضجه الحرارة فتستوي خبزة رقيقة كأنها ورقة، ثم تنقفها بسكين صغيرة، وتدهن وجهها بالسمن، ثم تنثر عليها رشة خفيفة من السكر.

عندما كان صغيرا كان يحب مراقبتها وهي تفعل ذلك، يقرفص على الأرض إلى جانبها، ويراقبها بعينين مفتوحتين، وفم يسيل لعابه من اللذة المنتظرة، لكنه كبر فصار يحب النوم أكثر ولم تعد رائحة الخبز توقظه.

الآن يكاد يشم رائحة قهوتها وخبزها، يكاد يسمع صوتها تناديه لتعطيه الخبزة الأولى.

يكاد الشوق إليها أن يغلبه، وتكاد دمعة أن تغافله فتسقط، لكنه رجل «والرجال لا يبكيهم الشوق» يقول لنفسه، لكن دمعته سقطت مع ذلك فمسحها بسرعة خشية أن تفضح ضعفه أمامه قبل الآخرين.

يتذكر ملمس أصابعها على وجهه وهي تودعه، وعينيها وهما تقتفيان أثر خطوته في السكة.

كان يمشي مبتعدا مع أبيه وهي واقفة عند الباب لا تغادره، يكاد يراها الآن في المكان ذاته لم تتحرك منذ أن تركها وراءه تنتظر أن يعدل عن رأيه فيعود.

لكنه لم يستدر ولم يعد إليها... أكمل طريقه.

كان يعرف أنها اختارت أن تقسو على نفسها لأجله، كان يعرف أنها ما أفلتته إلا حبا، وكان يعرف أيضا أنه ما كان له من بد... يردد بين نفسه وبينه: «ضاقت البلاد علي يا أم وكل خياراتي أذى».

أيبقى لأجلها أم يرحل لأجله؟

ورحل، عزم ورحل، تركها وراءه ورحل.

واسى نفسه بأنها ستعتاد غربته وبعده وأنه لابد عائد إليها في الإجازات، وربما متى ما أنهى تعليمه ووجد له وظيفة أرسل في طلبها وأبيه، لكن هل ستقبل أن تأتي معه؟ هل ستقبل أن تمضي من غربة إلى غربة، وهي التي لم تزل تفيض بالحكايات والدموع كلما ذكرت السراير.

يتمنى لو يستطيع أن يعود لمجالستها اللحظة فيخبرها بما رآه من الكويت منذ أول نزوله من الباخرة حتى وصوله إلى هذا البيت؛ فرضة عامرة بالمراكب والبواخر، بيوت كثيرة وعمارات قائمة من الإسمنت، شوارع واسعة والكثير من السيارات وبأشكال وألوان مختلفة.

الناس في وفرة هنا، تدل على ذلك ملابسهم وسياراتهم وحتى طريقة كلامهم ومشيتهم، يمرون بك فلا تجد فيهم انكسار العوز والمرض. الناس هنا لا يرونك، ينظرون إليك خطفا ويمضون، وكأنك لم تشغل فراغا في المكان، يتجاوزونك وكأنك لم تكن.

يسمع صوت قدمي خليفة الهابط لتوّه من السطح والمتجه إلى الكنيف، يسمع أصوات الرجال المستيقظين الواحد إثر الآخر، الهمهمات، صوت تمطيهم، والله الذي يستفتحون به أفواههم في الصباح.

يراقب نزولهم السلم الخشبي الواحد تلو الآخر، وقفتهم في طابور الكنيف والفوط على أكتافهم، يخرج خليفة فيدخل أبوه، تظهر علامات

الاستعجال على هلال لكنه لا يجد بدا من الانتظار، يخرج ناصر فيدخل هلال، ويبقى سنان وحيدا وشبه نائم في وقفته.

اقترب من العم ناصر وسأله عن مكان المطبخ فأشار إلى ركن في طرف الحجرة به موقد وحوله علب صغيرة من المعدن وبعض أكواب وصحون وملاعق.

هفت نفسه لفنجان قهوة لكنه عندما فتّش العلب لم يجد حبوب القهوة أو بناً، بل وجد شايا وسكرا ومسحوقا أبيض قرأ على علبته التي رسم عليها صورة بقرة وخلفية مروج خضراء أنه حليب مجفف، يأتيه صوت سنان يأمره بالتخلي عن مكانه قرب الموقد، يزيحه ممازحا ويقول: «الشاهي شغلتي أنا».

يجلس الرجال الخمسة حول صينية الإفطار التي أعدها سنان، أكواب الشاهي وخبز طويل لين ومنتفخ سماه سنان (الصمون) يراهم يغمسونه في الشاي فيفعل مثلهم.

بعد الإفطار يذهب هلال إلى عمله في السوق، أما البقية فيأخذون طريق السيف مشيا باتجاه المستشفى.

كان زاهر يمشي معهم وعيناه ترصدان الحياة الجديدة من حوله، حركة السيارات في الشارع المسفلت العريض والمظلل بالشجر، المباني ويافطات المتاجر، المقاهي ورائحة التبغ التي تنتشر في الهواء، كان كل شيء هنا طازجا ولامعا، تفوح في المكان رائحة الطلاء ورائحة القار ورائحة البحر.

وصلوا المستشفى، فوجده مبنى كبيرا من طابقين، له شرفة عريضة، وللشرفة سقف تحمله أقواس عديدة، مدخله واسع وأمامه تقف سيارة بيضاء كبيرة رسم على جانبها هلال أحمر، لفتت السيارة انتباه زاهر فقال له سنان: هذه سيارة الإسعاف، تنقل المرضى بأمراض خطيرة والمصابين في الحوادث.

دخلوا المستشفى فوجد مدخله واسعا ونظيفا، والناس تجلس على كراسٍ طويلة صُفّت إلى جانب بعضها بعضاً، جدران المستشفى بيضاء وللأرضية لمعة ورائحة نفاذة.

مشوا في الردهة الواسعة ثم انعطفوا جهة اليمين، وجدوا غرفة تعلو مدخلها يافطة كتب عليها (قسم السجلات) هناك فارقهم سنان وذهب إلى وظيفته في عنبر الرجال، ودخلوا هم وراء العم ناصر إلى الغرفة حيث جلس هو خلف واحدة من الطاولات؛ فجلسا أمامه على كرسيين متقابلين، يقلبان نظرهما في الغرفة المكتظة بالملفات والأوراق، أشار العم ناصر إلى الآلة الطابعة والأوراق الكثيرة التي على طاولته، شرح لهما عمله كطباع ومسجل لملفات المرضى، أخبرهم عن نظام الملفات الطبية، دهشا عندما عرفا أن لكل مريض رقما، وملفا يكتب فيه كل شيء عنه، حتى الأدوية الموصوفة له.

زاهر لا يتذكر أنه قد دخل مستشفى من قبل؛ إلا عندما كان يزور خاله في عنبرالعلاج ببيت الفلج، ولم يقترب من مستشفى السعادة في مسقط إلا مارا في السكك التي تحاذيه. فقد كانت أمه تداويه إذا ما أصابه عارض، تعرف الوصفات كلها، وتحتفظ بملفه في ذاكرتها وحدها، تعرف في أي سنة أصيب بالحصبة والملاريا، وكانت تعرف كيف تعالج مرض الحلق، وكيف تخفف عنه الحمى. تعالجه بأعشابها ومراهمها وآياتها التي لا تكف عن ترديدها عند رأسه عندما يمرض.

بعد قليل دخل رجل يلبس بدلة زرقاء، وتبعه آخر يلبس بدلة سفاري بنية، وقف لهما العم ناصر وقدمهما باحترام شديد، رئيس القسم، الأستاذ عزيز ريان، فلسطيني من نابلس، وزميله الأستاذ أحمد شرف على المكتب الذي يقابل مكتبه، باكستاني من كراتشي.

ابتسم لهما الأستاذ عزيز ابتسامة واسعة كشفت عن أسنان صغيرة تخالط بياضها مع لون التبغ ودعاهما للجلوس، ثم بعد أن اتخذ ورفيقه مكانيهما، ضغط زرا صغيرا على الحائط خلفه، فجاء رجل ضئيل في ثياب بيضاء سألهم عمّا يشربون، طلب السيد عزيز قهوته، أما الأستاذ شرف والعم ناصر فطلبا شايا، ثم نظر إلى الشابين وأعاد السؤال فتبادلا النظرات ولم يجيبا، ابتسم السيد عزيز لهما وطلب لهما كولا، لم يسمعا بالكولا من قبل لكنهما لم يعترضا.

وصلت قناني الكولا فارتشف زاهر من السائل الأسود رشفة صغيرة، بينما كان خليفة يراقبه، ابتسم زاهر وتبادل نظرة مع صديقه، ثم ما لبثا أن أفرغا القنينتين في جوفهما، وأتبعا ذلك بتجشؤ عالٍ أضحك الرجال الثلاثة.

قضى زاهر وخليفة غالب الصباح في مكتب التسجيل يراقبان الحركة فيه، دخول الموظفين من أقسام أخرى وخروجهم، الأوراق الكثيرة التي تفرز وتوضع في رزم ثم توضع في الملفات، القلم الذي يضعه الأستاذ أحمد شرف وراء أذنه ثم يبحث عنه على سطح الطاولة أو تحتها، أدراج الخزانات التي تقفل وتفتح، الملفات الداخلة والخارجة، الحركة التي لا تهدأ في المكان.

حتى تعالى صوت أذان الظهر فاستأذن العم ناصر من رئيسه، وأخبره أن عليه أن يصحب الشابين إلى دائرة المعارف ليسجلهما في المدرسة المتوسطة قبل انتهاء الوقت.

22

على الجدار عُلّقت خارطة، كتب أعلاها «خارطة الوطن العربي السياسية» وفي زاوية على اليسار مقياس رسم.

كان لكل بلد لون، الكويت والأردن والسودان وقطر وتونس برتقالية اللون، والسعودية وسوريا وليبيا وموريتانيا والصومال خضراء، واليمن والعراق والجزائر وفلسطين صفراء، أما عمان وقطر والبحرين ومصر وتونس ولبنان وجيبوتي فقد لونت مساحاتها بلون وردي باهت.

أضفت الخارطة اللون على جدران الصف البيضاء، فكانت أنظار الطلبة تتحول إليها كلما أصابهم الملل، وبدأوا يبحثون عن بهجة أو حلم صغير يتمردون به على الدرس.

في السنة الدراسية الأولى في مدرسة المثنى، كانا يجلسان دوما في الصف الخلفي، وغالبا إلى الطاولة نفسها، وكلّما نقلهما الأساتذة وفرّقوهما؛ يجدونهما وقد عادا في الحصة التي تليها إلى مكانهما نفسه.

بقيا متلازمين في الصف والحوش حتى فرقتهما هواياتهما، فانضم زاهر إلى جماعة الخطابة والصحافة المدرسية، وانشغل خليفة برياضة كرة الطائرة ونشاطه في جماعة الرحلات.

كانت الحصة الأخيرة يوم الخميس هي حصة النشاط، لكن زاهرا كان ينشغل بالنشاط في الفسح أيضا، وأحيانا يتأخر بعد المدرسة مع الأستاذ أحمد خليل مشرف الصحافة المدرسية، كي يجهزا صحيفة الحائط في موعدها.

- خطك بديع يا زاهر، واضح أنهم في مسقط بيركزوا كتير على دروس الخط.

- لا أستاذ، لكن والدي معلمني الخط من قبل أن أدخل السعيدية، المدرسة يعني.

- ما شاء الله، وشو بيشتغل السيد الوالد، معلم؟

- والدي يشتغل كاتب في برزة السيد.

- شو بيعني برزة السيد؟

- البرزة...

حاول زاهر أن يشرح للأستاذ معنى الكلمة، ثم توقف عندما لاحظ علامات عدم الفهم بادية على ملامح الأستاذ، عرف أن المشكلة ليست في فهم الأستاذ، ولا في قدرته على الشرح؛ ولكن لأن ما يقوله بدا غريبا تماما عليه.

- والله يا ابني أنت هيك رجعتني لأيام الخلفاء وكتاب الدواوين، مش مهم، المهم أنك ورثت عن الوالد هالخط البديع، ولّي رح يخلي مجلة المدرسة تحفة فنية تخلي الواحد يوقف قدامها مش بس ليقرأ، لا، بدهم يوقفوا قدامها منجذبين لها الخط إللي أنا شخصيا ما شفت مثله من قبل.

كان زاهر يعرف أن الاستاذ أحمد خليل من حيفا، وفي إحدى المرات، وهم منكبين على إعداد مجلة الحائط، سأله عن بلاده، فتوقف عن العمل،

وغادر الصف مسرعا إلى غرفة المدرسين، وأحضر معه لفافة لخريطة قام بتعليقها بمساعدة الطلبة على الجدار.

كانت خارطة فلسطين طولية، تمتد كخنجر، أشار الأستاذ بعصاه إلى نقطة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ليست ببعيدة عن الحدود مع لبنان.

«هي يا شباب حيفا، وحيفا مش بس أجمل مدينة بفلسطين كلها، لا، حيفا أجمل مدينة بالعالم، احتلها اليهود في نيسان 1948م ودخلوا أحياء العرب وذبحوهم، إللي قدر يهرب هرب، وإللي ما قدر انذبح بالسكاكين ولا انقتل بالرصاص».

خُيّل لزاهر أنه رأى الدموع تتجمع في عيني الأستاذ، فغض بصره، لكن الأستاذ ما لبث أن بلع وجعه وغيّر حديثه.

«اسمعوا شباب، بما أنه زاهر سألني عن مدينتي حيفا، فشو رأيكم نخلي العدد القادم من مجلتنا عن مدن فلسطين إللي احتلت في سنة النكبة».

«زاهر أنت طبعا الخطاط بس بدي إياك كمان تجمع المادة الرئيسية وتجاوب عن هذا السؤال، كيف سقطت حيفا في يد الصهاينة؟»».

بدأ الأستاذ خليل بوضع مخطط العدد القادم من المجلة على ورقة في دفتره الأزرق الكبير.

«وأنت يا عبدالرحمن رح تجمع كل الصور إللي ممكن تلقاها عن فلسطين ومدنها، أما أنت يا هاشم فبدك تبحث في المكتبة وتحضر المادة عن تاريخ فلسطين، بدك تبحث عن تاريخ فلسطين من أيام الانتداب إلى اليوم، وبعدين بدنا نقسمها في ثلاثة أعمدة كالعادة، أما أنت يا نايف فبدك ترجع لديوان إبراهيم طوقان وتختار مقاطع معبرة عشان نحطها في الجزء الفوقاني من المجلة، آه هون، وين ما عادة بنحط حكمة العدد، هالمرة على

الجانبين، هون وهون، بدنا نحط أبيات من شعره، وبقترح عليك أنه يكون من قصيدته الشهيد».

«حاضر أستاذ».

نطق الطلبة عبارتهم في صوت واحد، فابتسم لهم الأستاذ:

«وهلأ يالله كل واحد يرجع لشغله، بدنا نخلص هالعدد اليوم ونعلقه بكرة أول الصبح، يالله يا زاهر، شد حيلك يا فنان».

انشغل زاهر في الأسابيع التي تلت بالبحث عن إجابة للسؤال الذي كلفه الأستاذ به «كيف سقطت حيفا في يد الصهاينة؟» ووجد نفسه يقضي غالب الفسح في مكتبة المدرسة، يبحث ليس فقط عن التاريخ الحديث لفلسطين؛ بل وعن تاريخ الوطن العربي كله، ومن كتاب إلى كتاب، ومن فصل إلى فصل، ومن باب إلى باب، صار يرى الخريطة المعلقة أمامه في الصف على كثرة الألوان فيها باهتة، وكأنها حجبت عنه بسحابة خفيفة.

أصبحت الأسئلة أكثر من الإجابات، كيف؟ ولماذا؟ والسؤال الأهم والأكثر إلحاحا «ما العمل؟»

كان يجلس إلى الأستاذ خليل ويسأله السؤال تلو السؤال، وكان الأستاذ خليل يجد فيه طالبا نجيبا ومحبا للمعرفة، وصار بعد مدة يطلق عليه لقب السندباد.

«مو أنت من عمان؟ وعمان هي بلد السندباد، والسندباد بيسافر من بلد لبلد ورا المغامرة والتجارة، أنت هيك بالضبط، لكنك ورا المعرفة بتسافر من كتاب لكتاب ومن سؤال لسؤال».

«أنا يا ابني ما عندي إجابة على كل هالأسئلة، لكن ما بظن أن فلسطين بدها ترجع إلا لو اتوحد العرب، آه، لو صاروا كلهم يد وحدة وقوة وحدة،

أكيد بيخاف منهم الصهاينة والعالم كله، بس ما دام فشلت الوحدة بين مصر وسوريا كيف بيتوحدوا؟ هاه خبرني، أقلك، بينه أن فلسطين ما بيحررها غير أهلها».

«آه، أكيد أنا بحلم أرجع على حيفا، على بحرها وميناها وبيتنا في محطة الكرمل، بتعرف الإنجليز عملوا محطة سكة الحديد في 1918 وأبي كان بيشتغل هناك، بس الصهاينة دمروا المحطة في ستة وأربعين، وقعد أبي في البيت من دون شغل، بس مشينا الحال، لكن في ثمانية وأربعين ما كان قدامنا غير الهرب من عصابات الهاجانا، كانوا بيدخلوا البيوت بيرشوا الرصاص رش، وبيقتلوا الناس إللي ظلت وما هربت. في ناس من الخوف تركت حتى ولادها وراها وهربت، نحن اتخبينا في الحسبة ومنها طلعنا على الميناء مع إللي طلعوا على لبنان».

كان الأستاذ خليل كلما سأله زاهر سؤالا عن أي شيء يعود إلى ذكر فلسطين ويستفيض بالحديث ويفيض بالوجع.

أطلق خليفة لقب (الفلسطيني) على زاهر، ليس لكثرة مخالطته للطلبة والأساتذة الفلسطينين فحسب، وليس لملازمته لأستاذه في المدرسة أو لمديحه أطباق المجدرة والمسخن والمقلوبة التي كانت (أم ياسين) زوجة الأستاذ أحمد تعدها احتفاء به عندما يزورهم في البيت؛ بل أطلقه عليه عندما صار ياسين، ابن الأستاذ أحمد، رفيقه الأقرب، وصار يرافقه في العطلات إلى سينما الأندلس ومقاهي شارع تونس، واستبدل بالدشداشة البنطلون والقميص، وصارت الكلمات الفلسطينية تدخل في كلامه دون أن ينتبه لها.

كان خليفة والعم ناصر وهلال وسنان يراقبون التغيرات التي طرأت على سلوك زاهر، ثم بدأوا يدهشون لسعة اطلاع زاهر على تاريخ القضية الفلسطينية، وترديده الدائم أن فلسطين لن تتحرر من الصهاينة إلا بتحرر

الأقطار العربية كلها، والخليج خصوصا، من هيمنة الاستعمار، ومع أن هذا الحديث كان يروق لسنان وهلال؛ إلا أنه كان مقلقا للعم ناصر، فمع إيمانه بالحركة القومية وقضية فلسطين، وحبه لعبدالناصر ولهفته على خطبه؛ إلا أن زاهرا في نظره ما زال صغيرا على هذا كلام، لكنه مع ذلك لم يبدِ شيئا مما كان يدور في خاطره، ولم يذكر أيا من ذلك في الرسالة التي بعث بها إلى علي ردا على رسالته المعزية له في وفاة والدته.

مع الوقت كانت حماسة زاهر القومي تزداد فورانا، والفجوة بينه وبين خليفة تتسع أكثر، فما عادا يتشاركان في أي من الاهتمامات، وأصبح لكل واحد منهما رفاقه، وأماكنه التي يذهب إليها، ولم يعد يجمع بينهما إلا البيت الذي يسكنانه، والدرب الذي يمشيانه معا إلى المدرسة، صامتين أو متحدثين في أي شيء آخر ما عدا السياسة، تلك التي ما كان زاهر ليطيق بعدا عنها.

23

لم يكونوا يعرفون أكثر مما تبثه إذاعة صوت العرب، التي كان الجميع يتحلق حولها ليل نهار في مدن الوطن العربي وقراه، منتشين بصوت أحمد سعيد والمارشات العسكرية، وخطب الزعيم والبيانات التي كانت تتوالى معلنة إسقاط طائرات العدو الصهيوني بالعشرات.

في تلك الأثناء وعلى امتداد أيام الحرب الستة كان الأساتذة وطلبتهم في مدرسة المثنى لا يكادون يفارقون الراديو، فتمتد الحماسة من غرفة المعلمين إلى الصف ومن الصف إلى حوش المدرسة في الفسح.

منتشين بالنصر القادم، فرحين بعودة فلسطين التي باتت على مرمى غارة أو قذيفة، تتعالى الضحكات ويكثر المزاح وتتحول كل الدروس إلى فلسطين وعبدالناصر، وكلما الضحكة كانت الأعلام ترفرف في سماء المدرسة، علم فلسطين وعلم مصر وعلم الكويت.

في تلك الأيام كان زاهر يسهر مع أصدقائه الذين اتخذوا من مقهى (القدس) في (حولي) مركزا لهم، يجلسون فيه إلى من هم أكبر سنا، وإلى صوت أحمد سعيد، وإذاعة صوت العرب التي لا تقطع بث الأغاني الوطنية؛

إلا لبث البيانات الواصفة لتقدم الجيش المصري والجيوش العربية في ساحة الحرب، كانوا جميعا في النشوة.

لكن، في الأيام التي تلت النكسة، كان الجو في المدرسة مشحونا بالتوتر والمرارة وعدم الثقة، كان الأمل الذي كبر في قلوب الأساتذة والطلبة الفلسطينين بالذات قد تلاشى، وحل اليأس بثقله وظلمته محله.

صارت كل العيون وجعا، فتجنبت العيون العيون، وحل الصمت.

وحتى الدموع بدا وكأنها تعبت من التشبث بالحواف، فما عاد يخفيها أحد، ولا يمنعها من السقوط أحد.

في تلك الأيام تساوت القلوب في الحزن، وكالبقية حار زاهر في مشاعره، لم يفهم، كيف لمثل هذه الهزيمة أن تحدث؟ كيف كانوا منتصرين في لحظة ومسحوقين في اللحظة التي تليها؟ كيف كان النصر قاب قوسين ثم كيف صار النصر أكذوبة؟ كيف تسقط القدس كلها وتحتل سيناء والضفة الغربية والجولان؟ أين كانت الجيوش العربية؟ أين شعارات الوحدة والقومية؟ أين الرجال؟

في المدرسة لم يقبل زاهر استسلام الأستاذ أحمد ويأسه التام من رجوع حيفا والقدس ونابلس، كما لم يقبل سقوط الضفة والجولان واحتلال سيناء وضياع القدس.

لم يقبل، لكنه أيضا لم يكن يعرف ما هو الحل؟ وكلما ذهب بسؤاله إلى أستاذه؛ وجده منحنيا على خريطة فلسطين يدرسها، وكأنه يبحث عن شيء ما قد ضيّعه.

لقد ضيّعوا البلاد، يرد عليه، ضيّعونا.

يصفع رأسه... راحت حيفا... راحت القدس... راحت فلسطين.

يذهب إلى البيت فيجد الجميع يدخلون ويخرجون دون حضور، ويأكلون دون رغبة، يتجنبون الكلام ويتجنبون النظر إليه، والراديو الترانزيستور الذي كان مفتاح العالم قبل أيام اختفى، ولم يعد يُسمع له صوت.

يذهب إلى صديقه فيجد أم ياسين ترتدي السواد، وياسين غارق في كتاب لا يقرؤه، وعندما يرفع رأسه يجد عينيه حمراوين من كثرة البكاء.

«بينا رح نعيش طول عمرنا في المنافي والمخيمات يا زاهر، إحنا بدنا نظل نعيش في التيه من بلد لبلد، نحن مش همه، فاهم؟».

«خلص، ما في حل، كان الحل الأخير بيد عبدالناصر، وهي عبدالناصر ضيعنا».

هل تلاشت فلسطين حقا؟ ولن يعود الأستاذ أحمد إلى بيتهم في حيفا؟ هل ضيعهم عبدالناصر حقا؟

كان زاهر يمتلئ بالأسئلة، وأسئلته تفضي إلى اليأس، ثم بدأ اليأس بالتحول إلى غضب، غضب صامت ينمو في الظل حيث لا يراه أحد.

* * *

أغلقت المدرسة أبوابها وشعر زاهر بابتعاد ياسين والأستاذ أحمد، صار حديثه وأسئلته لا تروق لهما، ثم صار هو سريع الغضب ويتجنب الحديث والنقاش.

نصح العم ناصر زاهرا بالعودة إلى مسقط لزيارة أهله فطابت نفسه لذلك، أراد أن يبتعد، أراد أن يذهب إلى أمه لعل طمأنينتها تعيد شيئا من الطمأنينة لروحه.

لكن خليفة لم يكن رفيقه هذه المرة، فقد وجد له أبوه وظيفة في المستشفى يعمل فيها طوال فترة الصيف كمساعد لهم في قسم السجلات.

استقل زاهر الباخرة وحيدا وخاليا إلا من غضبه وصندوق ملابسه، ودّع الكويت وكأنه لن يراها ثانية، مع أنه ما كان في نيته إلا العودة بعد شهرين وإكمال دراسته.

كان مكانه على سطح المركب كما في رحلته الأولى، وكان السطح مكتظا كالعادة بمسافريه الفقراء المكشوفين للشمس والمنكشفين على البحر.

في الليل لم تكن هناك مشكلة كبيرة، لكن في النهار وتحت الشمس وفي وسط البحر، كان عليه أن يجد الظل ليحتمي به من الشمس الساطعة على الزرقة بكل جبروتها.

يتنقل طوال النهار من مكان إلى آخر، متتبعا حركة الشمس وسقوط الظل على جدران الكبينات ليحتمي بها، حتى وجد نفسه يجلس إلى جانب رجل كان قد لمحه عند صعودهم السفينة يحمل ثيابه في صرة، ويرتدي ثوبا كويتيا وشماغا أبيض ملفوفا على رأسه على طريقة البحارة.

لم يستطع تقدير عمر الرجل، ربما كان الرجل في مثل سن والده، لكنه كان أنحف منه بكثير وبشرته أغمق، وعندما يبتسم تظهر خطوط عميقة عند جوانب عينيه، وتختلج حافة شفته اليسرى بتواتر.

سلّم عليه ثم جلس إلى جانبه، كان الرجل يجلس طاويا رجليه تحته، ومنهمكا في تفتيت التبغ في ورقة صغيرة، ما لبث أن لفها ووضعها بين شفتيه وأشعلها.

عب الرجل نفسا طويلا من لفافته، وأغمض عينيه لوهلة، ثم ما لبث أن فتحهما، وظل يحملق في البحر.

لم يتعود زاهر رائحة التبغ ولا يحبها، لكنه مع ذلك بقي جالسا في الظل إلى جانب الرجل، وإن أشاح بوجهه إلى الجهة الأخرى متجنبا الدخان الذي

كان الهواء يحمله ناحيته.

ثم جاءه صوت الرجل هامسا، يدندن بأغنية بصوت به بحة خفيفة، يغني وكأنه يناجي البحر وحده، فأصاخ زاهر السمع:

«يحيى عمر قال قف يا زين

سالك بمن كحل أعيانك

من علمك يا كحيل العين

ومن ذا الذي خضب ابنانك

من شكلّك حرف في حرفين

ومن شك لولك ومرجانك

عليش يا ناقش الكفين

سالك بحسنك وإحسانك».

عرف زاهر الأغنية، التي كان سنان بن خميس يحب أن يغنيها، عندما يسهرون جميعهم فوق السطح، حول منقل الجمر الذي يعدون عليه الشاهي في ليالي الشتاء، فابتسم وتمتم بعض كلماتها، فنظر إليه الرجل مشجعا فعلى صوته قليلا:

«حملت يحيى عمر حملين

من صار تعبان من شانك

ودي فوصولك ولو زامين

واحط يدي على متانك».

عبّ الغريب مجّة من لفافته، ونفث دخانها في الهواء، ثم التقط خيط

الغناء ثانية وأكمل:

«لي شهر في شهر في شهرين

وأنا مناظر لبستانك

لا ذقت حبة ولا ثنتين

نهبت خوخك ورمانك».

تحمس زاهر وأكمل وراءه:

«والورد شفته في ذا الخدين

وهو مطروح على اوجانك».

ثم ما لبث أن انضم له الغريب في الغناء وأكملا بصوت واحد:

«يا مركب الهند بو دجلين

يا ليتني كنت ربانك

بعبر بك البر والبحرين

وبنزل المال في خانك

وبانقسم الفايدة نصفين

والله يخون الذي خانك

والله يخون الذي خانك

الله يخون الذي خانك».

ظل الرجل يكرر المقطع الأخير أكثر من مرة، حتى بعد أن كف زاهر عن الغناء، وما إن صمت حتى بادره زاهر بمد يده:

- أنا اسمي زاهر بن علي.

- أنت عماني؟

- نعم عماني، ومن مسقط، وأنت؟

- وأني عماني، من مسقط، وصور، ونزوى، وظفار...

- ما يستوي! كيف تكون من كل مكان؟

- يستوي، يوم تكون عماني بالصدق؛ تكون من كل عمان.

- فهمتك، أنت ما تريد تخبرني من هين، لكن أنا عرفتك.

- عرفتني؟

- نعم عرفتك، أنت من صور.

- صحيح، أَنِي مولود في صور، وهَلِي كلهم مولودين فيها، لكن كيف عرفتني؟ من مركب الهند ولا من سالم راشد الصوري؟

- نعم، ومن هرجتك، ذكرتني بعمي سنان بن خميس.

- سنان بن خميس الغيلاني؟ إللي يشتغل في المستشفى؟

- نعم، نحن نقيم في بيت واحد.

- والنِعْم بالريال، راعي شيمة.

انزاح الظل فقامت الشمس على رؤوسهم مرة أخرى، تحركا من مكانهما، وتمشيا معا على سطح الباخرة، حيث كان الناس أخلاط من عرب، وبلوش، وهنود، بعضهم نيام، وبعضهم يجلس في حلقات تحت الشمس يشربون القهوة أو يتكلمون.

- تدرس يا زاهر في الكويت ولا تشتغل؟

- أدرس في المتوسطة.

- زين... زين، ادرس تراه العلم زين، على الأقل يعرف الإنسان كيف يرد الظلم عن عمره، إن كان ما بالفعل والقوة على الأقل بالكلام.

- إيش فائدة الكلام؟ قبل الحرب ووقت الحرب قالوا كلام ونحن صدقنا، صدقنا عبدالناصر وصدقنا صوت العرب، وانهزمنا، انهزم العرب وضاعت فلسطين و...

سكت زاهر فجأة وكأنه انتبه إلى أن الكلام قد أخذه بعيدا، لم يكن يعرف أن ما خبأه في قلبه طوال المدة الماضية كان سيخرج بكل تلك العفوية، بين يدي هذا الرجل الغريب الذي يلتقيه لأول مرة، ولا يعرف حتى اسمه.

- صدقت، يمكن انهزمنا، لكن... الحرب ما انتهت.

- كيف ما انتهت؟ والصهاينة ثبتوا رجولهم في الأرض، احتلوا القدس كلها، والجولان، وسيناء، وأخذوا الضفة الشرقية.

- صحيح، بس هذا ما معناته نهاية الحرب.

- كيف وعبدالناصر وحده قر بالهزيمة وقال قدام الخلق أنا المسؤول.

- عبدالناصر غرته الناس وخدعته.

- كيف يعني الناس غرته؟

- حب الناس يخدع، الواحد منا يوم الناس تحبه حب العميان، وترفعه فوق فوق، وكل ما نطق بكلمتين صفقت له، وهتفت له، أكيد بيظن عمره فوق الناس كلهم، ويمكن بيشوف نفسه مثل ما شافوه الناس رب، وهنا يبدا يغلط، يقرر، وينفذ، وما يشاور حد، وإن شاور ما سمع، لأن الناس بْتَبْعَه، ولو عَقّْ بعمره في البحر بيعقوا عمارهم وراه.

- ونحن سوينا كذاك بالضبط، عقينا عمارنا في البحر وراه. صدقناه والتو انهزمنا... انهزم العرب كلهك بسببه.

- اسمعني، نحن ما انهزمنا بسبة عبدالناصر، لكنك غضبان منه لأنك مثل غيرك سويت منه رب، وحسبت أنه بيديه كل شيء، النصر، والعزة، والكرامة، والمستقبل، والتحرير، كل شيء خليناه في يد رجال واحد، هو يفكر عنا وهو يقرر عنا وهو ينفذ عنا، نحن غرينا عمارنا، وحملنا الرجال فوق طاقته. ثاني شي، الحرب ما معركة وتنتهي، والهزيمة ما تكون هزيمة لين نستسلم نحن ونقبل، الهزيمة ما تكون هزيمة يا زاهر لين نيأس من النصر ونقول بس.

هنا كسا الغضب صوت الرجل بعض الشيء فارتفع، ثم ما لبث أن استدار وأمسك زاهرا من كتفيه وأكمل كلامه:

- اسمع يا زاهر، أعرف انك بعدك صغير، لكن...

- أنا ما صغير.

- إللي أبا أقوله، إنه إذا القومية ما نفعت، وعبدالناصر انهزم، لا بد من وجود طريقة ثانية، يمكن لازم الواحد يغير تفكيره، يمكن القومية ما هي الطريق، يمكن شي طريق غيره، أما نيأس، ونجلس نبكي فلا، لا، تفهم؟ كان يأسنا، واستسلمنا، خلاص، بنذوب مثل ما يذوب الملح في البحر، ما يبقى لنا لا شكل، ولا هيئة، ولا وجود ولا أثر، غير طعم يشق اللسان شق.

- وإيش هي الطريقة الثانية؟

- أني بروحي ما أعرف، وما متأكد من أي شيء لين التو، ولكن كل بو أعرفه أنه لا بد هناك طريقة، وأعرف أن لكل سؤال جواب، فلا تتوقف عن السؤال، واسأل نفسك قبل لا تسأل غيرك.

أحب زاهر كلام الرجل فلازمه ما تبقى لهما من الوقت قبل الوصول إلى دبي، نقل صندوق ثيابه معه، وصارا يأكلان مما تزودا به، تقاسما الخبز الذي جف، وتمر البصرة الذي أحضره الرجل معه، بعد يومين وصلوا إلى دبي، وعندما حان وقت نزول الرجل، دفعته رغبة قوية لمعانقته؛ لكنه اكتفى بمصافحته، والضغط على كفيه وهو يودعه، ثم انتبه إلى أنه لا يعرف اسم الرجل فسأله، ابتسم الرجل وقال له: «اسمي خاطر، خاطر بن عبيد الفارسي، وكان وصلت صور؛ دورني في العيجة، سألهم عني وبيدلوك».

ثم هبط السلم واختفى في زحام الميناء.

* * *

لسكك مسقط قبيل الظهر رائحة لا يخطؤها أنف من تربى فيها، وألف أحوالها وأوقاتها، مزيج من الرطوبة والحرارة ويود البحر ورائحة السمك المقلي، رائحة انضجتها الشمس، وأتون بازلت الجبال.

صادفته عيون تعرفه فحيته، بعضها بالكلام وبعضها بالصمت، غذّ الخطوة إلى البيت دون أن يقف ليحي أحدا، فمنذ أن ترك الكويت تضخم فيه الشوق حتى صار عند وصوله الفرضة لا يطاق.

وصل عند باب البيت فتمهل، يعرف أن أباه في البرزة، وأمه الآن وحدها في البيت تطبخ الغداء، وقف عند الباب يشم رائحة طبخها الذي يصعد في الهواء، يرفع قبضته ليطرق الباب ثم يحجم، كيف هي الآن يا ترى؟ أتعودت غيابه أم ما زال رحيله وسما لم تبرأ منه بعد؟

احتاج لأن يستجمع شجاعته أولا، فأصاخ السمع لخطواتها التي كانت دوما دون صوت، وكأنها إذا ما مشت مشت على الهواء لا على الأرض.

سمع حركة حديد المزلاج، ثم أطلت عيناها من فرجة الباب، بقيت عيناها معلقتان في الفرجة الضيقة بين الضلفة والضلفة، تراه ويراها تفحصه ويفحص عينيها، ولا توسع فرجة الباب أكثر، وكأنها مترددة، تريد ولا تريد أن تصدق أن الذي عند الباب زاهر.

لحظات بقيا عالقين، هو في الخارج وهي في الداخل، ثم دفعت الباب إلى الخلف مرة واحدة، فخطا داخل البيت وصار أمامها كله، بطوله الذي ازداد في الغربة، وبشاربه الذي صار أكثر كثافة، وبتعب عينيه التي ازدادت عمقا.

همست باسمه غير مصدقة، فهز رأسه، وضمها بقوته كلها، وكأنه لن يفلتها أبدا، وكأنه يستجير بحضنها من حزنه ويأسه ومشقة اللايقين.

أفلتها وقبّل رأسها وكفيها، وهي مستسلمة لسيل قبلاته، ولا تكف عن الابتسام، كل شيء فيها كان يضحك خافتا.

يتوقف عن تقبيلها، فتتلمس وجهه بيديها وكأنها غير مصدقة حضوره، تطيل النظر وكأنها تسترجع قسماته الواحدة تلو الأخرى، تشمه بعمق وكأنها تستعيده من غربته نفسا نفسا، ثم تأخذ يمينه وتمشي به وكأنه طفلها الذي ما كبر أبدا، فتُجلسه تحت البيذامة وتضع أمامه دلة القهوة وطبق التمر، تصب له القهوة، وتسأله فيندلق بين يديها بالحكايات، وغرائب ما رأى في تلك البلاد.

عندما عاد علي من البرزة، وجد زاهرا نائما عند قدمي أمه التي مدتهما تحت ظل البيذامة وهي تقص عليه أخبار مسقط وأحوالها، تخبره عمّا جد في بيت الوادي، وعن البيبي وزواج مهرة، وخطوبة سعاد، وتحكي له عن البيوت الجديدة التي صارت تعرفها.

أحس زاهر بدخول أبيه، فهبّ على قدميه خجلا من رقدته عند قدمي أمه، قبّل رأس أبيه وظاهر كفه، ثم فوجئ بذراعيه تمتدان فتلتفان حوله، وتضمانه وكأنهما تتشبثان به، وشعر بدموع أبيه تبلل قميصه، دهشت ريّا من دموع علي التي تراها للمرة الأولى، غضت بصرها فهي تعرف جيدا ما يفعله كتم الشوق بصاحبه.

أفلته علي ومسح عينيه من أثر الدموع، وعاتبه على عدم إبلاغه بعودته، لكنه ما لبث أن نسي كل ذلك وبدأ في إشهار فرحه وسؤاله عن صحته ودراسته وأحواله في الكويت، فحكى له عن الأستاذ أحمد وياسين وعن وجع النكسة، وعن الخذلان الذي سرى في قلوب الناس حتى صار يأسا، أخبره عن المدرسة التي تخلت عن الفرح وعن المقاهي التي فقدت زهوها بعد الهزيمة.

انتبه زاهر لومضة قلق في عيني أبيه فغير مجرى الحديث، صار يتكلم عمّا وجده في الكويت من تقدم، عن مدرسته والأنظمة المتبعة هناك، أخبره عن رفاقه، عن خليفة بن ناصر الذي اختار أن لا يعود معه، عن العم ناصر وهلال وسنان.

يصغي علي لكلام ابنه، يجده قد أصبح أكثر اطلاعا ونضجا، يناقشه في أمور وعلوم لم يطلع عليها، ويكثر من الأسئلة التي لم يجد علي إجابات لها، ولم يسعفه الكلام بالنصيحة، لكنه كان مطمئنا، فقلب زاهر كما بدا له معلقٌ بالعلم والمعرفة، وهذا كان كل ما يهمه.

تجالسهما ريّا، ولا تكترث بالحديث الذي يدور بينهما؛ مادام أنه أمامها تراقب قسمات وجهه، بشرته التي سفعتها الشمس على ظهر الباخرة، صوته الذي صار أكثر ثقة، ذقنه الحليق وشواربه التي لا يحفها كما يفعل أبوه.

ترعى جلساتهما بحنانها وشوقها ولهفتها، ينبهها علي إلى أنها صامتة غالب الوقت، فتقول له: «أنتوا تكلموا، وأنا خلي عيني تشبع من عينه، وأذني تشرب صوته وضحكته».

* * *

عندما وصلوا بيت البيبي، أدخلتهم غزلان حجرة الاستقبال، ثم مضت مسرعة لإخبار سيدتها بأن زاهرا قد رجع، فما كادت أن تمر دقيقة حتى سمع صوت خلخال مزنة في الرواق.

فتحت مزنة باب الحجرة بكل ما في الشوق من اندفاع، ووقفت عند الباب بابتسامتها الساطعة كالشمس.

كانت ترتدي ثوبا من الأطلس الأزرق الموشى بالورد الأحمر والخيوط الذهبية، وكان على رأسها خمار من قماش رقيق ما لبث أن سقط على كتفيها وكشف شعرها ونحرها وشوقها.

ابتسم زاهر لدخول مزنة، وقام من مكانه، وخطا نحو الباب بسرعة، ووقف أمامها لا يقول شيئا وهي لا تقول، ينظران في وجهي بعضهما، ويبتسمان فقط.

رأت ريّا من مكانها كل شيء، عرفت أن المسافة تفضح الشوق، وأن ما بينهما قد تعدى حفظ الآيات، واللعب في البستان.

تضخم الصمت في الحجرة حتى وصل صوت البيبي، فتراجع زاهر عن الباب ورفعت مزنة خمارها وغطت شعرها.

وصلت البيبي عند الباب فالتفتت مزنة فرأت في عيني أمها عتابا وغضبا.

دخلت البيبي فوجدت زاهرا واقفا في منتصف الحجرة فأشرقت ابتسامتها، وهو اقترب منها وقبل يديها ورأسها، فمدت يدها ومسحت بكفها على رأسه، وكتفيه وكأنها تباركه، جلست فأدنته منها بينما نهرت مزنة بنظرة حادة فانسحبت دون أن تقول كلمة.

سألته البيبي عن الكويت وعن رحلته وطلبت منه أن يصف لها البلاد التي مرّ بها، سألته بالتفصيل عن المنامة ومرفئها، ثم أدنت رأسها منه، وكأنها تسر إليه بأمر «أريد أزور هلي، مهرة تزوجت والحين بس أنتظر لين بعد زواج سعاد، كلها كم أسبوع وبتعرس. ويمكن رجعت وياك في نفس الباخرة، ننزل البحرين وأنت تكمل طريقك للكويت. أنت تعرف أنك عندي مثل الولد وما أأمن على نفسي ولا على مزنة أحد غيرك».

فهم زاهر مقصد البيبي فابتسم وأجابها بعينين مشرقتين: وأنا يا خالتي ولدك ومزنة في عيوني، ودام أنكم معي ما بيصيبكم شي بإذن الله.

عندما سمعت غزلان جواب زاهر للبيبي وهي تقدم لهم الشربت، مالت على البيبي وسألتها إن كانت تأذن لها بإعلاء الزغاريد، فأجابتها بوضع إصبعها على شفتيها، فاستبدلت زغرودتها بضحكة عالية كالصهيل.

عندما خرجا من البيت وقاربا الوصول إلى البوابة، استدار زاهر ليفحص النوافذ واحدة واحدة بحثا عن مزنة فلم يجدها.

خبأتها أمها، يعرف ذلك، خبأتها عنه وله.

* * *

في خلوتهما أخبرت ريّا علياً بما لاحظته من لهفة ولدها على مزنة وما وجدته من تلميح البيبي وجواب زاهر عليها، واتفقا أن تتقدم ريّا بالكلام عند البيبي بعد أن يتيقنا من رغبة زاهر وجديته.

لم يطل انتظارهما كثيرا، فعند العشاء طلب زاهر منهما أن يخطبا له مزنة قبل سفره، على أن يعود بعد أن ينهي دراسته، ويجد لنفسه وظيفة في الكويت وبيتا مستقلا، فيتزوجها ويأخذها معه.

لم تعلق ريّا على خطة زاهر، واعتمدت على أنها ستقدر على إقناع مزنة بأن تطلب منه أن يستقر في مسقط، ويعمر بيته فيها.

خطبت مزنة لزاهر، وصار يقضي ما تبقى له من الأيام في مسقط مترددا على بيت الباغ فيمشيان بحرية أكثر في البستان، وإن كانت غزلان تمشي خلفهما إلا أنها كانت تتعمد غض الطرف إذا ما تلامس كفاهما بعفوية أثناء المشي.

وعندما زارهم قبل سفره بيوم، تعمدت غزلان أن تتركهما وتعود إلى البيت لتحضر لهما الماء بعد أن لمّح زاهر إلى أنه يشعر بالظمأ.

وقفا عند شجرة الرمان التي كانا يتقاسمان ثمرها وظلها وهما ما زالا طفلين بعد، قالت له مزنة وهي متكئة على الجذع:

- أخاف تروح وتنساني، أو ما ترجع.

مد زاهر يده ومسح على وجنتيها ببطء، فنكست رأسها، وضع إصبعه تحت ذقنها فرفعه:

- بروح، لازم أروح. بس أكيد لازم أرجع وآخذش معاي.

كانت أصابعه تمشي على وجنتيها في الكلام حتى وصلت إلى شفتيها، فهم بها لولا أن سمع خطوات غزلان الصاخبة خلفه فتراجع.

24

طلب من عمه ناصر وظيفة، فوجدها هلال له في المخازن التي كان هلال يعمل فيها، كانت وظيفته أن يقيد في الدفاتر الصادر والوارد من بضاعة المخزن، فكان يذهب إلى السوق مباشرة بعد المدرسة. يقضي معظم وقته بين البضاعة المتكدسة في المخزن أو يجلس إلى الطاولة منكبا على الدفاتر مدونا، ومتى ما انتهى من عمله أخرج كتبه وبدأ في الدراسة، يحاول أن ينشغل باليومي عن الأسئلة التي ما تلبث أن تظهر له وتلّح عليه إذا ما اختلى بنفسه أو وجد فرصة لقراءة الجريدة.

لم يكن بإمكانه الابتعاد عن السياسة وأخبار العالم الذي يعيش فيه، لكنه حاول جاهدا ألّا يتورط في السؤال والمضي فيه أكثر مما يجب، مع ذلك وجد نفسه أمامه وجها لوجه دون أن يطلبه، ووجده في أكثر الأماكن بعدا عن توقعاته.

كان ذاهبا إلى المستشفى عندما وجدهما، السؤال والجواب كلاهما متجسد من لحم ودم وعلى هيئة رجل ينام على أحد الأسرة في غرفة التضميد.

بحث زاهر عن سنان في العنبر الذي يناوب فيه عادة، ليسلمه مغلفا كان هلال قد أوصاه بتوصيله له في المستشفى عندما التقاه في المخزن بالسوق

ذلك الصباح، لكنه لم يجده في العنبر وأخبره (النرس) الهندي أنه مشغول في غرفة التضميد.

وجد زاهر باب الغرفة مغلقا، لكن سنان ما لبث أن فتحه وجذبه إلى الداخل ثم أغلق الباب خلفه، وأكمل ما كان يقوم به من تغيير الضماد للرجل النائم على السرير، كان الرجل يرتدي إزارا بألوان غامقة وقميصا يبدو أنه كان أبيضَ في يوم من الأيام.

وقف زاهر عند الباب، معطلا سوى من أسئلته التي تتصادم في رأسه، حتى فرغ سنان من ربط رجل المصاب، ثم استدار ومدّ يده لاستلام المغلف.

في تلك الأثناء كان الرجل قد قام، وتأهب لمغادرة السرير، والخروج من الغرفة، عندما أوقفه سنان، وسلمه المغلف، وقال له:

«قول للرفاق إن شاء الله الأمور بتتيسر في المرة الجاية، وأنت انتبه على عمرك، ولا تهمل الجرح، خذ الأدوية والشاش والبلاستر، ونظف الجرح، وغير الضماد مرتين في اليوم كما شفتني أسوي بالضبط».

رد عليه الرجل بهزة من رأسه ثم أخذ المغلف والكيس الذي وضع فيه سنان الأدوية والضمادات والشاش وغادر.

كانت عينا زاهر تنضح بالأسئلة، لكن سناناً أشار إليه بالسكوت حتى يغادر الرجل.

- هذا من جماعتنا.

- صوري؟

- لا، من ظفار.

- ماله؟ وليش عطيته المغلف؟

- هذا الرجل كما شفته متعور في رجله، له ثلاثة أيام يراجع المستشفى، فقير وما حيلته شي، وهذه شوية دنانير لميناها من هنا وهناك، قلنا يدبر بها أموره.

لم تكن دنانير قليلة تلك التي كانت في المغلف، كانت حزمة كبيرة وكان زاهر يحدس أن في الأمر شيئا ما يجهد سنان لإخفائه عنه.

- لكن كأن الرفاق محتاجين دنانير كثيرة.

شدد زاهر على الرفاق فظهر في كلامه إيحاء بأنه يعرف، وفي نبرة صوته مزيجٌ من الحدة والتهكم الخفيف.

لم يعتد سنان هذه النبرة من زاهر، لكنه عرف أن الفتى قد استشعر الإهانة لأنه أخفى عليه، وبخس ذكاءه حقه، وعامله باستخفاف. يعرف أنه من الصعب أن يفوت زاهر شيئا بهذا الوضوح، ولن تقنعه إجابة إلا إن كانت صادقة.

- بيكون أحسن لك لو انك سويت عمرك ما فاهم، ما شفت شي ولا سمعت شي، لا الرجل ولا المغلف.

- لكن أنا شفت وسمعت.

- أنت أساسا عنيد، وما شي بيقنعك، لكن لا حول، انتظرني ومن أخلص المناوبة ببدل ثيابي وبنسير البيت وفي الدرب بخبرك بكل شي.

استدار زاهر لمغادرة الحجرة عندما استدرك سنان:

- بس العهد يا زاهر... «الله يخون الذي خانك».

سمع زاهر العبارة الأخيرة فتذكر الرجل الذي كان رفيقه في الباخرة، الرجل الذي قال إن اسمه «خاطر بن عبيد الفارسي»، الصوري الذي هبط

في دبي، الرجل الذي ظل يردد آخر كلمات أغنية سالم راشد الصوري أكثر من مرة، الرجل الذي قال إنه يعرف سناناً بن خميس الغيلاني، ويصفه براعي الشيمة.

استدار زاهر ثانية ليقابل وجه سنان، ويركز العين في العين، تبادلا العهود والثقة في نظرة طويلة وصامتة «الله يخون الذي خانك» قالها وغادر، وهو يشعر أنه قد صار لتوه جزءاً من لغز بدأ بالتكشف له شيئا فشيئا.

بعد أن انتهت المناوبة؛ وجده سنان في انتظاره أمام غرفة التمريض، فمشيا إلى البيت، وفي مشيهما أخبره عن التنظيم الجديد الذي أنشئ لدعم (جبهة تحرير عمان والخليج العربي)، قال له إنهم يجمعون الأموال بسرية ليشتروا السلاح، والعتاد لإخوانهم الثوار في ظفار.

- والرجال بو كان معاك؟

- مندوب من الثوار، جانا من البصرة يستلم التبرعات.

فجأة توقف سنان عن الكلام والمشي، ثم استدار وأمسك زاهراً من كتفيه:

- شوف زاهر، أنت ولدنا لكن نحن ما نريد نورطك معنا، كان شايف الدرب ما دربك، سوي عمرك لا شفت ولا عرفت، وكان شفت أن الوقت هو وقت الثورة والنضال في عمان؛ لَجْل نتخلص من السلطان سعيد، وسياسة الظلم، والفقر، والجهل، والجوع فبينا عهد الله ما نخون، هيش قلت؟

لم يجب زاهر سناناً، وربما لم يكن سنان ينتظر إجابة من زاهر، كان يشعر بأن ما قاله يكفي وزيادة، وأن زاهراً سيأخذ وقته في التفكير، وسيجاوبه عندما يصل إلى رأي فيما سمع.

كان واثقا من أن زاهراً ما عاد ذلك الفتى الذي وصل الكويت قبل

سنوات قليلة، مبهورا بالجديد، ومفتونا بالأفكار القومية، وشعارات العروبة تطوّحه هنا وهناك.

زاهر صار رجلا الآن، يحمل شيئا من خبرة المنافي الطوعية، عرف ذل الغربة كما عرف وجع الوطن، وعرف مرارة الهزيمة كما عرفوها، اختبر الخذلان كما خبروه، وجرب أن ينشقّ قلبه بين الذي يريده، ويتمناه وذاك الذي يقدر عليه، بين فكرة الممكن وجحيم المستحيل.

لكن في قلب زاهر ترددا؛ بين النضال والحرية، وعيني أمه، وشوق مزنة، وتحذير أبيه.

كان قد ترك ما لا ينفعه إلى ما ينفعه كما أوصاه أبوه، ترك أسئلته وكفّ عن البحث عن جواب لسؤال الهزيمة، وضياع فلسطين، وعجز العرب.

خاطر قال له بالعلم سيعرف، وسينكشف له كل شيء، وهو مع انشغاله بدراسته والوظيفة المسائية لم يتوقف عن البحث عن الأجوبة، سواء في الكتب والمجلات والصحف أو تلك التي يجمعها من أفواه الآخرين.

قرأ ما كتبه ماركس وأنغلز، درس البيان الشيوعي وصراع الطبقات، لكنه لم يجد إجابة ترضيه، وتدله على الطريق الذي تستعيد به الأرض كرامتها، الطريق الذي سيحرر القدس ويبعث عمان من تحت غبار التاريخ.

كان زاهر يعرف أشياء كثيرة التقطتها أذناه من هنا وهناك، عن أخبار الثوار الجدد الذين يحملون أفكارا مختلفة عن مبادئ القومية التي آمن بها حتى هزيمة يونيو، كان يسمع عن الثوار، وعن اضطراد حركة الكفاح المسلح في ظفار في السنوات الأخيرة.

ليس هذا بجديد عليه أبدا، إلا أنه بات يعرف الآن أنه يعيش بين أشخاص يتعاطون العمل النضالي بسرية دون أن يشعر بهم أحد، حتى

العم ناصر نفسه.

لكنه عاد ليناقش أفكاره، هل سيكون تحرير عمان من هيمنة الإمبريالية هو الطريق إلى تحرير القدس من الصهاينة فعلا؟ أم أن تحرير عمان هو الطريق إلى عمان؟ إلى حيث على عمان أن تكون كما يراها، ويشتهيها.

هل ستمتد الثورة من الجنوب فتعمّ البلاد؟ هل سيتحرر كل الخليج من الإنجليز؛ فيتحول إلى كتلة واحدة تصبح شوكة في حلق الإمبريالية، والحكام الصوريين الذين نصبتهم؟

هل ستتحرر البلاد من جهلها وفقرها؛ فتصبح غنية ومزدهرة مثل بلاد الآخرين؟

له ذاكرة مسقط بكل سعادتها ومرارتها، مسقط التي يحب، ومسقط التي تحزنه كلما قارنها بالكويت أو بالبلاد التي سمع عنها، أو تلك التي مرّ بها في سفره.

يريد لها وبنهم شديد ما للبلدان الثانية من حضور وحركة، يريد أن يكون عمانيا بعزته الكاملة، وأن يقول أنا «عماني» دون أن يشي صوته بالتردد، ودون أن يقدم اعتذارا ضمنيا لوجوده في بلاد الآخرين ضيفا أو عالة.

نعم هو يؤيد فكرة التخلص من هيمنة الإنجليز، ومن السلطان سعيد، هو يعرف كما يعرف الآخرون أن السلطان لا يأبه كثيرا بأحوال الشعب وآلامهم وأحلامهم، وأن البلاد على وشك التصدع من شدة الفقر، ووطأة الظلم وتوالي الثورات.

لكنه يمتلئ بالتردد أمام فكرة الثورة، والكفاح المسلح، والتورط في حرب بين العمانيين أنفسهم، وإن كان يحب أن يظن أنها لصالحهم على المدى البعيد، تزعجه الفكرة، تزعجه جدا.

في طفولته حكت له أمه الحكايات عن قراهم في البلاد البعيدة التي لم يرها، والتي تتناوب قبائلها على الغزو، وقطع النخل، وحرق الأكواخ؛ والناس فيها نيام. عن أبناء العم الذين لا يكفّون عن الغارات على بعضهم بعضا؛ فيشيعون الخوف، والظلم، ويستبيحون الدماء.

أخبرته أمه أن جدته جاءت عروسا في الصلح بين القبائل، وحقن الدماء، لكنه أيضا يعرف أن خاله الذي ما تبع أخواله في حروبهم الصغيرة؛ تبع السلطان وصار من جنوده الذين يستخدمهم في قمع كل ثورة تقوم ضده.

مرّت الأيام بينهم، وزاهر غارق في مشاغله، وصمته، وأفكاره، حتى ظن سنان أنه قد نسي الأمر، أو أنه فضّل تناسيه، فلم يحزنه ذلك، ولم يخبر هلالاً بما دار بينهما من حديث، ترك الأشياء لتمضي بهدوء.

إلا أن زاهرا لم ينس ولم يتناسَ، وكلّما فكّر في الأمر أكثر؛ شعر بأنه يريد أكثر من أن يقتصر دوره على جمع التبرعات، والبقاء في الظل، وصار يجد أن طريق عودته إلى مسقط وإلى أمه ومزنة، لا يكون إلا بعد أن يعبر العمانيون كلهم نهر الشقاء نحو ضفة آمنة. على السلطان سعيد أن يرحل إذن، وهو لن يرحل إلا بقوة السلاح.

* * *

كان على الأمر أن يبقى سرا بين الثلاثة، زاهر يفهم ذلك جيدا، العم ناصر وابنه لا علاقة لهما بالسياسة، بل يكادان يتجنبان كل حديث حولها بكل ما لهما من قدرة.

يعرفان ما يريدان ويقنعان بالمتوفر، حياتهما صغيرة ومغلقة على اليومي والممكن، لا يفكران بمحاولة المستحيل أو مقاربته، تخيفهما فكرة السجن في الجلالي، والتورط فيما لا يعرفان نهايته.

لذا كان لعمل زاهر مع هلال في المخازن ميزة، حيث وفر لهم مكاناً للقاء والنقاش لا يشك فيه أحد، وحيث كان بإمكانهم هم الثلاثة، وآخرون تعرّف إليهم لاحقا أن يجتمعوا دون أن يشعر أحدٌ في البيت بأي شيء، وهذا ما كانوا يفعلونه أسبوعيا.

في واحد من اجتماعاتهم الأسبوعية، فوجئ زاهر بحضور خاطر بن عبيد الفارسي، الذي سلّم عليه دون أن تظهر عليه أيّ إشارة إلى أنه قد تذكره.

ترأس خاطر الاجتماع الذي عُقد حول مائدة صُنعت من صناديق الكارتون، التي كان يخزن فيها الأدوات الكهربائية التي صارت تجلب للكويت في اضطراد.

عرف زاهر من جلسة خاطر وطريقته في الكلام، أنه ليس مجرد فرد في التنظيم، بل إنه ربما كان واحدا من قادته. بعد أن افتتح خاطر الكلام بالحديث عن الوضع العربي، وتطورات الحركة في بغداد، ونتائج مؤتمر بيروت، بلّغ الرفاق المجتمعين عن وصول أخبار عن تقدم الثوار إلى المدن في ظفار، وأنهم قد وصلوا إلى حدود صلالة ومرباط وطاقة، بعد أن كانوا يتمركزون في الريف ومحاصرين فيه.

كما أخبرهم أيضا عن وصول إشارات، إلى أن الإنجليز قد يعمدون إلى التخلص من السلطان سعيد، لخلو سياسته من الدبلوماسية مع خصومه، وعجزه عن تطويق الثورة؛ مما يجعلهم في خوف حقيقي من انتصار الثورة في عمان أولا، ثم انتشارها في كل دول الخليج، مما يعني بالنسبة لهم خسارة عظيمة أمام دول المحور الشرقي، وهذا بالضبط ما لم يكن الإنجليز وحلفاؤهم مستعدين له، ولن يقبلوه مهما كلفهم الأمر، وإن كان ذلك يعني التخلص من حليف أساسي في المنطقة واستبداله بقيادة جديدة.

انتهى الاجتماع، وودع الجميع بعضهم بعضا، وكان خاطر كلما عانق واحدا من الشباب الجدد مودعا، قال له «النصر بالشباب» أو «أنتم وقود الثورة» أو «مناجلها في أيديكم وحصادها لكم».

غادر الجميع ولم يتبقَ في المخزن غير زاهر، وخاطر، وسنان، وهلال، كانوا يستعدون للمغادرة عندما كاشفهم زاهر برغبته في الذهاب إلى ظفار، وحمل السلاح مع الثوار.

توقف الرجال الثلاثة عن جمع الأوراق التي كانت على الطاولة أمامهم، وتبادلوا النظرات فيما بينهم، ساد الصمت بعض الوقت، ثم ما لبث خاطر أن كسره.

- متأكد يا زاهر؟ تراها الحرب ما لعبة.

- طبعا متأكد.

- تعرف تحمل السلاح؟

- لا، بس بتدرب كما تدرب غيري، وبعرف.

- الحرب في ظفار تعتمد على الحركة، والسرعة، وفهم البلاد.

- كيف يعني؟

- يعني أهل البلاد أدرى بها.

- وهذا يمنع أني أكون معهم؟

- أنت ما مدرب على السلاح، وما تعرف البلاد.

- أعرف أنه شي معسكرات، والثوار كلهم يتدربوا فيها قبل عن يسيروا ظفار، رسلوني معهم، بتعلم السلاح والحرب.

هنا تدخل هلال.

- الموت في الحرب سيد، وأنت رأس مال أمك وأ...

قاطعه زاهر بحدة واضحة:

- والثوار في ظفار من عمان، والبحرين، والكويت، مالهم أمهات؟ والثوار في الصين، وكوبا، وأفريقيا، وأمريكا الجنوبية، والعالم كله، مالهم أمهات؟

- بعدني أقولك فكّر، فكّر زين، تراها درب صعبة.

فُض الاجتماع، ولم يجبه الرجال إلى مطلبه، كانوا يعرفون ما للشباب من حماسة ونزق، وكانوا يعرفون أيضا أن ثمن ذلك يُدفع غاليا. أرادوه أن يهدأ، ويفكر جيدا فيما أراد أن يقدم عليه، أن لا يتعجل الأمر فيندم عليه لاحقا.

حاول سنان وهلال أن يقنعاه في نقاشات لاحقة، أن إسهامه في الثورة لا يلزمه أن يذهب إلى الميدان، بإمكانه نشر المبادئ والاشتغال على حشد التأييد، وجمع المال دون أن يُعرِّض نفسه للرصاص، والخطر.

يعرفون إخلاصه وعناده ويشفقون عليه مما سيجد.

* * *

في يونيو عام 1970 سافر زاهر إلى بيروت، وفي جنوب لبنان تدرب مع المناضلين الفلسطينيين على حمل السلاح وحرب العصابات، وبعد ثلاثة أشهر غادر بيروت جواً إلى اليمن، ومن اليمن التحق بالثوار في جبال ظفار حاملا الشارة الحمراء، وكتاب ماو تسي تونغ.

إلى الكويت كانت رسائل علي تصل، وكان هلال يستلمها فيعيد إرسالها إلى زاهر، وزاهر يكتب ردوده، ويرسلها إلى الكويت، فتأخذها المراكب المسافرة إلى مسقط.

25

لقد تحصلنا على هذا القرار من السيد قابوس بن سعيد سلطان مسقط وعمان لجميع رعاياه في السلطنة: «شعبي، أتحدث إليكم كسلطان مسقط وعمان بعد أن خلفت والدي في يوم 19 جمادى الأولى سنة 1390هـ الموافق 23 جولاي سنة 1970م.

كنت ألاحظ وبخوف متزايد وسخط شديد؛ عجز والدي عن القيام بواجب الوطن، وسعادتكم، وهذا الذي دعاني لتولي زمام الأمور.

إن عائلتي وقواتي المسلحة قد تعهدوا لي بالطاعة، والإخلاص. إن السلطان السابق قد غادر السلطنة، وإني أعدكم أول ما أفرضه على نفسي، أن أبدأ بأسرع ما يمكن أن أجعل الحكومة عصرية، وأول هدفي أن أزيل الأوامر غير الضرورية، التي ترزحون تحت وطأتها.

أيها الشعب، سأعمل بأسرع ما يمكن لجعلكم تعيشون سعداء، لمستقبل أفضل، وعلى كل واحد منكم المساعدة في هذا الواجب.

كان وطننا في الماضي ذا شهرة وقوة، وإن عملنا باتحاد، وتعاون سنعيد ماضينا مرة أخرى، وسيكون لنا المحل المرموق في العالم العربي. إني متخذ

الخطوات القانونية لتلقي الاعتراف من الدول الخارجية الصديقة، وإني أتطلع إلى التأييد العاجل، والتعاون الودي مع جميع الشعوب وخصوصا جيراننا، وأن يكون مفعوله لزمن طويل، والتشاور فيما بيننا لمستقبل منطقتنا.

أصدقائي - أني أستحثكم الاستمرار في معيشتكم المعتادة، وإني سأصل إلى مسقط خلال الأيام القليلة القادمة، وهدفي الرئيسي ما سأخبركم به.

شعبي، إني وحكومتي الجديدة نهدف لإنجاز هدفنا العام.

شعبي وإخوتي، كان بالأمس ظلام، ولكن بعون الله غدا سيشرق الفجر على مسقط وعمان وعلى أهلها. حفظنا الله وأن يكلل مسعانا بالنجاح والتوفيق».

* * *

وصل الخبر إلى برزة السيد على هيئة برقية فما صدق علي ما جاء فيها.

هل من الممكن حدوث ذلك؟ هل من المعقول أن يتغير الحكم فجأة فيصبح الأمل ممكنا، والمستقبل ليس مجرد حال من التمني؟.

نسخ علي البرقية على عجل، وخرج إلى بيته مسرعا، دق الباب دون حاجة لذلك، وكأنه يريد أن يعلن حضوره، والبرقية التي بين يديه بأعلى صوت ممكن.

فتحت ريّا الباب، ولم تفهم حضور زوجها المبكر، ولا الحالة التي كان عليها، سلّمها البرقية والدموع تكاد تفرّ من عينيه، ثم سجد على الأرض أكثر من مرة.

ثم قام وقال لها:

- وصلت البشارة يا ريّا، قربي المكتوب في البرقية، قابوس وصل.

- أي بشارة؟ ومن قابوس؟

- قابوس ابن السيد سعيد، ما سمعتي به؟ ولده ومن صلبه، وكان ضامنه في قصره في صلالة وما حد يعرف عنه شي غير الإشاعات، خذي قريي البرقية.

تأخذ ريّا البرقية وتقرأ ما جاء بها ثم تعيدها إليه:

- وأنت مو دراك أنه ما كَمَا أبوه؟

- ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل، وأكيد ما كَمَا أبوه، لو كَماه ما خلاه يترك الحكم.

كان علي يتكلم بسرعة، يحبس دموعه لحظات ثم يعجز عن مداراتها فيتركها تنساب، كان يبكي كما لم تره ريّا يبكي من قبل، ثم يعود فيمسح دموعه، ويعود فيسجد على الأرض شاكرا الله المرة تلو الأخرى.

ثم فجأة توقف واختطف البرقية من بين أصابعها وغادر البيت وخلّفها واقفة وحدها في الحوش.

اتجه نحو السوق، حيث بدأ الرجال بالتجمع، وصاروا يتحدثون حول ما حدث، وكيف حدث، متأرجحين بين التصديق والتكذيب، لا يكادون يتأكدون من خبر حتى يأتيهم نقيضه، وصارت الناس تتناقل البرقية من يد إلى يد، ويقرأ الذين يجيدون القراءة على من لا يقرؤون، ويشرح بعضهم لبعض ما جاء فيها.

ثم أعلن المنادي في السوق أن السلطان سيصل مسقط يوم 29 يوليو، وأن الطائرة ستحط في بيت الفلج، فقامت البلاد.

سرى الخبر في مسقط ومطرح كما تنتشر رائحة الفرح في الأعراس، فأخرج التجار من دكاكينهم كل ما كان فيها من قماش أحمر، فصُنعت منه أعلام عُلّقت على كل بيت ومئذنة وسارية.

صار الأفق خليطا من الأزرق الصافي والأحمر المتوهج، حلقت الأعلام عاليا، وصارت الراية فرحا أحمر ومشاعا.

* * *

يوم 29 يوليو خرج الناس في أفواج من قراهم، وحاراتهم باتجاه بيت الفلج، من مسقط، ومطرح، ودارسيت، وروي، والبستان، وحرامل، وحتى من قريات جاءت المراكب محملة بالرجال والطبول.

خرج الناس يتقدمهم صوت الكاسر والرحماني[49] ومجاهرة المزمار، خرجوا بالعازي، والسيوف والخناجر والعصي، ليكونوا هناك عندما تحط الطائرة، وليروه رأي العين، وليتأكدوا أنه ليس وهما وأن الخبر ليس خدعة أريد اختبارهم بها.

أحاطت الجموع بالمطار، والناس في تدافع، كلٌ يحاول أن يسبق النظر فيقول «رأيته».

عند الساعة الخامسة عصرا رأوا الطائرة تقترب، ثم رأوها تهبط، وتدرج على مدرج المطار، وتتوقف، ثم رأوا السلم يثبت عند بابها، ورأوا الباب يفتح، ثم رأوا السلطان الشاب بلحيته الكثة الطويلة يهبط السلم مرتديا الدشداشة والبشت ومعتمرا عمامة آل سعيد، ومحاطا بمرافقيه من الضباط الإنجليز والعمانيين.

مشى السلطان على البساط الأحمر في ثيابه المدنية بخطوات عسكرية، فسلّم على عمه السيد فهر، وحيّا أعيان البلاد، والناس الذين كانوا في انتظاره.

بعد لحظات تقدم من المايكرفون، وألقى خطابه فارتفع التصفيق،

49. الكاسر والرحماني: أنواع من الطبول.

والهتاف، والناس غير مدركة لما جاء في الخطاب بقدر إدراكها بأن هناك جديد قادم، وأن الحال لن يبقى على ما هو عليه.

بعدها توجه السلطان إلى السيارة المرسيدس الحمراء التي كانت في انتظاره، تحركت السيارة ببطء بين جموع الناس الذين التفوا عليها، وهم غير مصدقين ما رأوه لتوهم.

غادر السلطان المطار أمام أعينهم لكنه بقي في قلوبهم، تمنوا لو أنه أطال البقاء أمامهم، حتى يتأكدوا من كونه ليس مجرد طيف عابر أو أمل تجسد للحظة ثم اختفى.

شغلهم لقاؤه القصير لمدة طويلة فصاروا لا يتحدثون في ما تلى من الأيام إلا عن هيئته، ومشيته، وما قاله من كلام.

* * *

وصل علي إلى البيت بعد صلاة العشاء منهكا وجائعا، فوجد ريّا في انتظاره، والقلق ظاهر عليها، قابلته بالأسئلة فطلب منها أن تضع الطعام حتى ينتهي من صلاته.

ذهب للصلاة، وذهبت ريّا لتسخين الطعام الذي أعدته ظهرا، ولم يتناوله أحد، قرّبت الصينية، ووضعتها على الحصير أسفل البيذامة، وجلست تنتظره، كان الجو حارا، والرطوبة عالية، فحركت المشبّة أمام وجهها استجلابا لشيء من الهواء.

أنهى علي صلاته فانضم إليها، كان يبدو مرهقا لكنه كان جائعا أكثر، انتظرته حتى شبع، وغسل يديه ثم جلس إليها.

كان يبدو عليه التعب لكنه لم يتوقف عن الكلام، ووصف كلمات السلطان، وحركاته، وسكناته:

- السلطان ما كبير، يمكن من سِنَا، ويمكن أصغر شوية، عليه لحية طويلة كما لحية المشايخ لكنه يمشي كما العسكر، حطوا قدامه المكرفون وتكلم وقال...

تحثه الأسئلة في عيني ريّا على الاستمرار

- أول شي شكر الناس بو حاضرة كلهم، بعدين قال لازم كلنا نتعاون، ونبني البلاد، وقال أننا نحن، الشعب يعني، والحكومة جسد واحد، وقال البلاد عانت من التخلف، والتو عاد لازم نتعاون كان بَاغْيين نتقدم.

أطرقت ريّا ثم سألت زوجها إن كان ذلك يعني أن عودة زاهر صارت قريبة، إن كان الذي حدث يعني أنه سيكون في البلاد مدارس وعلم، وأن زاهرا لن يحتاج للغربة، وأنه سيعود إليها. أكد لها علي أنه لن يحتاج إلى الغربة، وأنه سيكتب له تلك الليلة بالذات ليخبره عمّا جدّ في البلاد فيعود ويبقى، أو على الأقل يعود فيرى أمّه ثم يقرر ما يفعل من بعد.

كتب علي لزاهر تلك الليلة، لكن الردّ وصله بعد شهرين، كانت رسالة قصيرة، فض علي مغلفها بلهفة:

«والدي العزيز، أدامه الله وأبقاه

وصلتني رسالتكم وأنا بخير وصحة، وأتمنى أن تكونوا كذلك.

سأعود بإذن الكريم بعد أن أتم علمي هنا.

سلامي لأمي الغالية، وخبرها أني أنوي الزواج حال رجوعي إلى البلاد.

ابنكم المحب

زاهر بن علي».

* * *

قبل منتصف عام 1970 استدعي راشد لحضور اجتماع سري برئاسة قائد كتيبة ظفار، وحضور بعض الضباط الإنجليز، والعمانيين في رتب عالية.

بلّغهم القائد أن البلاد لم تعد تحتمل سياسة السلطان سعيد، وأن السيد قابوس ابنه، المقيم في صلالة يخطط لإزاحته، حفاظا على وحدة البلاد، ومصلحة الشعب، وأن عليهم، حتى وقت وصول الأوامر بموعد التنفيذ، التزام السرية التامة.

تردد راشد في قبول الأمر في البداية، إلا أنه استمع بحرص لما كان يقوله القادة الإنجليز، والأدلة التي ساقوها لتبرير ضرورة إزاحة السلطان سعيد. هو يعرف أن هناك حالة من عدم الرضى في أوساط الجيش وبين الجنود، فالوضع في الميدان كان يزداد سوءاً، والثوار يتقدمون، ويكادون أن يكملوا حصار صلالة، والجيش يعاني من نقص شديد في الأسلحة والجنود، والسلطان سعيد لا يريد أن يغيّر من سياسته، يتحصن في قصره، ويرفض أن يعترف بما يحدث حوله، ووجوب تغيير طريقته في إدارة البلاد، وطريقته في الحكم.

عند الساعة الثالثة والنصف ظهرا من يوم الثالث والعشرين من يوليو صدرت الأوامر بتطويق القصر، وقطع خطوط الكهرباء عن نظام الاتصالات فيه.

طوق الجنود القصر، وحدث تبادل لإطلاق النار مع خدام السلطان المقربين، وطلب منه الضباط الإنجليز الاستسلام، لكن السلطان سعيد رفض الاستسلام وتحصن داخل غرفة مكتبه في البرج الشمالي للقصر، وعندما حاول الجنود الصعود إليه، والاقتراب من الغرفة التي تحصن فيها، أطلق النار عليهم، وأصاب أحد الضباط العمانيين في بطنه، ثم أصاب قدمه خطأ.

بعد فترة من تبادل إطلاق النار، نجح ضابط إنجليزي، وآخر عماني في صعود السلم، والتمركز عند باب المكتب، وانتظرا حتى توقف السلطان عن إطلاق النار، وساد الهدوء قليلا ثم نادى الضابط الإنجليزي على السلطان، وحذره من أنهم قادرون على إلقاء القنابل على المكتب، وتدمير كل شيء فيه، وطلب منه الخروج بهدوء والاستسلام، ساد الصمت وهلة ثم جاء صوت السلطان واضحا في غضبه، رافضا الاستسلام إلا لقائد كتيبة ظفار.

تبادل الضابطان الإشارة فنزل الضابط الإنجليزي السلم مسرعا ليبلغ قائده بطلب السلطان، ثم عاد يمشي وراء قائد كتيبة ظفار، الذي كان يصعد سلالم البرج الشمالي للقصر بهدوء ودون عجلة، وعندما وصل وجد السلطان ما زال متحصنا في مكتبه.

من وراء الباب المغلق تكلم القائد مع السلطان، وكرّر عليه بأن القصر مطوق بالجنود، وأنه لا جدوى من المقاومة، وأن عليه أن يسمح له بالدخول، وتسليم سلاحه.

أمر السلطان القائد بالدخول، كان صوته آمرا وقويا كعادته.

دخل فوجده ما زال واقفا خلف مكتبه، وفي يده مسدس مصوب بكف ثابتة إلى صدر القائد الذي توقف في مكانه:

- سيدي سلمني سلاحك.

نظر السلطان بمزيج من الغضب، والاحتقار في وجه الرجل، الذي كان حتى قبل ساعة يأتمنه على حكمه، وقصره، وشخصه، ثم ظهرت على وجهه علامات الألم، وكأنه استشعر في تلك اللحظة معنى غرس النصل في الظهر.

ناوله المسدس:

- خذه، لا أظن أني سأحتاجه بعد الآن.

ثم سأله:

- كيف فعلت ذلك؟ كيف جرؤت على فعل ذلك؟

فردّ عليه الإنجليزي:

- أنا لم أفعل ذلك سيدي، من فعل ذلك هو شعبك، شعبك الذي أعميته بالتراخوما.

ساد الصمت دقائق، تبادل الرجلان فيها نظرة طويلة صامتة، ومشحونة بالاتهامات المتبادلة، ثم كسر القائد عينه، والتفت ناحية الباب، ونادى على الضباط الذين وقفوا خارج الغرفة، وأمرهم بأخذ السيد إلى إحدى غرف القصر، وفحص قدمه المصابة، وإجراء الإسعافات الأولية له، ومن ثم نقله إلى معسكر أم الغوارف.

أُخرج السيد سعيد من القصر محمولا على محفة، ووضع في سيارة لاندروفر سارت به ببطء وسط حراسة مشددة، وجموع الناس الذين خرجوا من بيوتهم غير مصدقين ما وردهم من أنباء عن وقوع الانقلاب، فتجمعوا في الطريق بين القصر والمعسكر يراقبون المشهد الذي يحدث أمامهم، والابتسامات المذهولة تملأ وجوههم.

ثم فجأة توقفت الجموع عن متابعة حركة السيارة اللاندروفر الذاهبة إلى المعسكر وتوجهت أعينهم إلى قصر الحصن ليستقبلوا السلطان الجديد الذي خرج من قصره ليحييهم، ويعلن بحضوره بينهم أن الحكم قد تغير، وأن الأشياء في البلاد لم تعد كما كانت.

26

عادا فعرفا أن زاهرا لم يعد.

بعد وصول السلطان قابوس إلى الحكم، أرسل صالح إلى أخيه ناصر في الكويت يعلمه بما جد في البلاد، ويخبره عن الوظائف الجديدة التي توفرت في الحكومة، ويحثه على العودة فما عاد للغربة والشقاء معنى، كما كتب له في رسالته الطويلة.

ناصر الذي لم يزر البلاد في السنوات الثلاث الأخيرة، والذي كتب لأخيه ردّا متلهفا على البلاد وأهله، لم يستعجل العودة، وانتظر حتى ينهي خليفة دراسته الثانوية التي ما كان قد تبقى عليها إلا سنة واحدة.

ودّع ناصر وخليفة رفيقيهما في السكن، وهما بين حزن وفرح، أما هلال وسنان فكانا لا يعرفان ما يقولان في تلك اللحظة، هل يخبرانهما بحقيقة سفر زاهر أم يتركان الأمور على ما هي عليه؛ فيعرفان متى ما وصلا البلاد.

أرادا ذلك لكنهما لم يجرُؤَا عليه، فتوادعوا عند الباب بأحضان طويلة، وعيون مبتلة، ودعوا بعضهم بعضا على أمل لقاء قريب في مسقط، وعلى أمل بأن يغفر لهما رفيقاهما ما كتماه عنهما.

عادا إلى مسقط محملين بمتاعهما، وهداياهما، وأشواقهما، عادا فوجدا علياً بصحبة صالح ينتظرهما معه في الفرضة، وفي عينيه لهفة ما لبثت أن تحولت إلى أسئلة.

عانق الرجال الرجال، ثم أخذ علي خليفة، وابتعد به قليلا، وسأله عن زاهر، فنادى خليفة أباه ليساعده على تقديم الإجابات لعلي الذي انقلب فرحه غما.

كانت أسئلة علي تتوالى على الرجلين، الذين حاولا أن يشرحا له أن زاهرا ترك الكويت، وعاد إلى مسقط قبل الانقلاب بشهور، وأنه قد ودّعهم وقال إنه تعب من الغربة، ويفضل العودة، والزواج، والاستقرار، أخبرا علياً أنهما حاولا إقناعه بأن يؤجل عودته حتى يكمل دراسته لكنه رفض:

- ما يستوي، بعده لين قبل شهرين واصلني منه خط من الكويت يقول فيه أنه بيرجع مسقط قريب، وخلاص بيدور شغل هنا، قال خلاص اتجهزوا للعرس والزفة.

- نحن قال لنا أنه راجع عمان وسافر، هلال وسنان مرابعينه لين الباخرة.

- من هلال وسنان؟

- جماعتنا، عمانيين ومقيمين معنا في نفس البيت وزاهر كأنه ولدهم وأكثر.

- وزاهر ركب الباخرة وما وصل؟ شافوه يركب الباخرة؟ هين سار؟ زاهر هين التو؟

تحلق الرجال حول علي الذي ارتفع صوته في الأسئلة دون أن ينتبه، مفجوعا في ابنه الذي بدا وكأنه ركب الباخرة ثم تبخر في الهواء أو ذاب كالملح في ماء البحر، محتارا في الأسئلة التي تتكاثر في عقله وتطرق رأسه بعنف.

ثم صمت علي فجأة، وارتدت أسئلته إلى جوفه، ما الذي يحدث؟ أين ولده؟ أين زاهر؟

ما الذي سيقوله لريّا التي تنتظر منه أن يعود بصحبته؟

أيعود إليها خاليا حتى من الرسائل والأخبار؟ أيعود إليها ويقول: «لا أعرف أين ذهب ابننا، تبخر في المسافة بين الكويت وعمان».

شعر بأن نفسه يضيق، وأنه ما عاد يرى الرجال المتحلقين حوله، كاد علي أن ينهار لكن صالحا وناصرا أسنداه، وأجلساه على الأرض، وجلسا إلى جانبه، وظل خليفة واقفا ولا يتوقف عن الحركة حولهم، يحاول أن يفهم لماذا كذب زاهر وهلال وسنان عليهما.

بعد أن تمالك علي نفسه، واستعاد قدرته على التفكير، استجمع قواه واعتذر منهم، وتركهم عائدا إلى البيت.

في صباح اليوم التالي ومن مكتب السيد، أرسل علي برقية إلى معسكر رزات في صلالة يطلب فيها راشدا لأمر عاجل وخطير.

وجاوبه راشد في برقية الرد بكلمة واحدة «علم».

في تلك الليلة وصل راشد إلى مسقط لكنه لم يذهب لبيت أخته، بل انتظر حتى صباح اليوم التالي فذهب للقاء علي في مكتب السيد، دخل عليه فوجده على حافة الجنون.

يتهدج صوته فتبدو الكلمات متقطعة وصعبة.

- زاهر... ولدنا.

- أعرف، زاهر مودر الكويت من زمان.

- لكن رسايله توصلني كل مدة، من هين يرسلها؟

غاص صوت راشد وهو يقول:

- آخر مرة مرصود كان في ظفار، مع الثوار في الجبال.

لا يريد علي أن يصدق ما يقوله صهره، هذا كلام لا يصدقه عاقل، لكن راشدا أضاف.

- المخابرات عندها أسامي كل بو انضموا للثورة بعد الانقلاب، وزاهر من جملتهم، تدرب في لبنان، وبعدين سافر عدن، ومن عدن وصل ظفار عن طريق حوف.

- والتو؟

- تو عاد ما شي فايدة، زاهر استوى شيوعي، وفي يده سلاح، ويحارب مع الثوار.

- زاهر ما ممكن يستوي شيوعي، تقولوا الشيوعيين كفار.

- الثوار في ظفار غير عن جماعة الإمامة، انشقوا عن القوميين واستووا مع روسيا والصين، شيوعيين، فاهم؟

* * *

لم يعد راشد معه إلى البيت بل تركه في مكتب السيد شبه منهار على الكرسي، تركه وحده والجدران تكاد أن تطبق عليه، قلبه يضيق ولا يعرف ما عساه يفعل في المصيبة التي حلت عليهم.

زاهر شيوعي، زاهر مع الثوار، زاهر يحارب جيش السلطان، زاهر...

«ماذا أقول لريّا؟ أأقول لها زاهر شيوعي؟ أأقول لها اختار أن يتركنا ويرمي بنفسه في التهلكة، لماذا؟».

ترتج الأسئلة في رأسه وقلبه، يعاتب ربه ثم يعود إليه وكأنه يعتذر...

«غر يا الله غر، شاب في فورة حماسه ضاقت به الدنيا».

«ليس بكافر... زاهر ليس بكافر، ولا يمكن له أن يكون كذلك، ربته ريّا على قرآنك ومخافتك».

«يالله رحمتك وسعت كل شيء فارحمنا، ارحم ريّا... ارحم ريّا يا الله ودلني على طريق الصواب فأنا لا أعرف كيف أعود إليها وماذا أقول لها، كيف أخفي عنها مصيبتنا وكيف أخبرها... ماذا أقول لها؟».

«يالله رحمتك... يالله رحمتك ومغفرتك وعفوك».

خرج من مكتب السيد، ولم يعرف كيف يصل إلى البيت، مشى قليلا ثم اختلط عليه الأمر، ما عاد يعرف أي درب ستصله إلى بيتهم في ميابين، مشى ومشى وعندما تعب سأل أحد الصبية فقال له إنه قد وصل إلى سداب، فجلس على صخرة إلى جانب الطريق، وبكى.

بكى غير مكترث للمارة ولا للرجال الذين التفوا حوله يتأسفون عليه، مشفقين عليه من مصيبة لم يعرفوها بعد.

انتبه علي عندما لمس أحد الرجال كتفه فمسح دموعه بباطن كفيه، ونظر في وجوه الرجال المتحلقين حوله، رجال لا يعرفهم وإن بدا أنهم يعرفونه، في عيونهم أسى شديد، وأسئلة صامتة، يسمع حوقلتهم، وكأنها ترديد لصدى بعيد.

قام، ومشى تتبعه أصوات الرجال، ونظراتهم، وأسئلتهم، تركهم، ومضى ناحية العقبة فارتقاها دون أن يشعر، وغاب في منعطفها، والرجال ما زالوا واقفين في أماكنهم يشيعونه بأعينهم حتى غاب.

وصل أمام الباب فدفعه، دخل بيته لكن خطوته تردّدت وهو يجتاز الحوش، يخطو خطوة ثم يقف، ويسأل نفسه، أيخفي عليها أم يكذب عليها؟ أي الأمرين أقل ضررا؟ ماذا لو جاءها الخبر من أفواه الآخرين؟ أتغفر له أنه تركه يذهب للكويت واطمأن لغربته؟ أيخبرها الحقيقة كاملة كما سمعها من راشد؟ أتحتمل ريّا ضياع الولد الذي هو كل ما هو لها وله من الدنيا؟ يريد أن يخفي الأمر عن ريّا، يريد أن يخفي الأمر لو استطاع حتى عن نفسه.

يحاول أن ينقل قدمه فيجد في خطوته ثقلا، يريد أن ينادي على ريّا فيخرج صوته ضعيفا هامسا باسمها، يحاول ولا يستطيع، يلمح طيفها يقترب منه ثم فجأة يغيب كل شيء، وتحل العتمة.

* * *

يسقط أمامها قبل أن تتمكن من الوصول إليه، تناديه فلا يسمعها، تنحني عليه، وتجسّ وجهه، وجسده، فتشعر بحرارته، وخفق قلبه.

تجرّه على أرضية الحوش، فتعلق أوراق البيذامة الجافة بثوبه، وأطراف إزاره، تسحبه، وتسحبها معه، تشعر بصوت تكسر الورق، وكأنها تتكسر في عظامها.

تحمله بكل ما أوتيت من قوة، وتضعه على فراشه، تجسّه مرة أخرى فتجده دافئا، تقترب من وجهه فتشعر بنَفَسه، تحاول أن تفتح جفنيه فينطبقان، ترفع يده فتسقط من يدها، تناديه فلا يجيب.

يسمع اسمه «ع... ل... ي...» وكأنه تردّد لصدى بعيد، يناديها فلا تتلاحم الحروف، تنفصل وتضيع منه، يناديها ليقول لها إن ابنهما بخير، وإنه سيعود قريبا، وسيتزوج مزنة، وسيكون في بيتهم أطفال كثر، كل الذين لم ينجباهما سينجبهم زاهر، وستعود خطوته إلى البيت.

تكفكف دموعها وقلقها، وتقوم إلى سحّارتها فتخرج منها الأدوية التي تخزنها فيها، وتذهب بها إلى المطبخ، تقلي حبوب الذيها، ودواء الخطف ثم تضيف إليها الحبة السوداء، وتطحنها معا، ثم تصب على الخليط الناعم مقادير معينة من زيت الزيتون، وقطرة الشفاء، وعرق الهيل، وحل العرش، وحل الخردل، وزيت القرنفل، وزيت الزنجبيل، تماما كما علمتها العودة.

تعود إلى الحجرة فتجده على حاله، تغلق الباب وراءها وكل النوافذ، تنضّي الثياب عن جسده، وتصب الدواء الساخن على رأسه، وتمسح به جسده من كتفيه حتى أخمص قدميه، ثم تقلبه وتمسحه من الأمام، تدلك أطرافه، وتمسح قدميه.

تفعل ذلك وهي تردد الآيات والأدعية، قلبها عالق بين دمعتين، تشعر بوحدتها ومرارة عجزها عن الرجل الذي هو كل ما لها في البلاد.

تعود فتُلبسه ثيابه، وتربط مصره على رأسه وحول وجهه، فلا يظهر منهما إلا عيناه وفمه وأنفه، تغطيه بدثار من الصوف لتبعد عنه البرد الذي تظن أنه يبسه.

يأتيها صوته واهنا، تقترب منه تريد أن تعرف ما الذي يريده قوله، لكن الحروف لا تخرج منه إلا همسا متقطعا وبلا معنى.

تشعر بأن عليها أن تستنجد بأحد، عليها أن تذهب إلى عند البيبي أو ربما ذهبت إلى بيت الوادي فاستنجدت بأولاد العود.

لا أحد لها هنا، ستطلب من صالح أو ناصر أن يرسلا برقية لراشد في بيت الفلج فيأتي ليرى ما حلّ بهم.

تسمع صوت أنينه يأتيها مرة أخرى، فتقترب منه، وتضع رأسه في حجرها، وتمسده، تردد: «أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك

شفاء لا مرض بعده» تنوس عليه، وتردد الكلمات دون انقطاع.

لا تعرف متى نامت، لكنها استيقظت على صوت همهماته:

- زاهر...

- ما له زاهر يا علي؟

لا يجيبها، ومن عينيه تنساب دمعة فتنحدر حتى تصل أسفل أذنه ثم تغيب، تكرر سؤالها بخوف، لسانه ثقيل حتى لا يكاد كلامه أن يفهم:

- زاهر... ظفار... مع الشيوعيين.

يغمض عينيه، وتبقى عيناها متسمرتين على الوجه الذي عاد لغيابه بين يديها مرة أخرى، لابد أن علياً يهذي، ما الذي يفعله زاهر في ظفار؟ وكيف يعود إلى البلاد ولا يعود إليها؟

تشعر بألم في رجلها من طول الجلوس، وهو يضع رأسه في حجرها، فتغير جلستها، وهي تحمل رأسه وتنقله بكفيها فلا تدعه لحظة دون أن تسنده.

من هم الشيوعيون؟ وما الذي يفعلونه في ظفار؟ وما الذي يفعله زاهر معهم؟ تتصادم الأسئلة وكل سؤال يفجر آخر، ثم تأتيها الإجابات نتفا من الذاكرة، كلمات سمعتها في أحاديث متفرقة بين أخيها وزوجها، أو من أحاديث النساء في بيت الوادي وولجات والبيبي.

كانت تستمع ولا تكترث، يقولون أن السلطان الجديد سيقضي على الشيوعيين، يقولون هم كفرة لا يؤمنون بالله فتستعيذ.

لا تهتم إلا بزاهر، وزاهر في الكويت وبعيد عن الأذى، والبلاد سيكون فيها خير كثير وسيعود، سيبني له دارا، وسيزف على عروسه، وستمتلئ الدار بالخطوات الصغيرة والضحك.

زاهر قال إنه عائد إليهم، قال لأبيه في آخر رسالة إنه سينهي دراسته، ثم سيعود ليبقى.

لابد أن علياً يهذي، من شدة ما أصابه من الوهن، لا بد أن لفحة من الهواء صادفت تعبه، فيبسته.

أو ربما كان مشتاقا إليه فهذى به، أو ربما هو خائف من أخبار الحرب والشيوعيين فاختلط عليه الأمر.

تنكس رأسها، وتنظر طويلا في وجهه، هل قال إن زاهرا مع الشيوعين أم أنها لم تسمعه جيدا؟ زاهر ابنها مع الشيوعين!

تسقط دمعتان من عينيها على جفنيه المطبقين، وهي تكرر عليه السؤال المرة تلو الأخرى:

- زاهر... زاهر مع الشيوعين؟

لكنه لا يجيب.

27

الباب خلفها...

وهي تقف أمام السلمة الأولى، عباءتها تنسدل من أعلى رأسها حتى عقبيها، بيمينها تمسك طرفي عباءتها، وتضمهما، ذراعها اليسرى ترتفع قليلا، وكوعها بارز إلى الخارج، وكأنها تدس شيئا ما تحته.

بئر السلم عميق، وهي تنظر من أسفله فترى سقفا ولا ترى نافذة، ينيره ضوء يرشح من ثلاث مكعبات زجاجية سميكة تزين جدار السلم الخارجي عند كل بسطة.

تتسرب رطوبة مسقط فتضغط الهواء في جسدها، تشعر بِرئتها تلهث.

تفلت طرفي عباءتها، وتتكئ على حديد الحاجز بيمينها، تتكئ قليلا لتستريح.

يظهر ثوبها الأبيض القطني الخفيف، وردات قانية الحمرة تفترش بياض وقايتها، وتتشابك بالخضرة الغامقة للأغصان.

تصعد...

من درجة إلى أخرى بلاد، تضع قوتها كلها في مقدمة القدم، تدوس بثقلها على أصابعها كي ترفعها، عظيماتها تئن تحت وطئها، تسمع صوت احتكاك سلامياتها، وكأن لا أربطة ولا عضلات تحركها، وكأن جسدها نفد منه الماء، وكأن الماء تسرب منه مع ما تسرب من العمر.

سلمة وراء سلمة، والمسافة بين الخطوة والخطوة زمن امتد بها منذ خروجهما من السراير إلى مسقط اتقاء للظلم.

«قلت نخرج من القرية الظالم أهلها يا أخي فكيف صرت منهم؟».

ينقذف السؤال من قلبها إلى فمها ولا يخرج، تشعر بحرقته في عينيها فتسترد يدها من على الحاجز الحديدي البارد، وتمسح براحتها على عينيها ووجهها.

مترددة بين سلمة وأخرى، قدماها تعبران الهواء وكأنهما في لجة زئبق، ترتفعان ولا تصلان...

تصلان ولا تجدان...

باب شقته أمامها،

علقوا على صدره النياشين، وأعطوه سيارة وشقة خلف السور.

لو يقدر علي على منعها من المجيء إليه لمنعها، تعرف ذلك، لكنها تعرف أيضا أن ما بينهما أقوى من الدم.

ما بينهما حبل ليف التف على خاصرتيهما فخاضا.

قال لها وهما في اندفاع الماء وغضبه: يا نوصل رباعة يا يشلنا الوادي رباعة.

هل ستذكره بظلم العم والبلاد والعباد؟

هل ستقول له: وصلنا وما وصلنا يا أخي.

تقف أمام الباب فترتفع يدها لتطرقه، لا يرد أحد عليها، تعاود الطرق ولا يرد أحد، تطرق وتطرق وتطرق ولا أحد يفتح الباب وما من صوت حركة داخل الشقة.

تستند إلى الجدار وتجلس، تطوي قدميها تحتها وتضع الكيس الذي كانت تدسه تحت ذراعها في حضنها، تلف عباءتها عليها، وتنغلق كنقطة سوداء.

لا تعرف الوقت.

في أي ساعة غادرت بيتها؟

كم من الوقت استغرقها المشي من البيت إلى هنا؟

بمن التقت في سيرها؟

لا تتذكر شيئا مما كان ولا تتذكر أنها التقت بأحد.

متكئة على الجدار عمرا وبدا لها أن ما عبرته لحظة، أوليست لحظة تلك التي سرقت عمرها؟ أوليس عمرا ذاك الذي كبر فيه، خطوة وراء خطوة، وضحكة بعد ضحكة، وحرفا يتعلمه تلو حرف؟

أليس عمرا ذاك الذي أنفقته في حبه، ترعاه بماء عينيها، وتغسل قدميه بابتهالاتها، وترطب روحه بالقرآن والدعاء.

أوليس عمرا ذلك الذي أنفقته في التمني، وضيعته في الأمل.

«كان ذاهبا للعلم. قال لي ذلك يا أخي وأنت تعرف، أنت تعرف جمرة العلم التي في دمنا عندما تشتعل بندائه، أبوك من قبل وأنا وهو وحتى أنت.

قال أبوه اتركيه ليتبعه، وأنا تركته، تركته يذهب، أخذ قلبي فقلت سيعيده، أخذ روحي فقلت فلتكن له حصنا حصينا.

قال لي: يا أمي ضاقت بي البلاد، لا علم لي فيها ولا مستقبل.

أنا لا أفهم المستقبل يا أخي، لا أعرف معنى الكلمة، لكنه وهو يقولها، أرى نخيل أبي وفلج العالي يشقه، وأراك هناك تناولني حبات الرطب، وأصابعي تزيل ما علق في طرف إزارك من أعشاب لاصقة.

أرانا كلنا أنت، وزاهرا، وعليا، وأنا، نجلس على العريش، والخضرة على امتداد البصر، وأطفال صغار يلعبون، هل هم أولاد زاهر؟ هل هم أولادك أنت يا راشد؟».

لا تعرف كم بقيت في أسئلتها، حتى سمعت صوت خطوات تصعد السلم، خطوات ثقيلة وسريعة، خطواته، لكنها لم تلتفت.

اقترب الصوت وسقط الظل عليها، رفعت رأسها فرأته.

«كم كبرت يا أخي وكم تغيرت!

زادت سمرتك، وغارت عيناك، وغلظت شفتاك.

ما اكتسبت طولا ولا لحما، لكنك تبدو أضخم في ملابسك العسكرية، وكأن ذراعك بألف ذراع وكتفك بألف كتف».

تجاوزها في الخطو ثم التفت، ونظر فوجدها متكومة على الأرض في عباءتها.

مد يديه فرفعها من كتفيها، صارا في شح الضوء متقابلين، رأسه منكس عليها، ورأسها مرفوع إليه.

استدار وفتح باب شقته وأمرها بالدخول.

منذ زمن لم تسمع صوته، توقف صوته عن الحضور عندما توقف عن المجيء إليها، ومع الوقت ازدادت خشونته.

قال لها علي إن الجنود في الثكنات يكثرون من التدخين، يقول علي إن رفقة الجنود البلوش علمت راشدا التدخين، وإن رفقة الإنجليز علمته أشياء أخرى.

في الفترة الأخيرة صار علي يثقل في الكلام عن أخيها، وكانت تغضب منه ولا تفهم سر الجفاء الذي صار بينهما، لا يتكلمان عنه لكنه يرشح في النظرات والمزاح، المزاح الثقيل.

كانت تقول لعلي معاتبة: توقف عن أخي، فيتوقف حتى يأتي ذكره مرة أخرى، فيقول فتسكته فيعود.

صار راشد موضوع خلافهما بعد أن اجتمعا عليه، تعرف أنه مع كل ذلك يحبه، لكن ليس كحبها، ليس كحبها شيء.

دخلت شقته، فوجدتها مظلمة، وهواءها ثقيلا، حتى امتدت يده فأشعل الضوء، في النور المباغت رأته بوضوح لأول مرة منذ زمن، رأت وجهه الذي نحتته قسوة الحرب، هل قال لها يوما إن الحرب حولته حجرا؟

يسألها عن علي فتجيبه، يسألها عن حالها فلا تقول شيئا، يحل بينهما الصمت، والنظرة بينهما نصل.

يريد أن يبدد الوجع بالكلام فيعود ليسألها فتقاطعه.

- تعرفي أني ما لي حيلة.

- كيف ما لك حيلة وأنت منهم؟

- أنا عسكري.

- أنت ضابط كبير وعلى صدرك نياشين.

- لكن ما لي قدرة على كل شي.

- بعدني ما طلبت منك شي.

- أعرف طلبش، وما لي قدرة عليه.

- تتذكر؟ قلت لي هيا نخرج من السراير وخرجنا، قلت سكني مع الأغراب وسكنت، قلت تزوجي علي وتزوجته. ما طلبت منك شي، وأبدا ما قلت لك لا.

ينكس عينيه أمام عينيها المتقدتين بالغضب، والمكسوتين بالخيبة، ثم يتغير صوتها، يأتيه بلوعته الكاملة وكأنه عويل.

- زاهر يا راشد.

- أعرف، وما لي حيلة، زاهر مع الجبهة، شيوعي.

قال الكلمة لكنه تهرب من عينيها عندما نطقها.

- مو يعني شيوعي يا راشد؟ سمعتهم يقولوا الشيوعي كافر. لكن زاهر ما كافر، أنت تعرف، ولدي ما كافر، ولدي ما كفر بربه، يعرف ربه وكتابه ونبيه.

يمكن كفر بالظلم كما كفرت أنت به، تتذكر يوم لفيت عليّ حبل الليف، وقلت نخرج من بلاد الظُّلام وخرجنا؟ يمكن شافها بلاد ظُلام، وخرج عليها، بس ولدي ما كافر.

أنت تعرف أن زاهر ما شيوعي، ولدي مؤمن، أنا مربيتنه على الصلاة، ومخافة الله ومحنكتنه بقول «الله أحد». ولدي ما شيوعي يا راشد، لو الكل كذب والكل قال، أنت تعرف أنه ما شيوعي.

- لكنه مرصود في ظفار، متسلل من اليمن، ويقاتل مع الثوار الشيوعيين.

- يمكن طالع عليك، على خاله، عسكري، مو فيها؟ لكن لأنه ما معكم استوى شيوعي؟ يمكن ما مثلكم، لكنه ما كافر.

- ما أقدر أسوي له شي.

- تقدر يا راشد، أكيد تقدر. تشفع له عند الإنجليز.

ثم أخرجت من تحت عباءتها كيس القماش، مدت يدها إليه، ودموعها جمرات تهطل، تكسر صوتها في الرجاء.

- هذه قروش بنت الخواضة، عطيتني ياهن، وقلت ضميهن حال زاهر يوم يكبر، تتذكر؟ خذهن... خذهن فدية عنه، مستجيرة بك أخوي، مستجيرة بك، قول حالحكومة هذه فدية دمه.

قول لهم ختي ما حيلتها غيره، خبرهم، قول لهم مربيتنه على المصحف، وداسّة الله في قلبه، قول لهم زاهر ما شيوعي.

كان تريدوا له أدب أنا بأدبه، وحدي بقيده بقيد من حديد في الحجرة، وما بخليه يخرج منها، ولا يسير مكان.

لا تنكس رأسك يا راشد... لا تهزه. خذ القروش، ورد لي زاهر.

تشفع له أخوي، تشفع له، لا تخليهم يقيدوه في الجلالي، أخاف كان شلوه ما يردوه.

رفع عينيه إليها وأمسكها من كتفيها ليهدئ من ارتجافها.

- أنا تو ما بيدي حيلة، زاهر اختار يكون مع الثوار، يشل سلاح ويحارب، والمعارك في ظفار ليل نهار، القتلى منهم ومنا، ما أقدر أضمن حياته هناك، ما أقدر أوعد أنه بيرجع، أتفهمي؟

بس لو طاح في يدين الحكومة، لو شلوه أسير، أوعدش أني وحدي بتشفع له عند القادة، وحتى عند السلطان، وأحصل له عفو.

يكمل، والدموع تحرق عينيه، فيقاوم سقوطها.

- سمعيني، أنا وعدتش، وأنت تعرفيني ما أرجع عن كلمتي ولو السكين على رقبتي.

ترجع خطوة للوراء فتفلت من يديه، تنظر في عينيه، تعرف أنه صادق، أو تريد بكل ما فيها أن تصدق أنه كذلك، تريد أن تصدق أن ابنها سينجو، وأنه سيقع أسيرا هناك وأنه سيُحمل إلى مسقط وأن خاله سيعيده إليها، تحب أن تصدق كل ذلك، لكنها تهجس بغير ما تحب.

28

كلما نظرت في المرآة تتبعت بأصابعها حركة أصابعه على وجنتيها وهما واقفين عند شجرة الرمان، ترى البريق في عينيه، شوقه إذ يطل منهما ولا يداريه.

ترى أصابعه تمسك بذقنها، وترفعه قليلا، تراه يهم بها فترتجف.

تغمض عينيها وكأنها تخبّئ تلك اللحظة عن الصورة التي تنعكس أمامها في المرآة الآن، تخبئها وكأنها تضن بها على الحدوث إلا في الذاكرة أو بين يديه عندما يعود.

بأصابعها البيضاء الدقيقة تحل ضفائرها، وتمشط شعرها المطيب بالياس والمخمرة، تمشطه وتغني له وكأنها إذا ما غنت له زاد طوله وقصر انتظارها.

تتذكر قصة (زنزكية) التي كانت غزلان تحكيها لهم عندما يتعبون من اللعب فيجلسان إليها في الظل عند درج البيت.

زنزكية، الفتاة المتمردة التي هربت من البيت عندما عرفت بأن أهلها ينوون تزويجها بمن لا تريد.

هربت وصعدت الجبل، حاول أهلها الوصول إليها، طلبوا منها أن ترمي بضفيرتها كي يتسلقوا الجبل إليها فرفضت، ناداها الأب، نادتها الأم، ناداها الأخ الأكبر فلم تستجيب، حتى ناداها أخوها الصغير الذي تحب فأرخت ضفيرتها إليه فتسلقها نحوها في أعلى الجبل، وهربا من البلاد معا.

تتذكر ضحكة زاهر، كان شيء ما في الحكاية يضحكه، يسأل غزلان بمكر لا يخفيه إن كانت توجد بنت لها ضفائر طويلة بارتفاع الجبل.

تجاوبه غزلان:

- هذا خبر وفي الخبر كل شي يستوي.

- يعني ما شي بنية اسمها زنزكية وعقوصها طوال؟

فتجيبه غزلان وقد أتعبتها أسئلته:

- ما نعرف، يمكن شي ويمكن ما شي، بس في الخبر شي بنية اسمها زنزكية وعقوصها طوال.

تقاطعه مزنة:

- زاهر ويش فيك؟ خلينا نسمع الخبر. هاه غزلان، خبرينا ويش صار بعدين؟

تعود غزلان لإكمال القصة ويعود هو لمناكفتها.

عند شجرة الرمان يقول لها: «خلي شعرش يطول كما شعر زنزكية، ولو سجنوش في الجلالي أنا أطلع عليه وأخرجش من هناك».

«وأنا ويش سويت؟ ليش يسجنوني في الجلالي؟» تسأله معترضة على فكرته.

يرى عبوسا خفيفا على وجهها فيضحك، يقول لها: «يعني أنت تصدقي أنه شي بنية اسمها زنزكية وشعرها طويل واجد يطلعوا عليه الجبل؟ تراها كلها أخبار، وهذا يمكن بيستوي خبر».

تعود إلى مرآتها فترى وجهها الذي نحل قليلا منذ أن سافر، قال سيعود، وسيتزوجان، وسيكون لهما بيت وظل، لكنه منذ أن سافر هذه المرة قلّت رسائله ثم غابت تماما، والمعلمة ريّا لم تزرهم منذ مدة، ولا تفتح الباب لغزلان إذا ما ذهبت إليها لتطمئن.

تفرق شعرها عند منتصف جبهتها، تفرق شعرها إلى جزئين ثم تبدأ في عقص ضفيرتها.

يأتيها صوت من الأسفل، صوت غزلان وصوت المعلمة، يمتزجان في حديث لا تفهمه، تصيخ السمع لكن لا يصلها أكثر من صوت دون كلام، ثم يسكت الصوت حتى تنضم إليهن أمها فيعود ليرتفع.

* * *

تركت أخاها في شقته وراء السور لكنها لم تعد إلى بيتها، ذهبت إلى بيت الباغ الذي لم تزره منذ أن اختطف البرد علياً ويبسه، وكلما جاءت غزلان لتزورها لا تفتح لها الباب.

فتحت لها غزلان ورأت ما في حالها من الوهن، قادتها إلى الحجرة وهي تسألها عمّا فيها، وتتأسف على حالها، أجلستها ثم ذهبت مسرعة لتنادي البيبي.

دخلت البيبي ورأت صديقتها على تلك الحالة، تسند رأسها إلى الوسادة، ووجهها يتصبب عرقا، على وجهها صفرة، وتحت عينيها هالات زرقاء، صوت تنفسها يعلو بثقل حتى يكاد أن ينقطع، أمرت غزلان بإحضار طاسة ماء.

مسحت البيبي وجه ريّا بالماء، مرة تلو مرة وهي تتلو الشهادة، وريّا مذهولة عمّا حولها.

عيناها مفتوحتان لكنها كانت وكأنها لا ترى.

- وش فيش يا ريّا، عسى ما شر، خبريني ويش صاير، أنتين مريضة؟ فيش شي؟

لم تقل ريّا شيئا، بل أشارت بعينيها فصرفت البيبي غزلان.

قالت بألم الشقي، وهي منكسة رأسها وتهزه متجنبة عيني البيبي.

- يقولوا زاهر في ظفار... يقولوا زاهر مع الشيوعيين.

- من يقول؟ كذابين، زاهر ولدنا ونعرفه زين.

- راشد خبرني أن زاهر مرصود في ظفار، شال سلاح، ويحارب الحكومة.

صرخت البيبي ولطمت وجهها:

- يا ويلي، يا ويلي يا ريّا، يا ويلي على زاهر... يا ويلي على وليدي.

- يقولوا أنه شيوعي، يقولوا أنه كافر، أنتي تعرفي زاهر، زاهر ما شيوعي، زاهر ما كافر.

- أعرفه، أعرفه ريّا، لا حول ولا قوة إلا بالله، ويش سوا هالولد في روحه؟!

ثم أخذت صديقتها في حضنها وبكتا.

سمعت غزلان الكلام وهي واقفة عند الباب، ركضت دون أن تشعر إلى مزنة، وجدتها عند باب حجرتها تطلّ بعينين هلعتين، لم تسألها شيئا ولم

تعطها فرصة لتقول، هبطت السلم إلى الأسفل قفزا وشعرها الذي لم يكتمل تضفيره بعد ينوح خلفها.

وقفت عند الباب، رأت أمها تحضن المعلمة وصوت نشيجهما يملأ المكان، عرفت أن أمرا عظيما قد حدث وأن زاهرا...

شعرت بقلبها يسقط...

سقطت عند الباب، وتساقط على أرض البستان رمان كثير.

29

كانوا اثني عشر رجلا، أكبرهم لا يتجاوز الخامسة والعشرين وأصغرهم في السابعة عشر من عمره، بعضهم تدّرب معه في المخيمات، وغادر بيروت مثله إلى عدن، وبعضهم التقاه في عدن قادما من البصرة أو دمشق أو من أماكن أخرى، والبقية كانوا من أهل الجبل العارفين مسالكه.

تحتهم منحدر صخري يلاقي البحر بحدة صخوره، والدرب الضيقة تلتوي على الجبل وتصعد بهم، يتحركون بحذر متجنبين دوريات الجيش والسقوط في البحر المتلاطم تحتهم.

في طريقهم تعرضت القافلة أكثر من مرة إلى إطلاق نار من قوارب الجيش التي كانت تحرس الشاطئ، وتصوب نيرانها على الدرب إذا ما لمحت حركة ظلالهم على الصخور.

كان هدفهم الوصول إلى (شرشتي) التي تستخدم بعض كهوفها مخازن للأسلحة والمؤن، انطلقوا من (الحوف) إلى (صرفيت) ومنها إلى (ضلكوت).

كانت (شرشتي) وجهتهم، يصلونها فينزلون في كهوفها ما حملوه معهم

من أسلحة ومؤن، ومنها يتسللون عبر (خط دامفاند) إلى (رخيوت) ثم يقطعون (خط هورنبيم) ويصلون (المغسيل) حيث سينضمون إلى الرجال المرابطين هناك، ثم سيبدؤون الهجوم الواسع على صلالة، وتطويق القاعدة الجوية.

كانت الأخبار قد وصلتهم وهم في التدريب عن الانقلاب، ووصول السلطان قابوس إلى الحكم، لكن ما كان ذلك ليغير شيئا من قناعاتهم.

مقتنعين بأن الأسماء تتغير لكن ما دام النظام هو النظام فالظلم هو الظلم، كان يرى الثورة قائمة حتى يتحقق النصر على الأنظمة الرجعية، فيكون الحكم للبروليتاريا، كان مؤمنا بأن الشعوب وحدها صاحبة الحق في تقرير المصير، وقيادة البلاد نحو الحرية والعدالة، في ثورة أممية لا مكان فيها لقبول الأنظمة الملكية الخاضعة للإمبريالية.

كان زاهر في ملابس الثوار، يصعد المسالك الوعرة مع الرجال حاملا الكلاشينكوف، وفي حزامه سكين، وأربع قنابل يدوية، ويعلق على كتفه كيسا من القماش السميك.

كان يصعد معهم، يعرف إلى أين هو ذاهب، يرى النصر قاب قوسين أو أدنى، يرى الفرح الذي سيملأ سماء مسقط، وعين أمه، وقلب حبيبته عندما سيعود، وعندما ستتحرر البلاد من الظلم والرجعية والتخلف.

سيُنشئون المدارس، سيكون هناك مستشفيات، ستُشق الطرق، سيتساوى الناس كلهم، لن يكون هناك سادة أو عبيد.

ستكون عمان حرة، ومتحررة من الصراعات التي تغذيها الإمبريالية لتبقى الشعوب في حالة من التبعية والذل والهوان.

كان يرى عيني أمه ويبتسم لها، كان يسمع ضحكة مزنة فيزداد حماسة في

كل خطوة، سننتصر، يردد لنفسه، سننتصر، فالأرض معنا، والشعب معنا، ولا تغييرَ حقيقي دون دم.

تركوا (ضلكوت) وبحر العرب وراءهم، واتجهوا إلى (شرشتي) وعندما وصلوها وجدوا الكهوف وقد قصفتها الطائرات، فأكملوا سيرهم إلى (ريسوت)، لكن كان عليهم أولا أن يخترقوا خط دامفاند وبعده خط هورنبيم؛ السياجين العازلين الذي كان الجيش قد أنشأهما من الساحل إلى ما وراء الجبال، ليعزل المناطق عن بعضها، في محاولة لمنع تسلل الثوار، وقطع الإمدادات عنهم في المنطقة الوسطى والغربية.

كان على كل خط عدة مواقع لتمركز قوات الجيش، لذا كان عليهم أن يسيروا باتجاه الشمال، ويتوغلوا إلى الداخل أكثر، متجنبين مواقع الجيش والمواجهة معه.

يتحركون في الليل حتى لا ترصدهم فرق الاستطلاع والطيّارات.

بعد حوالي أسبوعين من السير الحذر، وتجنب كمائن الجيش، وصلوا مغسيل؛ فوجدوا رفاقهم قد تحصنوا داخل واحد من كهوفها الكبيرة، فأنزلوا حمولتهم واستراحوا.

في تلك الليلة باتوا داخل الكهف الكبير، ناموا كالموتى، فلم يسمعوا هدير الطائرات ولا أصوات الرصاص.

في صباح اليوم التالي استأنفوا سيرهم مرة أخرى عبر مسالك الجبال الوعرة، قاصدين ريسوت، حيث توجد قاعدة للثوار، ومقر لفرقة جيفارا، ومنها تنطلق العمليات العسكرية في سهل صلالة.

كانوا يسيطرون على جزء كبير من الأرياف، لكن البلاد لن تسقط في أيديهم حتى تسقط المدن الكبرى مثل مرباط وصلالة، كل تقدم لهم على

الأرض يمنحهم الثقة، ويشجّع الناس أكثر على الالتفاف حولهم، وكل خسارة جديدة تشي بضعفهم وتحث البعض على الانشقاق.

كانت تردهم أخبار عن المنشقين من الثوار، أولئك الذين استسلموا للجيش في المعارك أو الذين استسلموا طوعا دون الدخول في مواجهة.

كما وصلتهم الأخبار، أن الجيش قد أنشأ فرقا من أهل الجبل، ومن الثوار المنشقين، أُطلقت عليها الأسماء بذكاء؛ فرقة صلاح الدين، الإخلاص، خالد بن الوليد، وطارق بن زياد وغيرها.

كان الجيش يستخدم أهل البلاد والمنشقين لقمع الثورة التي بدؤوها بأنفسهم، يُصوّر لهم أن الثوار ما هم إلا مجموعة من الشيوعين الكفرة يريدون لهم أن يرتدوا عن دينهم.

لكن الثوار كانوا مشغولين بين كرّ وفرّ، يتقدمون في منطقة ويتراجعون في أخرى، يستولون على قرية ويفقدون أخرى، كانت الحرب وكانت بطبيعتها سجالا.

في تقدمهم نحو المغسيل تعرضوا لكمين من الجيش، فقدوا فيه رجلين وجُرح آخر فاضطروا إلى حمله مسافة طويلة حتى وصلوا إلى مقر الثوار، كان الرجل منهكا من شدة النزف وبعد المسافة؛ فلم يتحمل إلا تلك الليلة ثم مات في صباح اليوم التالي.

في كل خطوة وفي كل هجوم كان زاهر يتعلم شيئا جديدا عن الحرب، لكن أهم ما تعلمه هو أن الحرب في ظفار لا تشبه ما تدرب عليه في المخيم، إن واقع الأشياء يختلف تماما عن الأحلام والتصورات والأمثلة.

هنا عليك أولا أن تعرف البلاد وأن تفهم طبيعتها وطبيعة أهلها، أن تكون سريعا وقادرا على الاختباء والظهور بقدر ما تحتاجه لتصويب

رصاصة أو إلقاء قنبلة فقط، هنا عليك أن تعرف قياس المسافات بنظرة، أن تعرف بدقة أين تزرع الألغام حتى لا تنفجر تحت أقدام الفريق الخطأ، ثم عليك أن تتعلم كيف تنزعها بحذر شديد وتعيد دفنها في مكان آخر.

هنا عليك أن تتحمل الجوع والعطش والسير مسافات طويلة، وأن تشرب ماءً غير نظيف وأن لا تستحمّ لأيام طويلة وأن تعتاد رائحتك وروائح رفاقك، والأهمّ أن لا تناقش ولا تعصي الأوامر، في الحرب أنت آلة قتل، عدوّك واضح جدا فصوب بنية القتل لا الجرح، وفجر الأرض تحت قدميه، فلا مكان للرحمة هنا.

كان زاهر يخرج أحيانا مع عدد بسيط من الرفاق لا يتجاوز الثمانية؛ لينفذوا عمليات مختلفة، يزرعون الألغام في الطرق التي تستخدمها سيارات الجيش، أو ينصبون الكمائن للجنود المتوغلين نحو مناطق سيطرتهم، فيصطادونهم بيسر الواحد تلو الآخر.

ثم، وعند الذكرى السنوية الأولى لجلوس السلطان قابوس على العرش، قرّر الثوار التقدمَ أكثر باتجاه صلالة، ومهاجمة معسكرات الجيش، فقاموا بالتسلل إلى (وادي صحنوت)، ونصب قاذفة صواريخ موجهة إلى مقر القوات الجوية في صلالة ومهاجمته، وبالفعل أصابوا عدة طائرات هيلوكوبتر، وألحقوا بها الأضرار حتى أن بعض الطائرات لم تعد قادرة على الطيران والقيام بمهامها في تزويد فرق الجيش بالمؤونة. كما أنهم نجحوا في قتل ثلاثة جنود، وأصابوا أحد الضباط الإنجليز بإصابات بالغة.

كانوا يظهرون بخفة، ويتقدمون بين الأحراش والصخور بخفة، ثم يتراجعون بالخفة ذاتها، ومع أن تحركاتهم ترصد أحياناً من الجو إلا أنهم ما يلبثون أن يختفوا، وكأن في الأرض شقوقا خفية ومسارب، تنفتح لهم فيختفون في بطونها، كانت الأرض أرضهم، يعرفونها جيدا، وتعرفهم.

وقعت كثير من المواجهات قبل بدء موسم الرياح الموسمية، لكن عندما بدأت الأمطار اضطروا إلى التراجع إلى الجبال، والتحصن بكهوفها ومغاورها، في فترة من السكون، وللاستراحة واستعادة القوة، والحصول على التعزيزات.

أما الجيش فكان يعتبر موسم الرياح الموسمية أيضا فترة من الهدوء؛ لأن طائرات الهليكوبتر لم تكن قادرة على الطيران في الضباب الكثيف، وإيصال التعزيزات، والتموين إلى فرق الجيش المتمركزة في الجبل، فتدخل العمليات العسكرية مدة شهرين أو ثلاثة في حالة من الهدوء، هدوء يستمر حتى ينقشع الضباب، وتبدأ المواجهات التي كانت تبدو بلا نهاية.

بعد موسم الخريف أصبح الجيش يتقدم من جهة فيتراجع الثوار من جهة أخرى، ثم يعودون فيتقدمون في منطقة أخرى فيتراجع عنها الجيش.

أمام كل تقدم تراجع، ولكل تراجع نية التفاف وتقدم من ناحية أخرى، وكأن ما بين الجيش والثوار رقصة وحشية على وقع طبول الدم والثارات.

في أثناء ذلك كان راشد قد قام بالاستجواب، والتحقيق مع العديد من الثوار المنشقين في محاولة لرصد المجموعة التي انضم إليها زاهر، والمنطقة التي تنفذ فيها عملياتها.

لم يستطع راشد أن يعرف أكثر من أن زاهرا غادر فرقة جيفارا، وانضم إلى فرقة لينين في المنطقة الغربية والمتمركزة في (وادي دربات)، وأنها مجموعة بقيادة قوية وأفراد منظمين وجيدي التدريب، وأنها انتقلت من تنفيذ العمليات في سهل صلالة إلى المنطقة الغربية، وأنها تنوي الاستيلاء على (طاقة) في وقت قريب.

خرجت دوريات الجيش بكثافة لتمشيط وادي دربات بحثا عن الثوار،

إلا أنهم لم يتمكنوا من القبض على أي من أعضاء الفرقة، ثم بعد أن بدأت الرياح الموسمية وغلّف الضباب الجبال؛ توقفت حركة الجيش والثوار وازداد قلق راشد.

ماذا عساه يقول لريّا إن لم يستطع أن يقبض على ولدها حيا ويعيده إليها؟ ولدها الذي لم يعد يستطيع أن يتعرف إليه وسط الثوار حتى لو أراد واجتهد، فآخر صورة حصل عليها من المخابرات التقطت له وهو بعد في الكويت، تظهره شابا بهيا بعينين لامعتين وذقن حليق، يرتدي الدشداشة الكويتية، وبعلامة لجرح قديم يغور من طرف جبهته الأيمن ليختبئ تحت شعره الكثيف، لكن هذه الصورة ربما لن تشبه صورة الشاب الذي لابد أنه قد نحل كثيرا في الأشهر الماضية، وطال شعر رأسه وذقنه في الأحراش، وربما كان يعمد إلى تلطيخ وجهه بالطين الأسود كما يفعل الثوار في حرب العصابات إمعانا في التخفي.

كل يوم يمر دون معلومات جديدة عن موقع زاهر المحتمل؛ يزداد راشد حيرة وقلقا، ولا يعرف كيف سيتعامل مع هذا الأمر.

هو رجل عسكري، وعلى رؤسائه أن لا ينتبهوا لعلاقة القرابة التي بينه وبين الذي يطلبه، ويجند بعض الأفراد والثوار المنشقين لرصده، ورصد تحركات فرقته، لكن هذا لن يضر بمصالح الجيش، يقول لنفسه، بل ربما ساعده ذلك في الحصول على معلومات جديدة، تُمكن الكتيبة التي صارت تحت قيادته من التوغل أكثر، والقضاء على الثوار في معاقلهم، وللوصول بهذه الحرب إلى نهايتها.

عليه أن يحرص على سلامة زاهر، عليه أن يصل إليه قبل الآخرين، ويأخذه أسيرا، كان يريد أن يقنعه بالعودة عن الأفكار التي يحملها، يريد أن يجده بخير، وأن يأخذه إلى ريّا كما وعد، ولو اضطر إلى حمله على كتفه مصابا،

ويسجيه بين يديها فتداويه، وترعاه، وتعيده بحكمتها إلى صوابه.

يرهقه تذبذب مشاعره، وقلقه على زاهر، وغضبه وأسفه على علي وحزنه على ريّا، وشيء من الحرج يجده أمام الضباط الكبار، كيف يفسر ذلك لقادته لو سألوه؟ كيف يكون هو على جهة وابن شقيقته على الجهة الأخرى؟

لكن ذلك يحدث دائما، أليست هذه الحرب اللعينة حرباً بين الإخوة وداخل البيت الواحد؟

أما زاهر فلم يكن يعرف أيا من هذا، لم يكن يعرف أنه المقصود تحديدا بالكمائن الصغيرة التي تعرضت لها مجموعته في الفترة الأخيرة، لم يكن يعرف أن خاله يحاول أن يوقع به ليأخذه إلى أمه أسيرا لم يمسه الرصاص.

كانت أمه تخطر في باله إذا ما جلس على الأرض، أو وضع ظهره في استراحة قصيرة، وكانت مزنة تأتيه في الحلم، يراها وهي تكتب له الرسائل بغصن رمان على أرض موحلة، ترفع عينيها إليه فيجد في عينيها أسئلة وحيرة.

تعنّان على باله في أوقات خلوته النادرة، أما أثناء المواجهات فلم يكن يفكر إلا في من هو أمامه، في عدوه الذي يرتدي زي الجيش، ويتحصن خلف دفاعاته.

كان منهكا والحرب طويلة جدا حتى بدت وكأنها بلا نهاية، وأعداد الثوار المنشقين في تزايد ومواقعهم في تراجع، والذخيرة والمؤن لم تعد تصلهم، فكانوا يضطرون إلى التسلل للقرى المتعاطفة حيث يزودهم الأهالي بالغذاء، أما الذخيرة فكانوا يحاولون استخدام ما يملكون منها بحذر شديد، حتى تأتيهم الإمدادات الجديدة عبر حركة القوافل التي صارت غالبها لا تصل بفعل المراقبة المشددة، والقصف الجوي والبحري المستمر للمسالك المعلقة على حواف الجبال، والتي كانت معابرها الوحيدة إليهم.

لم يكن زاهر يعرف عن رصد خاله له شيئا، وربما لو عرف لازداد غضبه، فهو منذ أن قرر أن ينضم للثوار كان يعرف أنهما ما عادا على الجانب ذاته من المعادلة، وأنهما منذ تلك اللحظة صارا عدوين.

كان يعرف أن حب رّيا لهما، ومهما كان عظيما وجميلا، لم يعد قادرا على لمّ شملهما وصنع الجسور. بينهما الآن ما بين الأعداء من حقد وثأر.

كانا على جهتين متقابلتين، يحاربان في الحرب نفسها، وعلى الأرض نفسها، وللأسباب نفسها، وبالمسوغات والمبررات نفسها، لكن كلاّ منهما يراها من زاويته، وينظر إليها بعينه وحدها، مع كل ذلك لم يخطر في باله أنه ربما سيضطر لمواجهة خاله في الميدان ذات يوم، وأنه سيعرفه، ومع أنه سيعرفه سيطلق عليه الرصاص غير مكترث، أو يغرس خنجره في صدره دون أن تمنعه وشيجة الدم، أو ميثاق الخؤولة في دمه.

لم يخطر ذلك في باله أبدا، فتلك أشياء لا يفكر فيها من يصبح السلاح في يده.

كل يرى أنه صاحب حق، ولصاحب الحق أن ينتزعه، لأجل المبادئ العظيمة والأفكار الكبيرة، لأجل البلد والشعب والتحرير ترفع البنادق والرايات وتقدم التضحيات، هكذا كان زاهر يرى من الضفة التي يقف عليها، وهكذا كان راشد يرى من ضفته أيضا.

30

السهل أمامه منبسط وفسيح، يستطيع من مكانه أن يسمع صوت ارتطام موج بحر العرب بصخور الشاطئ الحادة، يستطيع أن يشم رائحته التي تنطلق في عمق الليل فتدوخ البحارة والمسافرين.

القمر مكتمل وأشعته تكشف السهل إلى حد كبير، وتنعكس على صفحة البحر فتتلألأ تموجاتها تحته.

أخرج المصحف من حقيبة القماش التي يحفظه فيها، وشمّه طويلا ثم قبله، فتحه عند سورة الرحمن، وأراد أن يقرأ فيه قليلا، لكن العتمة رغم ضوء القمر لم تسمح له برؤية الخط الدقيق الذي يسيل فوق الصفحات، فأعاده إلى داخل الحقيبة واسترجع كلمات الله في قلبه.

«الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ».

يكاد يسمع صوت أمه، وصوت مزنة الطفل يردد الآيات وراءها، أعجبهما لحن السورة فتعلقا بها، كانا يرددانها طوال الوقت فحفظاها بيسر.

لم يكونا ليفهما معنى الكلمات، ولم يكن يهمهما ذلك، لهما من الكلمات

ظاهرها، ولا يحتاجان لأكثر من الصوت ليعرفا ما وراء الحرف من معنى وجمال.

قال لها في آخر لقاء بينهما: أحببتك عندما خلق الله الإنسان، فردّت عليه وأنا أحببتك عندما علمه البيان.

كانت سورتهما، وكأنها أُنزلت لأجل أن يلتقيا على حبها، فيحل كل واحد منهما في الآخر.

«الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ».

سمع صوت القائد ينبههم لحلول ساعة الهجوم على (مرباط)، الساعة التي كانوا ينتظرونها منذ مدة فيستولون فيها على المدينة، لتصبح معقلا لهم في المنطقة الغربية بعد أن فقدوا (سدح)، وأعاد الجيش الاستيلاء عليها قبل شهور.

في أول الليل حدث خلاف بين القادة، كان القائد العام يريدهم أن يتقدموا في تلك الليلة عينها فيأخذوا (مرباط) على حين غرة في هجوم بسيط وسهل، خاصة وأن أعداد الجند فيها قليل بعد أن غادر أكثر من نصف الفصيلة المقيمة للبحث عن الثوار في المناطق المجاورة.

لكن القادة الآخرين نبّهوا إلى أنها ليلة مقمرة، وأن الضوء سيكشف تحركاتهم، مع ذلك رجح رأي القائد العام، وخرجوا إلى مرباط.

هاجموا بقوة منظمة من مئتي رجل ويزيد، خرجوا من قاعدة الجبل في هجوم موحد ثم تفرقوا إلى مجموعات صغيرة، وقصدوا ثلاثة مواقع رئيسية لتطويقها، والقضاء على من فيها من الجنود.

تقدموا بسرعة تحت ضوء القمر الكاشف، عبر المنبسط الفسيح الذي يفصل مرباط عن الجبل.

مجموعة كبيرة اتجهت إلى القلعة التي تقع على مرتفع يشرف على المنبسط الذي تقدموا فيه، وكانت الخطة تطويقه، والتسلل إلى داخله، والقضاء على من تبقى فيه من العسكر.

ومجموعة اتجهت إلى تحصين صغير عند الشاطئ، لتقضي على من فيه من الجنود وتستولي عليه، وأخرى اتجهت إلى مقر الوالي لتأخذه.

في تقدمهم، لم ينتبهوا لوجود بضعة أفراد وضباط من فريق التدريب البريطاني في أحد البيوت، ولا إلى الجندي العماني الذي يقف وراء المدفع الرشاش الذي يحمي القلعة.

كان الجندي العماني وحيدا عندما سمع صوت إطلاق نار من الجهة الغربية، حيث حدث الاشتباك الأول عند الشاطئ، ثم تنبه إلى حركة الثوار المتقدمة في المنطقة الجرداء أمامه، فصار يطلق النار بكثافة في كل الاتجاهات.

أصابته رصاصة في وجهه لكنه تحامل على إصابته، وظل يطلق النار من مدفعه الرشاش، انتبه الضباط الإنجليز إلى ما يحدث فخرجوا من البيت واتجهوا إلى القلعة، حل واحد منهم خلف المدفع الرشاش بدل الجندي العماني المصاب، وصار يطلق النار على المهاجمين بكثافة مجنونة في محاولة لمنعهم من التقدم، بينما بقية الجنود يطلقون النار من بنادقهم فيُسقطون الثوار الذين ما كان سطوع ضوء القمر في صالحهم، مع ذلك لم يتوقفوا عن التقدم نحو القلعة بعناد شديد.

داخل البيت تخلّف ضابط لإرسال إشارة إلى قاعدة صلالة ينبه إلى الاشتباك مع قوات العدو، ويطلب المساعدة الجوية.

استمرت الاشتباكات بين الجنود والثوار، حتى جاءت طائرات السترايك ماستر، وبدأت بقذف حممها على رؤوس الثوار، فقتلت

الكثيرين منهم، وأصابت الكثيرين، واضطر البقية إلى التراجع ففروا إلى مواقعهم في الجبل.

فشل هجوم الثوار على مرباط، وكلف قوات الثورة خسارة كبيرة، أما الجيش فقد استطاع القبض على عدد كبير من الأسرى، والاستيلاء على الكثير من العتاد والذخيرة، وبدأ بتمشيط الوديان والجبال المحيطة بمرباط بغية تطهير المنطقة من الثوار.

* * *

أدى العسكري له التحية ثم فتح باب الزنزانة فخطا راشد إلى الداخل خطوة واحدة ثم توقف.

كانوا عشرة أسرى محشورين في زنزانة ضيقة، يظهر على بعضهم التعب واليأس، لكن عيون البقية لا تنطق إلا بالغضب.

تفرس راشد في الوجوه التي أمامه بحثا عن وجه زاهر، هل سيعرفه؟

لم يستطع تمييزه، فنادى على اسمه، فلم يستجب أحد، نادى عليه مرة أخرى فلم يستجب له أحد أيضا.

صرخ فيهم بحدة إن لم يعلن المدعو زاهر بن علي بن زاهر الجويري نفسه، سيعاقب الجميع.

حينها فقط رفع فتى هزيل يجلس في ركن الزنزانة رأسه، ونظر في عيني راشد بعينين من دم ثم قام.

شق طريقه بين الأجساد المتراصة، ووقف أمامه وقال له: أنا زاهر، زاهر بن علي.

نظر في عينيه طويلا بحثا عن الطفل الذي خلّفه ابن سبع سنين في حوش

بيتهم في ميابين، يعلمه الكتابة، ويقرّعه على سوء خطه، ويتسلق البيذامة، وينام في حضن أمه قبل أن يكمل عشاءه من فرط التعب.

«اتبعني».

قالها واستدار مغادرا الزنزانة، فتبعه وفي مشيته عرج خفيف.

وصلا إلى غرفة التحقيق، طلب منه الجلوس وبدأ في استجوابه، سأله عن تاريخ انضمامه إلى الثورة، وأسباب انضمامه، ومن هو قائد الهجوم على مرباط؟ وكم عدد الثوار المنتشرين حول مرباط؟ وأين يتمركزون؟

كانت إجابة زاهر التي يلقيها في وجه راشد بغضب، وازدراء المرة تلو الأخرى: لا أعرف، لا أعرف.

- تعاون معنا حتى ما تتعرض لأمور ما تقدر تتحملها، جيش السلطان يتقدم، ومراكزكم، وتحصيناتكم تسقط الواحد ورا الثاني. الثوار كل يوم يعلنوا التوبة، ويرجعوا، ويستسلموا للجيش وللحكومة بالعشرات.

يصمت قليلا ثم يتابع:

- أسباب الثورة خلاص انتهت، وأمور البلاد تتحسن، السلطان وعد...

قاطعه زاهر بخليط من غضب وازدراء:

- ما انتهى شي، وما تغير شي غير الأسامي.

يعرف راشد أن ما بزاهر يحتاج إلى مداهنة، وطولة بال.

- نحن فاهمين سبب الثورة، ظلم الناس، الفقر والجوع والمرض. لكن التو بس خلاص كل شي تغير، من جا السلطان كل شي تغير.

- أنا ما لي خص بمن يسير وبمن يجي، لكن أعرف أن الأشياء لازم تتغير ولازم تتغير من الجذور.

يأخذ راشد نفسا عميقا، يغمض عينيه ويتراءى له وجه ريّا، يزفر الهواء حارا من فمه، يخفض صوته، ويهمس له في شبه رجاء:

- يا زاهر اعقل، إذا ما تخاف على نفسك خاف على أمك، خاف على ريّا، تراك بتقتلها بعنادك.

لا يستوعب زاهر صوت الضابط الهامس ولا ذكر اسم أمه فيسأله بحدة:

- وأنت من؟

- أنا المقدم راشد بن سيف العايفي.

عرف أنه خاله، لكنه لم يسمع سوى صدى رتبته العسكرية:

- أنا أمي الأرض، وأنتو كلكم خونة، من صغيركم لكبيركم خونة.

لم يتوقع راشد القسوة في رد زاهر، لكنه بلع غضبه وقال له هامسا:

- أنا أريد أساعدك، اسمع الكلام، وتعاون معنا.

ثم أردف محذرا:

- يا ولدي تراك كان طحت في يد ضابط ثاني ما بيرحمك.

- أنا ما ولدك وما خيفان منكم.

كظم راشد غيضه من عناد زاهر:

- شوف، أنا متعهد لريّا إني برجعك معي، ساعدني ولا تقيد يدي.

- وأنا ما أريد منك مساعدة، وأمي خبرها إن زاهر شهيد، بلغها من باكر، بلغها من التو.

نظر راشد طويلا في وجه زاهر الجامد، كان يعرف أن وراء هذا الجمود

نفسا رقيقة هشة أتعبها ما تحمله.

- بخليك تفكر، فكر فيها، فكر في أمك، فكر في أبوك، فكر في...

- ما شي داعي، هذا كله فكرت فيه قبل عن التحق بالثورة، والثورة ما دايرة تنتهي ولو بعد مية سنة.

وقف راشد ولملم أوراقه التي ظلت بيضاء لم يمسها القلم، وغادر الغرفة بعد أن أمر بإعادة زاهر إلى الزنزانة.

أعيد زاهر إلى الزنزانة، ولثلاثة أيام متواصلة تم التحقيق معه ورفاقه من قبل ضباط مختلفون، إنجليز وعمانيون من الجنوب ومن الشمال، وكانت كل مقابلة تعمر بالصراخ وتنتهي بالكدمات والأنين.

لم يعد راشد لمقابلته إلا قبل ترحيلهم إلى سجن الجلالي في مسقط بيوم واحد، استدعاه إلى غرفة التحقيق وجلس إلى الطاولة ينتظره وهو يفرش الأوراق البيضاء أمامه.

كانت الغرفة بلا نافذة، ولا يملأ فضاءها الإسمنتي غير طاولة مستطيلة وكرسيين من الحديد، فتح عسكري باب الغرفة، ودفع بزاهر إلى الداخل، ثم أغلق الباب خلفه.

ترنح زاهر قليلا إلا أنه تماسك وعاد إلى توازنه وبدأ في جرّ قدميه وهو يعرج باتجاه الطاولة، رفع راشد رأسه وتابع بعينيه اقتراب زاهر البطيء، يتقدم من الطاولة ببطء وعيناه في عيني خاله.

يقف عند الطاولة ويزيح الكرسي، فيتردد صدى احتكاك الحديد بأرضية الإسمنت، يتهالك بجسده على الكرسي، وراشد يتابع حركته بهدوء، يرى الكدمات والجروح الواضحة على وجهه يرى الزرقة القانية حول عينه اليسرى، يقترب منه ويهمس له:

- بعدني أقدر أساعدك، تكلم، وأنا بأطلب لك العفو من القائد، وحتى من السلطان.

تكلم، تراها هذه آخر فرصة، لأنك لو وصلت الجلالي ما شي فايدة، بتتحاكم، وما شي في الحكم رحمة.

رد عليه زاهر وهو يبلع ألمه والدموع تملأ عينيه وتكاد تفيض:

- ما أبغى منكم شي.

ثم أضاف بصوت ضعيف:

- بس أبغاك تخبر أمي شي، قول لها أني ما أحب حد كما ها في الدنيا. قول لها لا تبكي، قول لها بسها عاد من البكي، قول لها زاهر حر ولد حرة، والحر ما يقبل الظلم.

سمع راشد جملة زاهر الأخيرة فشعر بتصاعد الغصة إلى حلقه، ثم بألم يبدأ من مكان إصابته القديمة في وادي بني حبيب، وينتشر بين ضلوعه.

تجمع الدمع في عينيه، وما عرف كيف يعالجه، فنكس رأسه، وما رفعه حتى أتاه صوت زاهر ثانية:

- قول لها الحر ما يخون العهد ولو على رقبته، وقول لها تسامحني، قول لها تسامحني.

* * *

رحلوا إلى مسقط في طائرات الهيركليس، فوج يتبع فوجا.

أغلقت عليهم بوابات زنازين الجلالي، فالتقوا بمن سبقوهم، بالسجناء من مسقط وظفار والرستاق وصور ونزوى.

في الجلالي لم تتوقف التحقيقات، انهار من انهار، واعترف من اعترف، وظل البعض متمسكا بموقفه.

في السجن كان زاهر يذوي، يتبدد بين يدي الضباط والمحققين وكان لا يجيب على أسئلتهم بشيء سوى: لا أعرف، لا أعرف.

31

تخبز له كل يوم، ثم تسوي صرّتها فوق رأسها وتجتاز العتبة، فيصبح قلبها بين خطوتين. تمضي في دروب الحارة التي ألفتها وألفت أهلها، تمرّ بالبيوت التي عرفتها وعرفت أسرارها، فقرها القديم والغنى الموعود الذي ما زال مترددا عند عتباتها.

تعرف أسماء حارات مسقط، تحفظ دروبها من كثرة ترددها فيها، بيوتها الفقيرة وبيوتها العالية. تعرف في أي بيت كانوا يسمعون عبدالناصر وفي أيها كانت تغني أم كلثوم.

تتذكر خطواته في بيت الباغ، ولا تسمع إلا رجع ضحكته الممتلئة بالحياة، وهو يتسلق شجرة الأمبا، ويقذف مزنة بثمارها الغضة، فتصرخ هي ويضحك هو.

تتذكر ضحكته، يا لضحكته، يا لذاكرة قلبها... يا لذاكرتها.

تلتقط أنفاسها، تسوي صرتها الملفوفة على خبز الرخال المخبوز كما يحبه مرشوشا بالسمن والسكر. في الرسائل كان يكتب لها عن شوقه لخبزها، كان يقول لها أشتاقك، وأشتاق رائحة خبزك، وطعم سكره في فمي، فلماذا عندما

عاد لم يعد إليها؟ لماذا لم يعد للبيت وروازن كتب أبيه وخبزها وسكرها؟

تجتاز حارة البحارنة، البيوت على يمينها والمأتم على يساره، خالٍ في هذا الوقت من السنة. تتذكر عندما ذهبوا إليه، هي وهو، والبيبي وبناتها، وغزلان.

كان خائفا من أصوات النساء النائحات، ومشاهد اللطم، وضرب الصدر فاندسّ تحت وقايتها، أما هي فكانت تحب تلك الطقوس، أصوات النساء المتغنيات بالجرح تشبه صوتها لكنها تستره، ونواحهن كنواح قلبها الأبدي وإن كتمته.

كان يخيل إليها أن ذلك النواح يوقظ شيئا قديما فيها، بكاءً كثيرا يختبئ في مكان ما من روحها، دمعاً يُكثره الزمن ثم في لحظة يُسقطه.

تمر بالبيوت، وتمر بها البيوت.

صرتها فوق رأسها ثابتة، وهي تمشي وتمشي، تعرف وجهتها، تنقل خطوتها بثقة العارف وقلبها يعرف أن معرفتها دون جدوى، مع ذلك تصرّ على الدرب، والدرب تأخذها إلى يأسها.

تمشي حذو السوق فترتفع إليها العيون، أهل السوق يعرفونها، أصحاب الدكاكين والباعة والعتالون والمتسوقون. كلهم يعرف قصة ولد المعلمة، وكلهم يعرف ريّا بنت سيف، وكلهم يعرف غايتها ومقصدها، فيتعاطف بعضهم ويغض بعضهم بصره، لكن لا يناديها أحد ولا يسألها أحد.

تتحاشى النظر في وجوهم، وتعرف أن ما بها تعدّى الخجل، وتعدى ما يفرحون به وما يألمون له.

قلبها ثقيل، يكاد يكون حجرا يسقط في كل خطوة، وتكاد من فرط ثقله أن تفلته في الخطوة التالية ليتدحرج إلى ما لا نهاية.

تسرّ في خاطرها قرابين كثيرة تذبحها عند قدميه لو أنجاه الله مما لا نجاة منه.

هل تعرف ذلك؟ هل تعرف أن سيرها إليه يأس ورجوعها يأس؟

تردد أسماء الله التسعة والتسعين كلها كما ورثتها عن أبيها في الدعاء، ثم تتذكر تهمته، فيتردد قلبها.

هل تشك؟

يبقى اسم الله على شفتيها، واسمه في قلبها، تتجاوز شكها وتمزج:

زاهر يا الله!

زاهر يا الله!

زاهر...

الغصة لقمة المقهور... يا الله.

يتكثف الدمع في عينيها لكنه لا يسقط، يضعف رؤيتها للطريق ولا يسقط، غشاوة فوق غشاوة، مع ذلك لا تكف قدماها عن المضي إليه.

تصل إلى ولجات.

بيوت ولجات لا تشبه بيوت الفقراء، لا تحمل روائحهم، هذه بيوت وفرة لم تعرف الجوع. في سيرها تمر بمسجد علي موسى عند السوق، ثم مسجد الزواوي وراء السور على يسار الباب الصغير. تسرع من خطواتها، وكأنها لا تريد لأحد أن يراها، لا تريد أن تستوقفها نظرة أو أن يؤخرها كلام عن مقصدها.

تعبر ولجات، تشق دروبها النظيفة، وتخلف وراءها بياض بيوتها، وتلتف آخر الجبل، تمشي في الدرب الضيقة التي تصلها بالجلالي.

تشعر اليوم بأن الدرب طويلة أكثر من كل الأيام التي مضت وهي تمشي إليه بالخبز والسكر والرجاء، تشعر أن خطوتها اليوم أثقل وأن الأرض تحتها تعاند خطوتها كي لا تصل.

لكنها تصل.

تقف أسفل القلعة وترفع رأسها، تعد الدرجات التي تنتهي عند بابها ولا تحصيها.

بعيدة باب الجلالي عنها، بعيدة وقاسية.

* * *

طرق الباب ففتحت له، عرفت في وجهه الخبر، تهاوت فالتقطها بين يديه وأسندها، قطع الحوش بها في خطوات صغيرة ثم أجلسها على الحصير تحت بيذامتها، وجلس عند رأسها يحاول أن يتكلم فيغص، تذكر دموع زاهر، وكلامه الأخير. اختنق صوته، وتوقف الكلام في حنجرته، وما عاد قادرا على مداراة حرقة عجزه، وألم خذلانه لها، تحتبس الدموع في عينيه فتصبحان كالجمر.

تنظر في وجهه وكأنها لا تراه.

يضم كفيها الصغيرتين بين كفيه، يرفعهما إلى شفتيه فيقبلهما فتنساب دموعه لتغسلها «سامحيني أختي، سامحيني».

تسمعه رياً ولا تجيب وتسحب كفيها.

تغرق في الصور التي ترد في ذهنها، في صورة زاهر يركض في بستان البيبي، وضحكته ترفرف وراءه، في انكبابه على القراطيس والحبر يلطخ دشداشته، مشيه أمامها وهو لم يتجاوز خاصرتها في الطول بعد، وداعه لها عند عتبة الباب، ووجهه بين كفيها، قبلاته على رأسها وكفها.

تغرق في الوجوه التي أحبتها، وجه أبيها، وجه علي، العودة، البيبي، مزنة.

تشعر بتدافع ماء الوادي وهو يرتفع ويكاد يلامس قدميها وهي على بنت الخواضة مربوطة إلى خاصرة أخيها بحبل الليف.

تسمع صوت راشد يأتيها من البعيد:

«يا نوصل رباعة، يا يشلنا الوادي رباعة».

تمت

الأحد 17 يناير 2016/ مسقط